

مُحَمَّدٌ جَوَادٌ مُغْنِيَةٌ

فَلَيْسَ فَرَجٌ خَيْرٌ مِنَ الْوَيْلِ

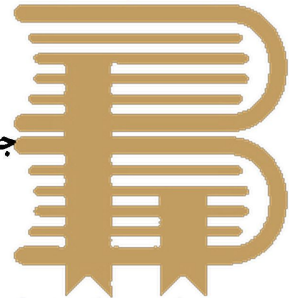


مُحَمَّدٌ جَوَادٌ مُغْنِيهِ

فَلْيَسْفِرْ جَبَلُ الْوَلَايَةِ

شبكة كتب الشيعة

جميع حقوق الترجمة والطبع محفوظة



shiabooks.net

رابطه يديل < nktba.net

الناشر مرکز مطبوعات دار التبلیغ الاسلامی

قم - ایران

چاپ حکمت - قم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

العودة الى نقاش الجاحدين

وبعد :

فان هذا الكتاب واحد من تجاربي التي مرت بها، اومرت بي...
وبه تبلغ مؤلفاتي الاربعين، طبع منها ونشراكثر من خمسة وثلاثين... و
كنت قد تصورت نفسي انها طلقت التأليف ثلاثا، وانها لن ترجع اليها ابدا
بعد «التفسير الكاشف» وما خطر بالبال وطاف بالخيال ان اعود الى نقاش
الجاحدين بالتوحيد، والنبوة، والولاية، واليوم الآخر، كيف وقد سبق ان
كتبت واذعت في هذا الموضوع مرات ومرات؟..وهو- أى النقاش في الاصول
الاربعة- موضوع كتابي هذا الذي شاء سبحانه ان يكون، فهياً اسبابه...

استفت قلبك

اجمع النحاة ومعهم علماء المعاني والبيان أن كل خبر مكتوب باكان او منطوقا فهو يحتمل الصدق والكذب، وبخاصة اذا كان المخبر يتحدث عن نفسه، وبصورة اخص اذا كان شغوفاً ومولعاً بالكلام عن عبقريته ، حيث يكون الحديث عندئذ مجرد ادعاء يحتاج الى اثبات.

وقد اكون انا هذا الشغوف المولع دون ان احس واشعر... ومع هذا لا يحق لاحد ايا كان ان يطالبني بالبينّة، لسبب بسيط، وهوانى لا اطلب من القارئ ان يقتنع على كل حال، بل ادعه وما يحس من قلبه، ويكتشف بنفسه من خلال السطور والكلمات... ولا يهمنى ابداً ان يشك ويرتاب مادمت على يقين مما اقول.

انا والقارئ

كنت، وانا اكتب التفسير الكاشف كلاعب الكرة، يركض وراءها نى تنجّه، ولا يقف لحظة واحدة ليلتقط نفساً من انفاسه... آية لا تتجاوز كلماتها عدداً لا صابع- ابحث وانقب في العديد من المصادر لفهم المراد، ومتى وثقت بانى صرت من اهل الفهم والعلم بما تعنيه الاية حاولت جهدى ان اعبر عنه بأسلوب واضح، لا تصنع فيه، ولا تطويل كى يستسيغه القارئ، ولا يمله. وانا احب قارئى كثيراً حتى ولو انتقدنى واعرض عن افكارى... لانى لولاهما فكرت ولا كتبت... ومن أجل هذا احرص على متابعتى لى حتى النهاية، واقملق اليه. ما ممكن- خوفاً ان يتركنى الى غير رجعة، ولا سلطان لى على قلبه وعقله الا بما ينسجم مع ذوقه وطبعه.. وأية جدوى من كتاب لا يقرأ، ومن قول لا يسمع.

وخير وسيلة لاغراء القارئ ان يخاطبه الكاتب بالحقيقة، ويصوغها بشكل طبيعي، ولا يتظاهر أمامه بغير ما يؤمن ويدين، وأعنى بالحقيقة كل ما يتصل بحياة الناس ، وينبع من حاجاتهم .. وأية فكرة تتجاهل هذه الحقيقة فما هي من الدين والعلم فى شيء. اما الشكل الطبيعي فالمراد به ان يجرى الكاتب على فطرته وسجيته ولا يعتمد الصنعة وزخرفة الكلام، ومتى استمر على ذلك نما أسلوبه شيئاً فشيئاً، وأصلح نفسه بنفسه.

نجاحى كمؤلف

قد يظن القارئ وغير القارئ ان نجاحى ككاتب او كمؤلف اسلامى يعود فقط الى ما أشرت.. اما انا فاظن ان الكاتب الاسلامى لا ينجح، ويستحيل ان ينجح الا مع هذه الشروط بالاضافه الى ما تقدم:

الاول : ان يكون على علم او الملم بالتيارات والمذاهب الفكرية الحديثة، ومدى سلطانها وتأثيرها فى هذا العصر.

الثانى : ان يفهم الاسلام على حقيقته، وانه سهل يسير ومفهوم لكافة الناس، وان تعاليمه من الالف الى الياء اساسها الاخلاص، والعمل الصالح ، ثم يعرضها بايجاز ووضوح ، ويدفع عنها ما اثير او يثار حولها من شكوك وشبهات.

الثالث : ان يكون عالماً بعيوب المجتمع الاسلامى واوضاعه ، كالتعصب الاعمى، والتمسك بالقشور، والايمان بالبدع، واللامبالاة بالصالح العام، وغير ذلك مما يبرأ منه الدين والعلم ، ويأبأ العقل والضمير، وان

ينقد هذه العيوب والاضاع بجرأة واخلاص، ويذكر ما يراه كفيلا بازالتها (١).

نفته مصدر

خاطبت القارئ بما اعتقد، وظهرت له على حقيقتي لفظا ومعنى في كل ما كتبت ونشرت، فتقبلني على علاتي، واقبل الشباب والشيوخ على مؤلفاتي، واهتمت بها اكبر دار للنشر في الشرق العربي، وكنت ومازلت اقبض منها في كل سنة بالالاف لابلامات، فغبطني البعض، وحسدني آخرون .

واقسم لا ولئك وهؤلاء اني ارثي لحالي، واحزن على نفسي، واودمن اعماقي لو كنت راويا وخطابا.. وانتهيت الى هذه الامنية بعد العمر الطويل، والتجارب القاسية، وفي كثير من الاحيان كان يخيّل الى ان حياتي هباء و ان نشاطي في التأليف وهم، وانني تماما كالالة الصماء، اتحرك من غير شعور.. من اين جاء هذا الخيال وكتبني تعود على بكل خير ! .

الله اعلم .. ومعذرة من هذه الثروة ... انها نفته مصدر .

الفرار

واخيرا، وبعد اربع سنوات امضيتها مع التفسير الكاشف تم بعون الله وتوفيقه .. فسجدت له شكرا، واهتز قلبي فرحا، وكنت في اسعد لحظة من حياتي وقلت : لا تأليف ولا عمل بعد اليوم .. ابدل الاشياء الا الراحة و

(١) دارت في رأبي فكرة قبل سنوات، وتعاودني من حين لآخر، وهي

ان اصدر مجلة باسم «هدم وبناء» وابوابها الرئيسية ثلاثة، وما عداها ثانوي جانبي: الباب الاول الدفاع عن الاسلام . الثاني تبسيط و توضيح مبادئه و تعاليمه . الثالث نقد العيوب، وهو المراد بالهدم ويبان ما يجب اتباعه على شرط الاسلام وهو البناء واذا حالت الظروف بيني وبين هذه الفكرة او الامنية فعسى ان يتاج لها من هو كفؤ واهل .

السياحة، فلقد علمت بى السن، وكفانى ما لاقيت.. ولا بد من جوجديد، لا عواصف فيه، ولا قذائف.. وصممت أن اموت بلامتاع وبهموم - ان امكن- وقال لى اخ بعلم حالى : يستحيل ان تدع التأليف، وستعود اليه من حيث لا تريد.. والمسألة قضية وقت، كيف وقد اصبح التأليف لك طبعاً، ومن وجودك جزءاً، وسترى.. فرددت الصدر على العجز، وقلت له : انت الذى سبرى .

ولكن من اين ابدأ الترحال؟ وما لبثت حتى سافرت الى مدينة اسوان، وامضيت فيها وفى القاهرة حوالى شهر، وفكرت ان ابقى فى مصر حتى النهاية، ولكن اوضاع الحرب بينها وبين اسرائيل منعنى من التنفيذ.. والانسان تصوغه احداث البيئة التى يعيشها، ولن يتحرر منها بحال، وان حاول.

الى قم

عدت الى بيتى ومكتبى لانسأل من جديد: اين القى بمتاعبى وهمومى وهل يتاح لى ان اتمتع بالبقية الباقية من ايامى التى تقصر وتذهب مع الثوانى والانفاس! . وتردد هذا التساؤل فى نفسى اياماً، وبقى قائماً من غير جواب الى ان تلقيت دعوة من المرجع الدينى آية الله شريعتمدارى؛ يرغب الى فيها ان ادرس فى دار التبليغ، فوقفت منها حائراً: هل اقبل، وارفض! وبقى هذا التساؤل اكثر من شهر.. ثم اوكلت الامر اليه تعالى وسالته باخلاص ان يختار لى ما فيه الخير والصالح دنيا وآخرة، واستفتحت بكتابها المجيد، فواجهتنى هذه الآية: «وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين- ٩٩ الصافات».

وفسرتها بما ينسجم مع امنيتى، وهى الهداية الى سبيل الصفو والهدوء والراحة والتحرر من الهموم والمتاعب، وما خطر فى بالى كتاب

فلسفة التوحيد والولاية ، وانه قد ينتفع بى طلاب دار التبليغ وغيرهم من الذين يوجهون الاسئلة الى ؛ ويتقون باجوبتى ومعرفتى .. وعلى اية حال فقد اجبت الدعوة على شرط ان اسافر الى قم على حسابى ، وبصفتى زائرا لامقيما ، وادرس الاوضاع فيها عن كثب ؛ وعلى ضوءها اقرر الايجاب والنفى ، ولما قبل الشرط عزمت وتوكلت ، وقد استهوانى بقم اكثر من اى شىء الحركة العلمية ، فمن حلقات لدروس الخارج الى اخرى لدراسة السطوح ؛ وثالثة لتفسير القرآن ؛ ورابعة لنهج البلاغة ؛ ومن المحاضرات الاسبوعية هنا وهناك الى النشرات الدينية لترية الجيل ؛ وليظل أرتباطهم بدينهم حيا وقويا .

اما دار التبليغ فرايتها نفع بالاساتذة والتلاميذ ؛ هذا يلقي الدرس على طلابه ، وذلك يسأل ويذاكر ، وثالث مكب على القراءة والمطالعة ، و رابع يترجم من لغة الى لغة ، وخامس يضرب على الآلة الكاتبة ، و سادس يراقب الاعمال ، ويهتم بشئون الطلاب وحل مشاكلهم ، فعزمت ان اخلص لهذه الدار ، وان اضعف العناية بطلابها جهدهما استطيع مادمت فى ايران ؛ وان لاقيم اية علاقة مع انسان الاعلى اساس العلم ؛ وان لاستمع لاحاديث السياسة والتحزبات ، وادخل فيها .. ومضيت على هذا العزم والتصميم وسابقي معه مادمت بعيدا عن وطنى .. وليقل صراصير الدمن ماشاء لهم اللؤم والضغن .. فلقد الفت الشائعات المغرضة حتى اصبحت عندى كلاما فارغا لا تعنى شيئا ؛ وانا هنا تعنى غيرى .

دمهما يكن فقد تقرران ادرس فلسفة العقيدة ، والفقه المقارن على المذاهب الخمسة ؛ وقلت لآية الله شريعتمدارى : كيف ادرس باللغة العربية ،

والطلاب لا يفهمونها . قال: يفهمون ، وان صعب عليهم الكلام والتحدث .
قلت : قد يفهمون ما يقرأون ، ولكن هل يفهمون ما يسمعون ؟ . فاعاد كلمة
يفهمون واكدها .

وفي ذات يوم قلت للطلاب ، وانا القى الدرس : اتمنى لو عرفت الفارسية
لادرسكم بها.. قالوا : نحن لانرضى ؛ لان استماعنا الى اللغة العربية يساعدنا
على التحدث بها ، ويصحح الكثير من تعابيرنا العربية .. ودرسك يجمع بين
هذه الفائدة وبين ما تهدف اليه .. ثم انضحت الحقيقة عند الامتحان فى نهاية
السنة الدراسية ، حيث نجح من تلاميذى الذين كتبوا باللغة العربية بنسبة
٩٨ ١٠ . وتبين لى ان العديد منهم يجيدون هذه اللغة كتابة كابنائها ؛ وعندئذ
تنبتهت الى ان الانسان يستمع بوصفه متكلماً ، لا بصفة ان له اذنين وكفى ،
وانه اذا استمع الى غير لغة الام ركز اهتمامه على فهمها من حيث يريد ؛
اولا يريد .

وبعد ان رسمت هذه الصورة للمجتمع العلمى القمى على ما هو...
بعيداً عن الميول والتحيز - ابدى هذه الملاحظة بقصد التنبيه فقط ، وهى
ان المجتمع الدينى بقم - على وجه العموم - كغيره من المجتمعات الدينية
الاسلامية يعيش فى عزلة عن الاحداث والتيارات العالمية نتيجة التركيز
على القديم شكلاً ومحتوى .. ولو كان مع تلك الجهود القيمة توجيه صحيح
لطرات تغيرات كثيرة ونافعة دنيا وآخرة .. وعسى ان يتاح لهذا المجتمع
من يوقظه من غفوته ، ويوجهه الى الطريق القويم .

والذى تجدر الاشارة اليه ، بل وتجب ان الجهات الاستعمارية و

الاحادية تهتم كثيرا بمعرفة الاوساط الدينية في كل مكان اسلامية كانت ام غير اسلامية، وتجرى عنها وعن سائر عادات الشعوب وتقاليدها دراسات واسعة و دقيقة باسم الابحاث الاجتماعية و الانسانية ، و تنفق في هذه السبيل الاموال الطائلة، وتعرف عن النجف وقم اكثر منى ومن حجج الاسلام وآيات الله الملك العالم.. وتهدف هذه الدراسات الى مقاصد معينة لاصلة لها بالعلم و لانسانية من قريب او بعيد ، وكل همها واهتمامها ان تعرف تأثير الدين وعلمائه في البلاد التي تطمع بخيراتها و اخضاعها لسياساتها كي تتفادى كل ما من شأنه ان يحول بينها وبين مصالحها وارباحها.

اعادة النظر برويه

قد يحاول المرء ان يبتكر ويتعمق فيما يعرضه على القارئ او السامع من عصارة افكاره، فينتهي الى السخف والتعقيد، وكثيرا ما يحدث هذا للذين يتطلعون الى الشهرة بالعلم، والى منصب المرجعية قبل الاوان.. وما اكثر هؤلاء بينما نحن المعممين و «المعبيين» (١) وخير وسيلة لتنمية العقل الناقد - النكرار و اعادة النظر بصبر وروية ، وبقصد التفهم ومعرفة الحقيقة، لا بقصد ابراز الشخصية والعبقرية.

و كنت قد كتبت في العقيدة وفلسفتها اكثر من مرة، واعدت النظر مرات، ولكن في الاسلوب والتعبير بقصد التوضيح والايجاز - ما امكن وكنت اسرع الى المطبعة بمجرد ان اهتدى الى قصدي هذا؟ وبالخصوص ان دار العلم ومطابعها كانت تستعجلنى وتلح على .. هذا، الى متاعبي الخاصة

(١) من لبس العباءة على غير قياس.

التي كانت تملأ قلبي وانا بلبنان وقد تحررت منها او من اكثرها، وانا في قم،
ولله الحمد، وصفي لي جو التأليف و التفكير ، وانعكست آثاره في هذه
الصفحات التي ادرسها في دار التبليغ واحسب انها تفرق سعة ودقة عما سبق لي
من المؤلفات في العقيدة الاسلامية و فلسفتها . والله سبحانه المسئول ان
يتقبل ويشيب والصلوة على محمد واله لاطهار.

تنبيه

اهتم علماء الامامية أي اهتمام بنصوص الولاية كتابا وسنة، وبذا
كل جهد بحثا عنها في كل مكان وبخاصة في كتب المنكرين ومصادرهم ،
و وضعوا فيها عشرات المجلدات قديما و طبعت مرات ، وانتشرت أي
انتشار حتى اصبحت في متناول كل يد ، وما زال الخطباء والقراء يكررونها
على المنابر ، ويرددها العلماء في المجالس و حلقات الدرس حتى حفظها
الالوف عن ظهر قلب تماما كالفاتحة . . ومن اجل هذا اوجزت الكلام عنها
- ما امكن - واقتصرت على ما رايت ضروريا، و اشرت الى مصادر السنية
والشيعية، وأية جدوى من النقل المبذول الذي لا يكلف جهدا؛ ولا يضيف
جديدا ! وهو سبحانه الهادي الى طاعته . والصلوة على محمد وعترته .

فَلَسْفَتُ النُّفُوسِ حَبْلٌ

اثبات الخالق

بمنطق الحسن والعقل

الدين والشباب

فى كل العصور وجد الایمان والمؤمنون بالله ، والالحاد والملحدون به ، و ما خلا يوم واحد من اولئك وهؤلاء ، ولكن لماذا اعرض الشباب عن الدين فى هذا العصر اكثر من أى وقت مضى ؟ : هل اكتشف فيه هذا الجيل عيوباً و اخطاء خفيت على من عاش قبلهم فى عصر الظلمات ، و هم يعيشون فى عصر النور والتقدم . والمكتشفات والمخترعات ، أو أن قادة الدين خانوه ، وانحرفوا عنه ، فزعت الثقة به وبهم ؟ .

ولا يلجأ فى التعليل الى الشطر الاخير الاحقاد او جاهل .

لان الكلام والسؤال عن الدين لا عن رجاله.. والمنحرفون من كل نوع ، لا من رجال الدين فقط موجودون فى كل زمان ومكان .

واجاب البعض من رجال الدين عن هذا السؤال من خلال مشكلاته الجزئية ، ومصالحه الشخصية.. وليس فى ذلك أية غرابه ، بل هو على الاصول والقواعد ، بالاضافة الى عجزه عن تمحيص الادواء الاجتماعية ، و تحليلها بطريقة موضوعية .

وقال آخرون : يرجع السبب فى ذلك الى تيارات ومذاهب فلسفية زائفة فى تفسير الكون بخاصة المذهب القائل بان المادة هى الموجود الوحيد. وان الحياة نشأت منها على غير قصد .. ولنا مع الماديين مواقف فى كتاب فلسفة المبدأ والمعاد .. وسنقف معهم ايضا بعد لحظات .. ومن تلك التيارات والمذاهب نظرية التطور، فقد ظن البعض خطأ بأنها تتعارض مع الدين ونصوصه ... و لكن عدداً غير قليل من القائلين بهذه النظرية ، ومنهم دارون نفسه يؤمنون بالله ايمانهم بانفسهم بعد ايمانهم بانه لا تفسير لتطور المادة يركن اليه العقل والقلب الابوجود قادر عليهم وراء الطبيعة والمادة ، ويأتى البيان فى فقرة الانسان والقرد . وقد اجاب شباب الهييز عن هذه التيارات ونحوها باللامعقول فى المظاهر والافعال ، وفى المخاريق والمخدرات .

ونحن لانشك ابداً فى ان بعض المدارس والمذاهب سبب من اسباب الالحاد، واعراض الشباب عن الدين، وان الكثير منهم انخدع باسماء تشير الى تيارات مغرضه، واسماء لامعة ، تكلم اصحابها عن الكون و تفسيره ، وهم فى عمى عن اصله وسره، نحن لانشك فى ذلك، ونعطف عليه سببا آخر نعرضه على الشكل التالى :

تنقسم العلوم الى انسانية ، و طبيعية ، و تهدف الاولى الى دراسة الانسان وحياته ومشاعره وتاريخه ، وتهتم بالقيم والمثل العليا ويندرج فيها علم الدين والفلسفة والاخلاق، والادب والفنون، والتاريخ والسياسة والاقتصاد ، وما شبهه ، وقد تسهل العلوم الانسانية وسائل العيش لصاحبها ، ولكن هذه الوسائل غير مقصودة بالذات

اما العلوم الطبيعية فتهدف الى معرفة الطبيعة و اشياؤها بصرف النظر عن حقيقة الانسان وتاريخه مع العلم بانه كائن طبيعى ، ولامفر من اعتباره جزءاً من الطبيعة ، وان تميز عن غيره بالعقل والوعى ، والمقصود الاول من معرفة الطبيعة تسخيرها فى وسائل العيش ، و مطالب الحياة ، ومن اجل هذا تدرج فيها الصناعة بشتى انواعها.. و قد تبوأ العلوم الانسانية فى القديم ، وحيث لم تتقدم الصناعة بعد هذا التقدم الهائل ، و تجرد الانسان عن انسانيته ، تبوأ الانسانيات مكانا عليا، وبخاصه الدين حيث كان تأثيره بالغا فى تفكير الناس ، و سلطانه قويا على حياتهم فى شتى جهاتها .

وفجأة وبسرعة مذهشة خرجت الالة كالعفريت - كما شبهها البعض - وتطورت الصناعة من الاعتماد على اليد والدولاب الى البخار، ثم الكهرباء فالذرة ، ووقع الانقلاب العميق والخطير فى الحياة ، وتراكت الثروات ، وامتلات الجيوب بالنقود ، و تاسست الشركات ، و اقيمت المصارف ، و ارتفعت البنايات الى قمم الجبال . فتأثر الشباب أى تأثير ، و تمرد الابناء على الالباء ، و اصابهم ما يشبه المس والحمى ، و ابوا الا ان يتجهوا الى المادة وعلومها ليحققوا ارفع مستوى ممكن من الحياة و لوعلى حساب الدين والضمير والقيم والمبادئ و علم الدين لا يوصلهم الى هذه الغاية ... كيف ؟ و هل للدين مصانع و معامل تدرا الاموال ؟ . فانصرفوا عنه الى العلوم العصرية وكل ما يحقق الامانى ويشبع الرغبات، وبالتالى تمردوا على العقائد و الاخلاق و التقاليد .. وبهذا كان يعتذر الى عهد قريب

المتشائمون من العلوم العصرية .. وكنا نسحر منهم انذاك ، انا وبعض
الرفاق يوم كنت طالبا في النجف الاشرف .

والاسلام يعترف باهمية العلوم الطبيعية و يعتبرها من ضرورات
الحياة وقد حث عليها كما حث على العلوم الانسانية و اعتبرها فريضة على
كل مسلم ومسلمة شريطة ان توجه الى خير الانسانية و صالحها و اى
شيء يجلب الشرور والالام فهو حرام ومن اكبر الكبائر فى نظر الاسلام
سواء اسميناه علما انسانيا ، ام علما طبيعيا ، فالالة التى تصنع او تحمل
للمستهلكين الطعام واللباس والدواء فهى عند الله خير ، اما اذا صنعت
او حملت الاسلحة الفتاكة ، واجهزة التجسس فهى شر و وبال .

والخلاصة ان الموجب لاعراض من اعرض عن الدين من الشباب
هو المذاهب المادية الالحادية وحب التباهى والمضاهاة فى المظاهر ومتاع
الحياة... و ايا كان السبب فاننا نعرض فى هذا الفصل الدليل على وجود الخالق من
الحس والعقل من غير تحيز او تقليد ، و بصرف النظر عن ايمان من آمن
والحاد من ألحد ، ونبدأ قبل كل شيء فى انه : هل يجب على البالغ العاقل
البحث والنظر لمعرفة الخالق ، او هو فى حل من ذلك ؟ .

وجوب البحث والنظر

من توضيح الواضحات ان نقول : العلم بالشيء أى شيء ، خير
من الجهل به ، فكيف العلم بانه : هل لهذا الكون خالق ومبدع ؟ . وهل
للانسان مبدىء ومعيد ؟ . وهل هو مسئول امام خالقه ؟ .. وايضا من نافلة
الكلام ان نقول : ان الجيل فى هذا العصر قد اقبل على العلم و مدارسه

اكثر من أى وقت مضى .. ولكن نتساءل : هل الباعث للجيل على طلب العلم هو حب الاطلاع ، ومعرفة الحقيقة ، ام شىء آخر؟ -

واشرنا قبل لحظة ان الغالبية الكبرى من ابناء هذا الجيل يطلبون العلم كوسيلة للمال والعيش ، وانهم يقيسون الشهادة بماتدر عليهم من متاع الحياة ، تماما كالبقرة يقاس ثمنها بقدر ماتحلب .. ولو كانوا من طلاب العلم واقعا ، واهل الرغبة فى التمييز بين الحق والباطل ، والخير والشر لانجوها ، ولو قليلا الى دراسة هذا الوجود :

«وهو كتاب الفه الله ، فاحكم تأليفه بان جعل كل عنصر من عناصر الوجود حرفاً من حروفه ، وكل ذرة من ذرات الكائنات كلمة من كلماته وكل عنصر يقوم به كائن هو جملة مقروءة ، واذن فلو وجود لغة فصيحة سوية النظام ، وكل مركب من مركباته الطبيعية وراءه معنى كالكلمة تماما ووراء هذا المعنى حقيقة خفية ، تبعث على التفكير يفهمها كل لقن ذكى يدرك تعبير الحقيقة المطلقة خلال صحائف هذا الوجود .. بيدان تلك الحقيقة مجردة ، لاتفتح اصداقها عن معانيها تماما الا لكل ذى قلب ذكى ، وهنطق سليم ونظرة خالصة الى الوجود لانشوبها نزوة من جمود ، لان المخاطب بتلك اللغة انما هى السرائر الانسانية ، والضمائر الحية الكامنة فى نفس البشر ، وماتكنه من مدارك ووجدانيات » . (١)

هذا ، الى اننا علم علم اليقين بان ملايين العقلاء قد آمنوا - على مر العصور - بان للكون خالقاً حكيماً ، وانه ماترك الانسان سدى ، بل امره

(١) من مقال نشرته جريدة الجمهورية المصرية ، عدد ٢٤ أغسطس ١٩٦٧

بقلم محمود ابى الفيض المنوفى .

ونهاه ، وانه يعيده بعد الموت للحساب والجزاء .. أليس هذا بكاف لوجوب البحث عن الدلائل ، والنظر في الكون وفي انفسنا لنعلم: هل ايمان الملايين من العلماء والعقلاء صواب ، او خطأ ؟ أليس معنى هذا ان البحث والنظر لمعرفة الله سبحانه هو في جوهره بحث عن الانسان بالذات ، وعن مبدئه ومصيره ، وتقييم حياته، وعن مسئوليته اتجاه نفسه وغيره؟ .. ان العلم بالله وكتبه ورسله يفتح للانسان ابوابا الى معرفة الكثير من الحقائق والاسرار التي لا يهتدى اليها علم من العلوم : او عقل من العقول بالغاما بلع الابنور من دين الله وشريعته ، وقديما قال العارفون بالمعنى الدقيق للعلم والمعرفة ، قالوا : ان العقل كالبصر ، والشرع الالهي نور يهديه الى الصراط القويم ، ومن لاعقل له فهو اعمى ، ومن جهل شريعة الله تخبط في الظلمات.

وبعد، فما من عاقل الا ويدرك بانه موجود ؛ وانه حي ، وله احساس و ادراك وانه ذرة في هذه الارض ؛ وهي ذرة من الكون العجيب ... الا يوحى ذلك كله بان على الانسان ان ينشد الحقيقة ويفكر في سبب وجوده ومصيره ، فان بحث جاهداً واطمأن عقله الى السبب فذاك ، وان عجز توقف الى ان يزداد فهماً وعِلماً ، وترك ما لا يستطيع الى ما يستطيع ولا يسرع الى النفي ويقول : كل ما في الكون صدفة واتفاق ، وعبث في عبث ، وتجدر الاشارة الى ان ما ذكرناه في هذه الفقرة هو شرح وتفسير لقول علماء الكلام : «ان النظر في معرفة الله واجب باتفاق المسلمين».

دلالة الكون على علمه:

قال المثاليون : لا وجود لشيء الا اذا أدركه عقل من العقول ، وما لا يدركه عقل ما يستحيل ان يوجد .

ويتلخص الرد عليهم بكلمات ثلاث: الاولى انهم يصادمون البديهة والعيان، لان العالم الخارجى مستقل بوجوده عن الانسان وادراكه، الثانية انهم اقاموا ادراك الاشياء مقام خالقها وموجدها، الثالثة يلزم على قولهم هذا ان يكون كل فرد دنيا بنفسه، وان العالم الذى يعيش فيه زيد غير العالم الذى يعيش فيه بكر، والنتيجة الحتمية لذلك انه لامعرفة عامة على الاطلاق، اذ يستحيل الاتفاق على شىء، وهذا مادعا «برتر اندر اسل ان يقول عن «بركلى» زعيم هذا المذهب: «أن مثالية بركلى تصور لنا شكلا من الجنون الذاتى الذى يطبع معظم الفلسفة العصرية» .

ومن البداهة بمكان ان العالم الخارجى مستقل بوجوده وقوانينه عن الانسان، وعن ادراكه، وانتفاعه به، لان الطبيعة اسبق فى وجودها من وجود الانسان، وايضا من البداهة ان ما من شىء له نصيب من الوجود الا ويمكن العلم به، وبعلة وجوده بعد البحث والنظر. سواء أكان ماديا، ام غير مادي . وهذا واضح لا ريب فيه .. ولكن هل فى الكون دلائل تكشف لنا عن وجود علة؟ وما هى هذه الدلائل على فرض وجودها؟.

واجاب سبحانه عن هذا السؤال بلسان رسله وانبيائه: انه، جلّت عظمتة، هو خالق كل شىء، وقد نبه العقول الى الادلة والامثال الظاهرة القاطعة على ذلك: «وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون - ٢١ الحشر». والادلة التى ذكرها سبحانه على وجوده كثيرة ومتنوعة، ويجمعها او يجمع أكثرها الانتقال والسير من المعلوم المائل امام العيان الى علة، وتتم عملية الانتقال من المعلوم الى علة فى ضوء الحس والعقل معاً، وتسمى هذه العملية عند اهل المنطق بالبرهان الانى، واليه اشار سبحانه بقوله: «سنريهم آياتنا فى الافاق

وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق - ٥٣ فصلت».

وقوله تعالى : « سريهم ... حتى يتبين » يدل بوضوح على ان دين الله والايمان به يعتمد على منطق الحس والعقل ، اى على التفكير فى الطبيعة بمعونة الحواس بحيث يكون الايمان بالله نتيجة للبحث والنظر فى الشئء المحسوس ، لانتيجة الوهم والخيال ، والتقليد و التلقين - كما يظن الجاهلون - ونعطف على منطق الحس و العقل منطق القلب ، فامان انسان حتى الجاحد (١) الا وتمر بقلبه لمعة ، او تظهر على لسانه كلمة - من حيث لا يريد - تنبىء عن وجود المبدع لهذا الكون العظيم ، فهو يجحد بشئء يؤمن به فى قرارة نفسه دون ان يلتفت الى ايمانه هذا .. ولا تفسير لذلك الا ان الواقع يفرض نفسه حتى على اعدائه ومعانديه . وتساءل : نحن نؤمن بفكرة واجب الوجود ايماننا بانفسنا ، لانه اذا لم نفترض وجود هذا الواجب لاستحال ان يوجد شئء على الاطلاق .. ولكن لماذا نلف ونودور فى البحث عن علة واجبة الوجود لنفسر بها وجود الطبيعة ما دمنا فى غنى عنها بوصف الطبيعة نفسها بواجبة الوجود ؟ وانها لا تحتاج الى علة توجدها تما ما كما يقول المؤمنون عن الاله الكائن وراء الطبيعة ، وبكلام آخر ان الماديين يسلمون مع المؤمنين بان واجب الوجود ضرورى حتمى ، ولكنهم

اجتمع تشرشل و ستالين اثناء الحرب العامة الثانية وبعد الاجتماع نقل الى مراسلى الصحف ان ستالين كان مكرراً اسم الله فى حديثه ويقسم به مؤكداً اقواله ونشرت الصحف ما نقله تشرشل الوزارة الانكليزية عن امام الشيوعيين ورئيس الدولة الروسيه .

يقولون : هو الطبيعة . ويقول المؤمنون : بل هو الله الموجود وراء الطبيعة ولماذا الذهاب الى الورا ، والبحث عن الغائب مادام الحاضر كافيا وافيا؟. ومهما يكن ، فان الاختلاف بين المؤمن والجاحد انما هو فى التطبيق لافى المفهوم ، وفى الصغرى لافى الكبرى .

الجواب :

اولا : لقد كشف العلم الحديث « ان المادة عبارة عن مجرد حوادث ظاهرة متتابعة لعوامل خفية تكونها ، ثم تتحول المادة الى طاقة . والطاقة الى مادة اخرى ، وبكيفية اخرى .. حتى الكائنات التى تبدوا عيننا ثابتة هى فى واقعها سريعة الحركة ، والتطور والتغيير » . ومن البدهة بمكان ان ما كان على هذا الوصف والوضع من التحول والتغيير - يستحيل ان يكون واجب الوجود ، وعلة اولية لنفسه ولغيره .

ثانياً : ان المادة الجامدة العمياء لا تكون ولن تكون سببا للحياة و الادراك ، وللنظام والانسجام ، لان فاقد الشىء لا يعطيه .. و اى عاقل يقول : ان العقل فى الانسان ، والنظام فى الكون ، و ما اليهما من حكمة وتديير ، كل ذلك قد وجد من طبيعة جامدة ؛ اوبنحو الصدفة التى رفضها العلم والفلسفة ، والعقل والوجدان .

اما القول بانه لافرق بين آمن وجحد لافى التطبيق و التسمية فقد صدقه بعض السذج ، وهو جهل فاحش ، وخطأ كبير ، لان اله المؤمنين عالم مريد ، يبدأ الخلق ، ثم يعيده للحساب والجزاء ، و يرسل الانبياء مبشرين ومنذرين ، واين منه المادة الجامدة العمياء ؟.

نحن والتجريبيون

التجريبيون هم الذين قالوا : ان مصدر المعارف كلها هو التجربة والخبرة الحسية ، وان وسيلتها الوحيدة هي الحواس الظاهرة : السمع و البصر والشم والذوق واللمس .. وأية فكرة رأيا كانت او عقيدة لاتستند الى حاسة من هذه الحواس مباشرة وبلا واسطة فهي سخف وهراء وكلام فارغ .. وهذه عبارتهم بالحرف : «لواقفل باب الحواس لامتنتع المعرفة كلها» . فصحة الفكرة عندهم تقاس باعتمادها مباشرة على الحس وحده ، اما اذا اعتمدت على الحس و بديهية العقل معاتكون الفكرة مجرد وهم وخيال ، و بالاولى اذا اعتمدت على العقل فقط .

مثلا نحن نتصور وجود الكون ، ونؤمن به ؛ فهذه الصورة صحيحة وهذا الايمان سليم حيث اعتمد كل منهما على الحس بلا واسطة إما اذا تصورنا وجود خالق الكون ، وآمنا به فيكون التصور و الايمان من وهم الخيال ، لانهما لم يعتمدا على شهادة الحواس وحدها ، بل عليها و على النظر العقلي ، وهو مبدأ العلية الذي لا يبتنى على الحس ، وانما العقل حين رأى الترابط والتلازم وجوداً وعدمين حادثين استخلص من ذلك ان احدهما علة للآخر ، وانهما معلولان لعلة واحدة مع انه لا ضرورة لهذه العلية على الاطلاق حتى ولو اطردهم التلازم بين الحادثين آلاف المرات ، لانه على حد تعبيرهم - ما راينا لهذه الضرورة حجما اولونا ، ولا سمعنا لها صوتا او حركة ، ولا ذقنا لها طعما ، او شمنا لها ريحا ، فكيف نحكم بوجودها؟ (انظر كتاب نظرية المعرفة للدكتور زكي نجيب محمود ص ٥٢ وما بعدها ط ١٩٥٦).

وتجدد الإشارة الى ان التجريبيين لا يطلقون كلمة العلم الاعلى الخبرة الحسية التى جاءت نتيجة للتجربة ، ويسمون سائر المعارف بالنظريات الغيبية والميتافيزيقية والمثالية والذاتية، ويسخرون منها حتى ولو اعتمد الغيب فيما اعتمد على الواقع الفعلى التجريبي.

الجواب:

١- نحن نسلم بالتجربة، ونصدق شهادة الحواس، بل ونعتبرها حجة ودليلا على الحق، ولانسأل ونبحث عن سبب حجيتها ودليل اعتبارها، لان علة التصديق بها موجودة فيها بالذات حيث لا شىء وراء الحس والعيان... نحن نؤمن بذلك، وفي الوقت نفسه نؤمن ببداهة العقل وشهادتها، تماما كما نؤمن بشهادة الحواس، لان الانسان بعقله وحواسه، ولا غنى له باحدهما عن الآخر، فالحواس تهدي العقل الى الطريق، وتفتح له باب المعرفة ، والعقل يختبر ما تراه الحواس وينظر: هل هو فى حقيقته وواقعه على ما بدا للحواس، او على غير ما رأيت وشاهدت ؟.

ونعنى ببداهة العقل الخبرة الفطرية التى يشترك فيها العالم والجاهل، ولا تتأثر وتختلف باختلاف الامزجة والطبايع، والبيئة والتربية، كالعلم بان المتساوين لثالث متساويان، وان المثلث غير المربع، والكل اعظم من الجزء، وان الشخص لا يوجد فى مكانين بآن واحد، وان الشىء لا يصدق عليه النفي والاثبات من جهة واحدة، بل اذا صدق احدهما كذب الآخر، وبالعكس، ومن انكر هذه البداهة وصحتها فهو تماما كما من انكر شهادة الحواس وسلامتها.. وما لنا ولعقول الناس ومعرفتهم ، فلندعها ونعرض على الواقع: هل يقبل

ان يكون الشيء واحداً وكثيراً، وموجوداً وغير موجود فى آن واحد؟. وهذه الشهادة الحسية والبداهة العقلية هما الطريقتان الاوليان والاساسيان لمعرفة الحقيقة وقياسها بشتى انواعها ، وعليهما تمضى حركة الفكر الانسانى، وهما مصدر افعاله وآثاره، وعلومه وتقدمه، وبدونهما لا يمكن بحال الحديث عن الصواب والخطأ، ولا عن العلم والجهل... ولكن ليس معنى هذا ان المعرفة او الفكرة لا تكون صحيحة الا اذا استندت الى احد هذين الاصلين مباشرة، بل يكفى ان تنتهى اليه بواسطة او اكثر، فاية نظرية او عقيدة تقوم على اساس من شهادة الحس او بديهية العقل ولو بواسطة فهى حق وصدق، وعلم وصواب حتى ولو كانت غيبية، والافهى جهل وضلال.

واذن فالعبرة بدليل النظرية والعقيدة لانبوعها وغيبيتها او حسيتها . . ابدا لافرق ولا تفاوت عند العلماء حقا وواقعا حتى فى مقدار الوضوح والظهور. بين الايمان بعالم الغيب والايمان بعالم الشهادة مادام الشاهد منطوق الحس و بديهية العقل، وبهذا يتبين الجهل والخطأ فى تقسيم النظرية الى غيبية وغير غيبية، والحكم ببطلان الاولى على كل حال حيث يفرض علينا منطق العلم والحق ان نقيس النظرية بدليلها ومصدرها. لانبوعها وبماهى فى ذاتها .

والايمان بالله ايمان بالغيب، لانه تعالى لا يقع تحت الحواس، ولا تصل اليه التجربة الالية، ولكن هذا الايمان حق وصدق، لانه يقوم على اساس من شهادة الحس، وبديهية العقل، فالعين ترى الكون وما فيه من نظام وقوانين ، ومن تغير وتطور، ثم تعرض مارأت على العقل، وهو ينظر ويفكر فى ان هذا الكون المتغير بل والمستمر التغير، والذى لا يحس ويشعر يستحيل ان

يكون علة لذاته و لنظامه و تغيره ، ولسيره فى اتجاه معين، بل لابدله من علة ثابتة اولية قد تفردت بالعلم والقدرة والارادة، وهى التى تحدد اتجاهه، وتنسق حرركاته، وتنظم قوانينه، وتدفع به الى الغاية المقصودة من وجوده.. ان العلة الاولى للكون خفية وغيبية، هذا صحيح، ولكن الايمان بها يبتدىء من الاعتماد على المعرفة الصحيحة وطريقها السليم، أى من الايمان بمنطق الحس والعقل، وليس كما قيل جهلا او عنادا : «ان الايمان بالله يبتدىء حيث تنتهى المعرفة».

وبكلام آخر اقر الى فهم التجريبيين: ان البحث والنظر لمعرفة الله سبحانه بحث ذاتى تأملى، وفلسفى عقلى، ما فى ذلك ريب، ولكنه فى الوقت نفسه بحث عن العلة الاولى للطبيعة، والسبب الموجب لوجودها، وعليه يكون البحث لمعرفة تعالى بحثا لفلسفة الطبيعة نفسها، واقامة نظرية عامة عنها تشمل كلياتها وجزئياتها، وظواهرها وحقائقها، فاذا اعتمد الايمان بالله - مع ذلك - على شواهد من الطبيعة تكون مقدمات هذا الايمان بما فيها التفكير النظرى المعتمد على الواقع، تكون مقدمات الايمان بالله فى مجموعها طبيعية او شبه طبيعية، ويكون الايمان بوجوده سبحانه تاما كالايमान بوجود الطبيعة، وانكار وجوده كانكار وجودها.

وقد اطلقوا اسم علم الربوبية الطبيعى على البحث لمعرفة تعالى بالنظر الى اعتماده على منطق الحس وشهادته بوجود الطبيعة وروعته، وايضا اطلقوا عليه اسم علم الربوبية الفلسفى بلحاظ حكم العقل بمبدأ العلية واستحالة تسلسل العلل، ولك ان تقول : هو بحث علمى فلسفى باعتبار الامرين معا.

٢- من اوجه الرد على التجريبيين الذين حصروا طريق المعرفة بالتجربة والخبرة الحسية: ان هذا الحصر لادليل عليه من التجربة والخبرة الحسية.. فأية حاسة من الحواس الخمس شهدت وادركت هذا «الحصر»؟.. ابدا ولاواحدة.. نقول هذا رداً عليهم بمنطقهم ، حيث نفوا مبدأ العلية لانهم ما رأوه بالعين ولاالمسوه باليد، وفي الوقت نفسه يردون بالوهم على من يستدل ببداحة العقل!.

٣- لو نفينا مبدأ العلية- كما زعم التجريبيون- لانهارت قواعد العلم بشتى انواعه، وما امكن اليقين بشيء اسمه حق وصواب، وسيطر مبدأ الصدفة والاتفاق على كل شيء... ومن هنا قال فيلسوف كبير: ان هذه النظرية اعظم فتنة ابتدعها الشيطان، وتشبث بها المعرضون عن الحق.. وقال الفيلسوف الالماني لينتز: «لا واقع يمكن ان يكون حقا او موجودا، ولا حكم يمكن ان يكون حقا الا وتكون هناك علة كافية لكونه كذلك ، وان كانت العلل فى الغالب لا يمكن ان تكون معروفة لنا» .

٤- ان الحواس تختلف باختلاف الافراد، بل ان حواس الفرد الواحد تختلف بحسب ظروفه واحواله، فاذا حصرنا المعرفة بشهادة الحواس كان معنى ذلك ان المعرفة خاصة وفردية، وانه لا قواعد كلية ، وقوانين عامة تضم الوقائع وتنظمها، وبالتالي انكار العلوم من الاساس.

٥ - ان كثيرا من الكائنات الطبيعية تبدو لاييننا ثابتة ، وهى فى واقعها سريعة الحركة... كما ان كثيرا منها لا يمكن ان تراه العين بحال كالطاقة تتحول الى مادة، او تتحول المادة اليها، قال علماء الطبيعة: ان

اشياء الكون في حقيقتها ليست طبق ما نراه من مظاهرها المجسمة وانما هى فى الواقع مجرد مظاهر وحوادث سريعة التتابع، كما جاء فى نظرية النسبية لاينشتين.

وقال الدكتور فؤاد صروف فى مقال نشرته مجلة عالم الفكر الكويتية فى العدد الثانى من المجلد الثانى: « ان علماء الطبيعة فى هذا العصر رأوا بعقولهم ما لا يمكن ان يروه بعيونهم، او بصورتاتهم الضوئية، وقد انالهم ذلك فهما جديدا لأمور كانت غامضة عليهم من قبل».

آمن علماء الطبيعة بأسرار لا يمكن ان تراها العيون، ولان يتبينها المجهر المألوف «ولا المجهر الكهربى ، ولا مرقب هيل، وهو اكبر مرقب فى العالم كله، ولا تكشف عنها الاشعة السينية»- كما جاء فى المقال المشار اليه- آمن علماء الطبيعة بهذه الاسرار التى يستحيل ان ترى بحال من الاحوال، آمنوا بعالم الغيب، لانهم رأوه بعقولهم فقط لا غير، وأخذ التجريبيون والماديون والواقعيون والشيوعيون كلهم اخذوا بقول علماء الطبيعة ، و ايمانهم بالغيب الذى لا يمكن ان تراها العيون ولا المصورات الضوئية.. ولكنهم فى الوقت نفسه كذبوا المؤمنين بالله، لالشيء الا لان الايمان بالله ايمان بالغيب الذى لا يمكن ان تراها العيون والمصورات الضوئية... فانكر واعلى المؤمنين ما اعترفوا به لعلماء الطبيعة، ونقضوا هناك ما ابرموه هنا.. فان كان نظر العقل حقا وصوابا فهو لا يقبل. التخصيص بفرد او بفة وان كان خطأ وضلالا فكذلك .

وان قال قائل: ان لدى علماء الطبيعة مختبرات فنية تشهد للعقول

بالغيب الذى لا يرى بحال، وليس لدى المؤمنين مختبرات او مصانع - قلنا فى جوابه : ان الكون العجيب المتقن هو المصنع والمختبر الاعظم الذى يشهد لكل ذى لب بوجود صانع الكون العليم الحكيم .. ومن البداهة بمكان ان مختبر العلماء لا يرشدهم الى عالم الغيب الا اذا تدبروه وانتبهوا اليه، وامعنوا فيه وفى ادواته، وهكذا لا يرشد الكون الى خالقه الا اذا نظر الانسان فيه بقلبه وعقله ، لا بغيره وجهله: «كذلك نفصل الآيات لقوم يعقون» - ٣٨ - الروم .

نحن والبرجماتيون:

البرجماتية مذهب جديد، ولها فى هذا العصر اتباع وانصار لا يحصون عدداً ، وزعيمهم « وليم جميس » وتتلخص هذه الفلسفة بان المعرفة فى حقيقتها ليست مجرد العلم بالواقع - كما هو - بل هى اداة للسلوك العملى الذى يدر النفع على صاحبه أيا كان نوع هذا السلوك ذمهما تكن الوسائل المؤدية الى بلوغ الهدف المطلوب .. فما من شىء حسن فى ذاته ، اقربح فى ذاته ، وانما يقاس الحسن بالمنافع ، فسياسة الصناعة الحربية والتفرقة العنصرية ، والحروب العدوانية ، كل هذه وما اليها من احسن الحسن اذا درت الارباح ، وكدست الثروات

لقد فاقت البرجماتية كل التيارات والفلسفات .. قال التجريبيون: اذا لم تعتمد الفكرة على التجربة فما هى بشىء ، والبرجماتيون يؤمنون بالتجربة، ولكن على شرط المنفعة ، ويقولون : ان التجربة او الفكرة التى لا تجر نفعاً ليست بشىء « وانما هى وهم فى رأس صاحبها » حتى

ولو كان مصدرها التجربة . (انظر كتاب نظرية المعرفة لركى نجيب ص ٢٩) .

ومعنى هذا ان فكرة الاله و الايمان بوجوده وهم فى الرأس ،
وجهل فى العقول، وعمى فى القلوب ، لان هذا الايمان لا ينشئ مصنعا ،
ولا يفتح مصرفا ، ولا يحتكر سوقا ، او يستعمر شعبا .. وايضا معنى هذا انه
لافلسفة واخلاق ، ولا فنون و آداب ، ولا علم نفس وسياسة واجتماع ،
ولامبادئ وقوانين ، اوحرام و حلال ، ولا بطولات و اعمال خالدات . .
ابدا لاشي الا المصانع والمعامل ، وما اليها مما يدر الارباح ، و يؤدى الى
التوسع والسيطرة وتكديس الثروات ، ولوعلى حساب المستضعفين والمستضعفات
ونشأت البرجماتية ، و نزعرت فى احضان « العالم الحر » وجند لها
الاذاعة والصحافة والسينما والتلفزيون ومكاتب الاذاعة وادمغة الفلاسفة
و اقلام الادباء ، و هدفه الاول ان يضيف طابع العلم و التقدم على نظامه
الرأسمالى ، وسياسته العدوانية فى الشرق والغرب . وان ينفى الحق
والعلم عن كل ما يمت الى الانسانيه بسبب ولكن ما من انسان فى آسيا
و أفريقيا واروپا مستعدثن يموت من اجل الرسمالية ، كما قال الفيلسوف
الفرنسى « جاك ماريان » . يريد أن هذه الرأسمالية لن تعيش الاعلى
حساب الشعوب و مقدراتها و لكن الشعوب لن تخضع و تستسلم ، بل
تقاوم و تثور دفاعا عن حياتها واقواتها .

وبعد ، فلا فرق ابدأ بين العالم الشيوعى والعالم الحر ، ذاك يقول :
لا نؤمن بالله ، لانه ايمان بالغيب ، وهذا يقول : لا نؤمن الا بحقول البترول

واحتكار الاسواق والسلع، والابقنابل الناپلم واجهزه التجسس.. والنتيجة واحدة من حيث الكفر والالحاد، واذا أُلح العالم الحر على اسم الاله وذكره فانما يعنى، الاله المخلص للراسمالية، والمحامى عنه وعنهما، ولا يعنى اله الضعفاء والمشردين من ابناء فيتنام وفلسطين.

العلم يدعو الى الايمان بالله:

آمن كثير من علماء الطبيعة وغيرهم فى هذا العصر بعد أن كانوا به من الجاحدين، وروا قصة هذا الايمان واسبابه، وهى عين بحوثهم وتجاربهم لطبيعة الاشياء المادية ووظيفتها.. وقد جمع البعض طائفة من اقوالهم فى كتاب باسم «الله يتجلى فى عصر العلم» وترجم هذا الكتاب الى العديد من اللغات ومنها اللغة العربية فى ١٧٠ صفحة، وتحدثت عنه، ونقلت منه فى فصل خاص بكتاب «فلسفة المبدأ والمعاد».

و وضع العقاد كتابا مستقلا فى «عقائد المفكرين». وهذا هو اسمه الكامل، وفيهم رجال من علماء الطبيعة، وفلاسفة وادباء واطباء ومهندسون وغيرهم.. وايضا تحدثت عن هذا الكتاب، ونقلت منه فى كتاب «الله والعقل». واخيراً قرأت مقالا مطولا وبالغ الاهمية للدكتور محمد عبد الهادى ابى ريدة بعنوان «الايمان بالله فى عصر العلم» نشرته مجلة عالم الفكر الكويتية فى العدد الاول من المجلد الاول، وهو يغنى - كما اعتقد - عن كل ما كتب فى اثبات الخالق حتى الآن، فلقد عرض فيه نوع الادلة على وجود الله من عهد افلاطون الى اليوم، واحسن العرض ووضح، واجاد فى التلخيص وجمع.. وفيما يلى نشير الى بعض ما جاء فى هذا المقال وفى غيره مما قرأناه فى الكتب الحديثة والصحف.

الفلسفة والتأمل العقلى :

تعتمد الفلسفة على التفكير والتأمل العقلى، ومثال ذلك ان تقول: هذا الكون الذى نراه بالحس غير ثابت على حال حيث نشاهد فيه حدوثا وتغيرا وزوالا، واذن لا بد له من علة ثابتة مستقرة والا لزم التسلسل الى ما لا نهاية.. وهذا الدليل يستند الى مبدأ العلية، ومبدأ استحالة التسلسل فى العلل، وضرورة الانتهاء الى علة اولية لا تحول ولا تزول، وهذان المبدأان عقليان.

مثال ثان للتأمل الفلسفى: للطبيعة نظام متقن ومحكم، وهى تسير عليه منذ ملايين السنين، ولا تحيد عنه بحال، ومن اجل هذا امكن ضبطها وقياسها والاستفادة منها.. وهذا يحتم وجود قوة عليا وراء الطبيعة مريدة قاذرة، وحكيمة عالمية، وهى التى اتقنت واحكمت، والافكيف يجوز وجود فعل متقن محكم من غير عليم حكيم؟.. ويعتمد هذا الدليل على مبدأ العلة الكافية لكل ما يحدث فى العالم، وان الصدفة باطلة لا يصح ان يفسر بها شىء كما هو الحق، لان الصدفة لا تكرر، وتنفى الترابط بين الاشياء على وجه الاطلاق.

العلم والتجربة:

ويعتمد العلم بمعناه الحديث على الخبرة الحسية والعمل التجريبي الذى يرى بالعين، ويلمس باليد، ولا يتجاوزه الى العقل الا ضمن نطاق محدد، وهو استكمال ما رأتة الحواس ومعطياتها فقط لا غير، ومثال ذلك ان يكتشف علماء الطبيعة العناصر التى يقوم عليها الكيان الطبيعى، وتتكون منها الكتلة المادية بشتى انواعها من الذرة الكيميائية التى لا يقع عليها الحس الى اكبر

جرم، وان يكتشفوا ايضا ان هذه العناصر ليست ازليه ولن تكون ابدية بل لها عمر محدد، ومتى تم هذا الكشف جزموا تلقائيا بان الطبيعة حادثة.

العلماء المفكرون:

وقد استدل العلماء المفكرون في هذا العصر على وجود الله بالدليل

التالى:

نحن ندرك وجود الكون، ولكن كيف نفسر وجوده ونشأته؟ هناك اربعة احتمالات للاجابة عن هذا السؤال:

الاحتمال الاول: ان هذا الكون غير موجود فى الواقع، وان تصورنا لوجوده مجرد وهم وخيال!. وليس من شك ان هذا يخالف الواقع ، لان الوجود مستقل ومنفصل عن الذات التى تدركه.

الاحتمال الثانى: ان ينشأ هذا الكون من العدم وبلا سبب!.. وهذا مستحيل، لان الصدفة لا تفسر لنا وجود العالم بما فيه من مادة وطاقة، فكيف بالنظام المائل والتنسيق الهائل فى كل شىء؟.. ان هذا يحتاج الى ادراك وقدرة، وعلم وحكمة، والمادة لا تنشئ شىئاً من ذلك، ولو تولدت الحياة من المادة نفسها لم يكن هناك تفرقة بين مادة ومادة، وان تظهر الحياة فى هذه دون تلك.. اجل، قال العلماء:

« اذا بلغت المادة مبلغا معلوما من الاستعداد صلحت لحلول الحياة فيها، ونهيات لخدمتها، مثلها فى ذلك مثل الجهاز الذى يصلح بالتركيب لقبول الكهرباء، فان اجزاء الجهاز لا تتحرك الا اذا اجتمعت على النحو الصالح لاستقبال التيار وتلبية حركاته ، وكذلك الاعضاء الجسدية لا تخلق

الحياة، وانما هي ظرف صالح لاستقبالها وتلبية حركاتها اذا تم تركيبها على النحو المعروف . و من هنا كان التفسير الالى الميكانيكى لحركة المادة باطلا.

الاحتمال الثالث: ان الكون ازالى لابتداية له..وهذا باطل حيث اكتشف العلم الحديث حتى الآن عناصر يبلغ عددها ١٠٢، وكل مادة عرفها الانسان تتكون من واحد او اكثر من هذه ال ١٠٢ (١) وبعد دراستها بدقة تبين لعلماء الطبيعة ان جميع هذه العناصر فى سبيل الزوال، ولكن بعضها يسير اليه بسرعة ، وبعضها ببطء ، وفى ضوء هذه الحقيقة قرروا أن العالم له بداية و نهاية، وانه لا بد ان يزول بعد أن تتحقق الغاية من وجوده، وقدروا عمر العالم -على التقريب- بحوالى خمسة بلايين من السنين.

واذا بطلت الاحتمالات الثلاثة تعين الرابع، وهو ما نقله ابوريدة عن «مونسما» فى مقاله الذى اشرنا اليه وهو «لابد لاصل الكون من خالق ازالى ليس له بداية ، عليم محيط بكل شىء قوى ليس لقدرته حدود ، ولا بد ان يكون هذا الكون من صنع يديه» . وايضا نقل عنه مانصه بالحرف:

« اذا كان هذا العالم المادى عاجزا عن ان يخلق نفسه ، او يحدد القوانين التى يخضع لها فلا بد ان يكون الخلق قد تم بقدره كائن غير مادى، وتدل كل الشواهد على ان الخالق متصفا بالعقل والحكمة والارادة .. واذن فالنتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على ان لهذا

(١) ذكر احمد امين العرقى فى آخر الجزء الثالث من كتاب التكامل فى

الاسلام - جدولاً باسماء هذه العناصر.

الكون خالفاً فحسب ، بل لابد ان يكون هذا الخالق حكيماً عليماً قادراً على كل شيء كى يستطيع ان يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولابد ان يكون هذا الخالق دائماً الوجود تتجلى آياته فى كل مكان .

ان ايمان من آمن بالله عن طريق النظر فى الكون وفى الانسان - يكشف لنا بوضوح عن السر فى قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » ان رجال العلم الطبيعى كغيرهم من العلماء وارباب المهن يهتمون فقط بما يتصل بوظيفتهم و اختصاصهم ، ولا يفكرون فى غيره الاعراض وعند الضرورة ، ولكن علماء الطبيعة التقوا على غير ميعاد مع الطريق المؤدية الى معرفة الله تعالى والايمان به، ذلك بان الافاق اى اقطار السموات والارض هى الموضوع الاساسى لبحوثهم، والميدان الفسيح لتجاربهم، وهى فى الوقت نفسه نقطة البداية والانطلاق الى العلم بوجود الله ، فانهى بهم هذا اللقاء الى معرفته تعالى والايمان به من حيث لا يريدون .. وصدق من قال : العلم يدعو الى الايمان . ومن اصدق من الله حديثاً : « انما يخشى الله من عباده العلماء - ٢٨ فاطر » .

وفيما يلى نذكر فقرتين : احدهما لمثال من الافاق التى اشارت اليها الاية ، وهو القمر ، والثانية للانسان وما يتصل به .

القمر

فى صيف سنة ١٩٦٩ هبط على سطح القمر رائدا الفضاء الامريكان : «ونج» و«اودين» وتعقب ما كتب علماء الطبيعة حول رحلتهم .. واشير هنا الى ما قرأته فى جريدة الاخبار المصرية عدد ٢٠٦-١٩٧٠ ، فقد ترجمت هذه

الجريدة فى العدد المذكور مقالاعن جريدة برافدا السوفيتية لعالمين شيوعيين بارزين فى العلوم الطبيعية ، و هما «م فاسين» و «واشراكوف» السوفيتيان.. لقداطلع هذان العالمان على النتائج التى اعلنها العلماء الامركيون لدراسة تربة القمر و الصورة التى اخذتله عن كسب ، و قالا فيما قالا :

« ان الدراسة العلمية الحديثة ترفض كل النظريات الشائعة عن اصل القمر ، ولاتقبل الانفسيرا واحدا ، وهوان القمر مصنوع صنعا دقيقا ومحكما، وان الذى صنعته قوة مذهلة تملك من الطاقات ما لا يملكه اى كائن من الكائنات .. ان الدراسة العلمية تبدأ بفكرة جديدة ، وتقول هذه الفكرة الجديدة : ان فى القمر ظواهر يستحيل ان توجد بالصدفة .. كلا ، اذها تمت بيد عالمة قادرة قد احكمت صنع القمر احكاما مدهلا .

آمن الشيوعيون وغيرهم من الماديين آمنوا بالمادة ، وقالوا : هى الموجود الوحيد ، ولا اله الا الهى ، وان الحياة والسمع و البصر والعقل و سائر الغرائز الانسانية والحيوانية ، وان نظام الكون ، وما فيه من ابداع واسرار، كل ذلك و ما اليه من الموجودات لا اساس له الا المادة، ولا حول ولا قوة الا لها وحدها ، فهى الظاهر والباطن ، والاول والآخر ، و فلسفوا هذا الالحاد بكل ما يملكون من منطق ، ورفضوا القيم والاديان بشتى انواعها ، وزعموا ان العلم عدو الايمان بالله واليوم الآخر.. ولم اتقدموا بعض الشيء فى العلم الذى جعلوا منه عدو الله ورسله - قادمهم ، اوقاد الكبار من علمائهم فى الطبيعة والمادة قادمهم « هذا العدو » مرغمين الى الايمان ، بمصدر هذا

الكون وخالفه «العالم المريد» الذى يملك من الطاقات ما لا يملكه اى كائن من الكائنات « حتى المادة اله الشيوعيين والماديين ، و فوق ذلك اعلنوا الدليل المادى المحسوس على اثبات الخالق ليكون حجة بالغة قاطعة على جميع الماديين .. هذا، وهم لا يعتبرون ان من عملهم اثبات الخالق الكائن وراء الطبيعة وفوق المادة ، بل العكس هو الصحيح .. فاين هى فلسفة ماركس و لينين ، وانجلز وستالين ؟ اين هى ؟ لقد ذهبت مع الهباء بنظرة صحيحة واحدة من العلم الى الآفاق .

ومهما شككت فاني لاشك ابدافى ان هذين العالمين السوفيتيين : فاسين وباكوف هما من اظهر المصاديق والافراد الذين عناهم الله بقوله . «سنريهم آياتنا فى الآفاق والنخ..لقد فسرت هذه الآية الكريمة فى التفسير الكاشف، واطلت الكلام حولها بعض الشئ، والآن ، وانا رسم هذه الاحرف خطر لى ان اعطف على ما اسلفت هذا المعنى ، وهو ان الله سبحانه قد تحدى بهذه الآية - فىمن تحدى - العلماء الماديين الذين علم الله انهم سيوجدون بعد اكثر من الف سنة ، بل والوف السنين من نزول كتابه الكريم، وبعد ان يزدادوا علما بالكون ، تحداهم بما يريهم من آياته فى الافاق .. وقدارهم .. فما استطاعوا الا الازعان لها والتسليم بها.. ونحن على علم اليقين ان المستقبل لعقيدة التوحيد لان سبيلها سبيل العلم ، والامل به هو الامل بها بالذات . تذكرت - وانا قرأ ماقاله العالمان السوفيتيان - كلمة لابن عربى فى الفتوحات المكية ، وهى : انك لا تقدر أن تنكر ماترى ، كما انك لا تقدر ان تجهل ماتعلم ، وانت ترى الوجود ، وتعلم به علم اليقين ، وهو

حروف وكلمات وسور وآيات تنطق بوجود كاتبها ؛ وهو الله وان لم نره ،
فالوجود قرآن الله الكبير الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .
شئى آخر تجدر الاشارة اليه ، وهو : هل الذى تحدى علماء الطبيعة
و غيرهم منذ نزول القرآن الى آخر يوم ، وقال : سنريهم آياتنا فى الافاق
وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ؟ هل الذى قال هذا بعزم وحزم هو الله خالق
الكون والافاق ، او محمد الذى لا يقرأ ولا يكتب ؟ .

وكيف يجزأ محمد على هذا القول ! ومن اين اخذ علمه بالشمس
والقمر وغيرهما من الكواكب ؟ . هل اخذه من الصحراء ، ام من ابى جهل
وبحيرة الراهب ، ام من التوراة والانجيل ، ام صعد الى القمر والمريخ ؟
ابداً . لا تفسير الا الوحى من القادر العليم ، والا الاعجاز على يد النبى العظيم -

الانسان :

اشرنا فى الفقرة السابقة الى مثال من الافاق ، وهو القمر ، ونشير
فى هذه الفقرة الى الانسان ، قال تعالى : « يخلقكم فى بطون امهاتكم خلقا
من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ع- الزمر » . وقال : « لقد خلقنا الانسان فى
احسن تقويم - ٤ التين » .

وقال : « وفى انفسكم افلا تبصرون - ٢١ الذاريات » . يقول سبحانه فى
هذه الايات وغيرها ، يقول للجاحد : الم تنظر الى نفسك ، وتفكر فى مبدئك
وتقلبك خلقا بعد خلق ، ومن طور الى طور ، وتنظر الى اعضائك وجوارحك
وسمعك وبصرك وعقلك و بيانك و فطنتك وقدرتك .. الى غير ذلك من
صفاتك الروحية والجسدية ، ثم تسأل عقلك وبصيرتك : هل اوجدت انت

ذلك بنفسك، او وجد صدفة ومن غير علة، او ان وراءه خالقاً قديراً وعظيماً ؟
ولولم يكن في الكون الا انت وحدك فقط لا غير لوجدت من نفسك الف
دليل ودليل على من انشأك وابدعك .

ان في الانسان آيات واسراراً لا يبلغها الاحصاء ، و كلما اكتشف
العلم منها سر أخفيت عليه مئات والوف تماما كالكون .. ومن هنا قال له
من قال :

« وفيك انطوى العالم الاكبر » . وكما اكتشف العلم الحديث بعض
اسرار القمر وغيره من الافاق فقد اكتشف ايضا بعض ما في الانسان من سر،
وآخر ما قرأت في هذا الباب مقالا نشرته مجلة روزاليوسف المصرية عدد
٧ - ٤ - ١٩٦٩؛ جاء فيه :

لقد اكتشف العلماء في هذا العصر ان في جسم الانسان بلايين البلايين
من الخلايا .. وتبين لهم ان هذه الخلايا مجتمع من المخلوقات المختلفة،
لا ترى الواحدة منها الشدة صغرها الا بالميكروسكوب ، ويبلغ عدد هذه الخلايا
عشرة اضعاف عدد البشر، وكلها تعيش في دم الانسان مدة اربعة اشهر فقط ، و
يحل غيرهام محلها وبمقدارها بحيث يكون عدد الجيل اللاحق كعدد الجيل
السابق لا يزيد ولا ينقص ، وبعض هذه الخلايا على هيئة ثعلب، وبعضها على
شكل فيل ، وبعضها تماما كالتمساح الخ .. وهنا العجب ، العجب من هذا
التنوع .. ومن كثرة العدد .. والاتفاق فيه دون زيادة او نقصان .. هل كل
ذلك من صنع المادة العمياء ، او من باب الصدفة، او من صنيع القدير العليم؟
فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم .

وصدق الفيلسوف الانكليزى جون لوك حيث يقول : صحيح ان الله لم يخلق الايمان فينا خلقا : ولم يطبع فى عقولنا حروفا نستطيع ان نقرأ وجوده بها ، ولكن لم يجعل وجوده بلا دليل يشهد له ... فلقد اودع فينا ملكات وقوى تدل عليه دلالة كافية وافية ، ونحن لانحتاج الى برهان يدل على وجوده اوضح من ذلك .

ولانستطيع ان نشكو من جهلنا به مادامنا حمل ذواتنا معنا ؛ فانه قد هبنا بذلك كل ما يلزم لمعرفة وزيادة .. وهذا شىء واضح كاليقنى الرياضى .. ولا يحتاج ابدا الى اكثر من التفكير والانتباه الى وجوده اليقين ، فنبرهن به على وجود الله باصدق برهان واوضحه ، تماما كما تنبه ونفكر ونستدل على مسائل نحتاج اليها فى حياتنا اليومية ، لانها قابلة فى ذاتها للبرهنة الواضحة .

الانسان والقرد :

وتسأل : ان دارون واتباعه يقولون : ان الانسان وجد اول ما وجد على غير صورته التى هو عليها الان ، ثم انتقل منها الى نوع آخر حتى انتهى الى القرد ، ومنه الى صورته الحالية ؟ .

الجواب : قد نعرف بالتحليل فى المختبر ما فى الانسان من مواد كيمياوية ، اما كيف وجد ؟ . وعلى اية هيئة كان ؟ فلا تجيب المختبرات عن هذا السؤال ، اما المشاهدة فإى ، خلوق رأى وشاهد بداية خلق ابيه ؟ .. ولا شىء فى الحفريات يدل دلالة واضحة ومقنعة على اصل الانسان ، فلم يبق الانظرية التطور ، وهى من غير شك جديرة بالعناية ، ولكنها لم تفسر نشأة

الحياة تفسير علميا ... على انها لا تصادم مع وجود خالق لهذا الكون .
الى هنا ، وتدع الكلام عن نظرية دارون الى شا - ، له شهرته الادبية
والثقافية ؛ ومؤلفاته الكثيرة منتشرة بين ابناء الجيل ذكورا واناثا هو
الدكتور مصطفى محمود المصرى المحرر بمجلة صباح الخير الان ، وقبلها
بمجلة روز اليوسف ؛ وقدم هذا الشاب بدور الشك والالحاد ؛ والف كتابا
اسماها الله والانسان انكر فيه وجود الخالق ... ونقضته بكتاب «الله والعقل»
ثم آمن مصطفى محمود عن اقتناع ببيانات نشرها ، بل وكرر نشرها فى الصحف
وفى اكثر من كتاب ، من ذلك كتابه «القرآن محاولة لفهم عصرى» . ويتلخص
ماقاله فى هذا الكتاب عن نظرية دارون ، بما يلى :

ان هذه النظرية تركز على امرين : الاول ان الحيوانات انحدرت
بكاملها من اصل واحد .. ثم اختلفت نتيجة لاختلاف الظروف والبيئات ،
فالانسان - مثلا - فى المناطق الباردة مكثنز اللحم بينما هو فى المناطق
الحارة نحيل هزيل ... وكذلك سائر الحيوانات تتكيف بيئتها وظروفها .
الثانى : ان كل حيوان تطور من نوع الى نوع نتيجة لبواعث وعوامل من
داخله ، ومن خارجه .

وقال مصطفى محمود فى الرد على ذلك بان العلماء امضوا بعد دارون
سنين وسنين يمحضون ويعيدون النظر فى قوله ، فكانت نتيجة بحثهم و
تمحيصهم ان التطور فى عالم النبات وعالم الحيوان معلول لعلة خارجة عن
جنس النبات والحيوان ، ومخالفة لما فيهما .. وقد لمسنا آثار هذه العلة
الخارجة فى ورق الشجر ، والوان الزهر ، واجنحة الفراش ، وريش

الطاوس ؛ واعظم من هذا كله ان بعض الاشجار الصحراوية تحمل ثمرات يطير
باجنحته ملحقاً في الهواء .. كل هذا ؛ وغير هذا لا يفسره الا القادر الذي لا
تدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير .

ثم قال مصطفى محمود : ان دارون في نظريته اشبه بقاصر النظر
الذي رأى سيارة تسير دون ان يرى السائق ، فظن انها تنطلق بفعل الآلات
المادية التي في داخلها فقط دون اي اثر للسائق .

وبعد ، فلا ادري : كيف رضى دارون واتباع دارون ان يضعوا الانسان
بين القرود والحيوان ، وهو سيد الخلائق بما يتمتع به من ادراك وملكات ،
وينفرد به من نسق في القيم الخلقية والجمالية ! .. قال الله ، جلّت حكمته :
« ولقد كرمنا بنى آدم - ٧ الاسراء » وقال دارون : كلا ، انهم قردود
ابناء قرد !

على ان دارون كان يؤمن بوجود الله فقد اشتهر عنه انه قال : « يبدولى
استحالة القول بان هذا الكون العجيب العظيم وما انطوى عليه من شعورنا
الواعي - انما كان وليد الصدفة ، ان هذا الكون هو اكبر سند للقول بوجود
الله » . انظر كتاب الانسان في القرآن للعقاد .

والخلاصة ان الايمان بالله ليس ثمرة للوهم والتقليد ، ولا لتفسير
ما تجهل تفسيره من ظواهر الطبيعة ، ولا لنخوف به المردة الطغاة ، ولا
لتخدر به المستضعفين من الشعوب ، ولا فراراً من حيرة العقل ، ولا ارضاء
لحاجة روحية وتعليل لآمنية نفسية ، وانما هو ثمرة حتمية ، لمنطق الحس
والعقل ، وشهادة البصر والبصيرة ، ولا شيء اصدق في الدلالة على هذه

الحقيقة من نهيه تعالى في العديد من آياته عن اتباع الحدس والظن ،وامره
بالاعتماد على البصر والبصيرة كطريق الى معرفته والايمان بعظمته ، كما
اوضحنا ذلك ؛ واثبتناه بالارقام .. ومن جحد وكفر فقد خالف الحق عناداً له ،
اوجها لابه لتقصيره في البحث والنظر ، اولقصوره في العقل والفكر .

صفاته تعالى

التوحيد ان لا تتوهمه

تكلم الفلاسفة وعلماء الكلام عن صفاته تعالى ، و اطالوا ؛ولخصنا اقوالهم في كتاب معالم الفلسفة الاسلامية ، وكتاب فلسفة المبدأ والمعاد ؛و نقتصر هنا على ما جاء في القرآن الكريم ، ومن تتبع آياته يجد الكثير منها يشير الى الادلة على وجود الله سبحانه ، ولا يجد آية واحدة تشير من قريب او بعيد الى تحديد ذاته القدسية وبيان كنهها و حقيقتها ، وقد سأل فرعون عن ذلك ، فاجابه موسى بالانار والافعال ، كما في الاية ٢٣ من الشعراء :
« قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض .

وفي الاية ٤٩ من طه : « قال فمن ربكم يا موسى قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . وهذا امر بديهي وطبيعي ؛ لان العقل الحادث المحدود يستحيل في حقه ان يحيط بالازلي الابدی الذي لا اول لاو له ، ولا آخر لاخره ، و من هنا قال امير المؤمنين (ع) : فكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في ذات الله . وقال : التوحيد ان لا تتوهمه . اي لا تصوره بوهمك لان كل موهوم محدود ، والله لا يحده شيء .

دليل الوصف:

وايضا من تتبع القرآن لا يجد فيه اثار صريحا للاستدلال على ثبوت

صفة من صفاته تعالى غير التوحيد ، ونفى الشريك ، اما سائر الصفات كالعلم والقدرة والحياة ، وكثير غيرها فانه يذكرها ، ويخاطب الناس بها كشيء مسلم به ، ومفروغ منه ، والسرانه بعد ان قام الدليل القطعى على وجود واجب الوجود بالذات ينتج حتمانه جامع لصفات الجلال والكمال ، وانها فى حقيقتها فوق صفات الممكن الحادث بالغاما بلغ من العظمة ، لان صفات كل شيء بحسبه .

وبكلمة ان هذا الكون العجيب بابداءه ونظامه يحمل الدلائل القطعية على قدرة المبدع وعلمه ، وارادته وحكمته ، تماما كما يحمل الدلائل على اصل وجوده ..

و عليه فإى داع لاطالة الكلام عن صفاته تعالى وتقسيمها الى اقسام ، والاستدلال عليها بالقياسات والاستنتاجات ، وما الى ذلك مما هو مودون فى كتب الفلسفة وعلم الكلام .

العلة اكمل من المعلول

وتسأل : ان الفعل يدل على وجود الفاعل ، وايضا يدل على صفاته التى تتجلى فى الفعل ، ويظهر اثرها للعيان ، اما الصفات الاخرى فلا يدل عليها الفعل - مثلا - حسن الخط او جودة البناء يدل على ان الكاتب يتقن فن الكتابة ، ولكنه لا يدل بحال على ان الكاتب او الباني كريم وشجاع ، او جميل وبليغ ، وهذا هو مراد من قال : العلة اكمل من المعلول ، واذن فلا بد ان نلتمس المعرفة بسائر صفاته ، نلتدسها من طريق آخر غير النظر فى الكون وفى انفسنا ، ولا طريق سوى العقل واستنتاجه .

الجواب : اما الصفات التي تضاف الى الذات القدسية ، ولا تستخدمها كخالق والرازق والرحمن والرحيم والمحيى والمميت - فانها تعرف من الفعل . وكذا بعض الصفات الذاتية كالحياة والعلم والقدرة . يظهر اثرها في خلقه تعالى وافعاله ، وما عدا ذلك فان ثبت بيديها العقل ، او بآية منزلة او رواية متواترة آمنابه ايماننا بالله ، والاوجب السكوت عما سكت الله عنه .. اجل : يجب الاعتقاد اجمالاً بان الله متصف بجميع ما يليق بقدسيته وعظمته ، اما التفصيل فنحن غير مسؤولين عنه ، ولا محاسبين عليه .. حتى العلم بالحكمة من وجود العالم ، وخلق الانسان .. بل والعلم بان الانسان مسير ، او مخير .

ابداً .. لا يجب البحث والنظر الامن اجل الايمان بالله ، واليوم الآخر وبالنبي والولاية له ، ولمن له العصمة من اهل بيته ، والا لعلم اجتهاداً ، او تقليداً بما يجب فعله او تركه على اساس الوحي والنص من كتاب الله وسنة نبيه .. وبكلمة واحدة ان الذي تجب معرفته عقلاً هو طريق النجاة من الهلكة فقط لا غير .

نفى الصفات :

لا يختلف اثنان من المسلمين في ان الله سبحانه يوصف بكل ما وصف به نفسه في كتابه العزيز ، وان عظمته في الكمال والجلال كما هي لا يحدها وصف ، ولا يدركها عقل ، وانها ازلية ابدية تماماً كذاته القدسية .. وانما الكلام والخلاف في ان الصفات العليا بأى معنى تنسب اليه تعالى ، وتطلق عليه : هل تنسب اليه ، جلت عظمته على انها شىء غير الذات ،

وزائدة عليها وعلى كنهها تماماً كما هي الحال في وصف الانسان بالعلم ، فان حقيقة الانسان حيوان ناطق ، وحقيقة العلم : الكشف عن الواقع ، فاذا وصفنا الانسان بالعلم فقد وصفناه بما هو زائد وخارج عن ذاته وطبيعته والا كان الانسان بما هو عالم آمن غير كسب واستفادة وبحث ودرس ؛ وهذا خلاف الحس والوجدان هل وصف الله بالعلم وغيره كذلك وعلى هذه الحال ، أو أن الله يوصف بالعلم والقدرة بمقتضى ذاته وحقيقته ، لا بشيء زائد عنها تماماً كوصف الانسان بالانسانية ، والشجر بالشجرية - مثلاً - قال الاشاعرة كل صفاته تعالى غير ذاته وزائدة عليها ؛ ومعنى هذا ان ذاته بما هي لا تقتضى العلم والقدرة ونحوهما من الكمال تماماً كما ان ذات الانسان لا تقتضى العلم . . وقد تخطوا بذلك حدود التوحيد حيث يلزمهم القول بتعدد القديم ، كما تخطوا حدود العدل في قولهم بالجبر .. وما لنا ولهم وندعهم وشأنهم .

وذهب اهل العدل والتوحيد الى انه لاصفات لذات الله تزيد على ذاته ، وان وصفه بالعلم والقدرة كوصف الانسان بالانسانية ، والشجر بالشجرية ، لان ذاته تعالى بما هي وبطبيعتها تقتضى العلم والقدرة ، بل هي عين العلم والقدرة ، كما ان الانسانية عين الانسان ؛ لان كماله تعالى ذاتي لا كسبي ، ومطلق غير مقيد بشيء دون شيء ، وجهة دون جهة ، وانه بموجب هذا الكمال الذاتي المطلق غنى عن كل شيء عيزيد عن ذاته وحقيقته . ولماذا الزيادة وما هو الداعي اليها ما دامت الذات القدسية كاملة بنفسها غنية من كل وجه وهل نحتاج الى الزائد لنكمل به الكامل ونتمم التام ؟

وعلى هذا اذا اطلقت صفات الكمال عليه تعالى كالعالم والقادر فيجب

۲۹

انما هو الله واحد.

الطبيعة واحدة لوجود الترابط والائتلاف بين اجزائها ، والترتيب الدقيق المحكم ؛ قال الملا صدرا في الاسفار : « ان مجموع العالم من حيث هو مجموع شخص واحد ، له وحدة طبيعية ، وليست وحدته كوحدة اشياء متغايرة اتفق ان صار بالاجتماع والانضمام كشيء واحد مثل اجتماع البيت من اللبنة والعسكر من افراد ، وذلك بان اجزاء العالم بينها علاقة ذاتية لانها حاصلة على الترتيب العلى والمعلولى ، ومثاله الارض فان ثبوتها فى مكانها معلول عن ثبوت الشمس فى مقرها ، وثبوت الشمس فى مقرها معلول عن ثبوت غيرهما من الكواكب فى اماكنها ومن اجل هذا كانت القوانين التى تحكم أى جزء من اجزاء الطبيعة هى بذاتها تحكم الاجزاء الاخرى ، وان دل هذا التدبير الواحد على شيء فانما يدل على ان المدبر واحد ، ولو كان اكثر لتعدد التدبير وتباين . .

وهذا هو المراد بقوله تعالى : « وما كان معه من اله اذن لذهب كل اله بما خلق ٩١- المؤمنون ». ومثله او قريب منه قوله تعالى : (« لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا ٢٢- الانبياء » أى لو تعددت الالهة فى الارض والسماء لما انتظم امر من امور الكون ، لانصراف الالهة عن تدبيره الى الصراع على السلطة والحدود .

وبتعبير واضح ، ومنطق اوضح : لو وجد الهان فلا يخلو : اما ان يكون احدهما قادرا على تدبير العالم ، واما ان لا يكون ، فان كان قادراً كان وجود الثانى عبثا ولزوم ما لا يلزم ، وان لم يكن قادراً فلا يصلح للالوهية لعجزه من

جهة، وعبث وجوده من جهة ثانية.. و من هنا عندما سئل الامام الصادق عن الدليل على ان الله واحد قال: ما بالخلق من حاجة الى اكثر . وقال الفيلسوف الالمانى «كنت» : ان الطبيعة واحدة ، واجزاؤها مترابطة ، واذ كان لكل كوكب وجرم قانون خاص فان هناك قانوناً يشمل الجميع ، وهذه الوحدة فى القانون والترابط تدل على تنظيم واحد ، ومنظم واحد .

حسبى الله:

وهذا الذى اقتصرنا عليه فى الدلالة على التوحيد وغيره من صفات الجلال كاف للعلم بها، ومؤد للغرض المطلوب شرعا وعقلا ، وما زاد فتكثير الفاظ ومضيعة للوقت.. وهناك امر هام وعظيم جدا يتصل مباشرة بكلمة التوحيد وعقيدته، ولا ينبغي اهماله بحال . . ولكن ، وللأسف، اهمله علماء الكلام والفلاسفة الموحدون فيما اطلعت عليه من كلامهم مع انهم سودوا الصفحات الطوال فى «ان قلت قلت» وما شبهه !. . وباليتمهم اقتصروا فى اثبات التوحيد على الدليل الذى استدل به سبحانه على نفى الشريك له، وفى غير هذه الصفات على ما ثبت ببيدية العقل وتواتر به النقل.. ولكن ارادوا ان يفلسفوا العقيدة على اساس التصورات والتخيلات .

ومهما يكن، فان الامر الهام الذى اشرنا اليه هو المعانى الجليلة السامية التى تنطوى عليها، وتوحى بها كلمة التوحيد ، واليك بعضها :

لقد اخص الاسلام عن سائر الاديان باسم دين التوحيد : وافترق عنها بالتشدد فى انكار الشرك ، والتنزيه عن كل شائبة من شوائبه . . وتميز المسلم عن غيره بكلمة «لا اله الا الله» كما تميز النصرانى بحمل الصليب او عمل

اشارته بيده على صدره مع الفارق العظيم فى ان الصليب والتصلب فى النصرانية شعار وكفى ، اما كلمة التوحيد فى الاسلام فهى منهج عملى ، وشريعة للحياة ، كما هى عقيدة بأدق ما فيها من معنى .

ان كلمة لا اله الا الله مبدأ الهى انسانى يهدف الى نجاة الانسان فى حياته الفانية والباقية ، ويحفظ له كرامته واستقلاله فى شخصيته ، ولا يجعل لاحد عليه سلطانا الا للحق وحده الذى يتساوى فيه الجميع ، فالجاء والمال واشياء الدنيا كلها ليست بالهة تعبد ، ولا بشيء يذكر الا اذا كانت خالصة لوجه الله ، وكل من ترجوه وماتر جوه ، وتوكل عليه فهو هباء الا الله فهو كافيك ومغنيك : « رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذنه وكيلا - ٩ المزمّل » . أى توكل على الله وحده لانه لامعين سواء .. وخير ما قرأت فى تحديد المتوكل انه الذى لا يعتمد بنفسه اطلاقا ، بل يعمل بنشاط ، فاذا نجح ارجع نجاحه الى الله ، لا الى ثمره يده ، وسمى نجاحه توفيقا من الله وبحوله وقوته ، لا بذكائه هو وقدرته .

ويستحيل عقلا وواقعا ان يخلص الدين او الضمير ، ويصفو من الاكدار والافذار الامع عقيدة التوحيد ؛ والايمان بانه لا احد يملك مع الله شيئا الا ما ملكه ، ومتى صدق هذا الايمان ، واستقام فى قلب أى انسان احب وتسامح ، واخلص وتواضع ، وضحي وتعاون ، وتنزه عن رذيلة الحقد والحسد والخيانة ، والكبرياء والغرور ، وبذل قصارى الجهد لمرضاة الله والحق ، ومن اجل هذا سميت كلمة لا اله الا الله كلمة التوحيد ، وكلمة الاخلاص ، وكلمة التقوى ، ولنا ان نسميها ايضا كلمة التحرير وفى الحديث الشريف : « خير ما جئت

بهانا والنبيون من قبلى هي كلمة «لا اله الا الله».

وفى عقيدتى وعقيدة كل واع ان الناس لو آمنوا بكلمة التوحيد ،
واتخذوها منهمجا فى سلوكهم لماعرفوا الازمات والمشكلات الخاصة والعامة
والاحرب الباردة والساخنة والانصرفت العقول والاموال والاعمال الى الخراب
والدمار والضياع ، بل تعاون كل انسان مع اخيه الانسان ليعيشوا جميعا فى
هناء وامان .

قال عبدالرحمن عزام فى الرسالة الخالدة : «المؤمن الموحد يجد
حسابه مع الله مباشرة» ، فيرفعه اليه وحده ، فهو لا يكون ظالما ، لانه يعارض
بالظلم صفة من صفات الله ، وهى العدل ، وهو لا يكون غليظا قاسيا لانه يعلم
ان سيده رحمن رحيم ، ولا يكون كاذبا ولا منافقا ولا مخادعا لان حسابه مع الله
الخبير العليم ، ولا يكون ذليلا او جبانا ، لانه يعلم ان الامر بيد الله وحده ،
وهكذا اذا استرسلنا فى تعداد النقائص نجد انه قد حيل بينها وبين المؤمن
الموحد بحجاب من التوحيد».

الخير والشر

هذه المسألة:

مسألة الخير والشر التي نتكلم عنها هنا هي غير مسألة : هل الانسان مسير او مخير ، ويأتى الكلام عنها . . لان موضوع الاولى يتناول الظواهر الطبيعية، وغيرها مما لا يتصل بارادة الانسان واختياره من قريب او بعيد ، اما موضوع المسألة الثانية فهو خاص بافعال الانسان الاختيارية .

ما قيل حول الخير والشر:

للفلاسفة وغيرهم اقوال متضاربة حول الخير والشر، فمنهم من قال : لا وجود لهما بالذات . بل هما من الامور النسبية ، فرب شئىء يكون خيرا عند انسان وشرّا عند آخر . . كل بحسب شعوره وظروفه وتقديره ، وعلى ذلك الكثير من اهل هذا العصر .

ويلاحظ بان هذا القول ان صدق فى شئىء فانه لا يصدق فى كل شئىء . . فالصحة - مثلا - خير عند جميع الناس بل يطلقون عليها بالخصوص كلمة خير بلا قرينة معينة، وذلك حين يقول احدهم للآخر : كيف انت ؟ ويجب المخاطب: بخير . فيفهم السامع اول ما يفهم الصحة والسلامة من كلمة خير

ولو كانت الصحة خيراً عند انسان دون آخر لمافهم السامع هذا المعنى من كلمة خير الامع القرينة .

وقال ثابن: الخير بذاته موجود، وهو كل ما فيه نفع وصلاح ، والشر بذاته موجود ايضا ، وهو كل ما فيه ضرر وفساد .

ويلاحظ بان هذا اشبه بتفسير الماء بالماء لان النفع والصلاح يحتاج الى تفسير وتحديد، وكذلك الضر والنفع .. اذ رب صلاح عندك هو فساد عند غيرك .

ثم جاء من يقول: علينا ان نتخلص من جميع الاقوال والاراء في الخير والشر، وغيرهما من القيم، وان نعالج كل شيء ، وبالخصوص العلوم الانسانية معالجة صحيحة ، وندرسه دراسة موضوعية علمية، ثم نسجل خصائصه وصفاته بصدق وامانة دون ان ننقده ونبدى رأينا فيه ، ونحكم عليه بخير او شر ، وحسن او قبح ، لان الاحكام - في الغالب - تكون مغرضة وموجهة بدوافع شخصية .

ويلاحظ بان هذه السلبية وهذا التهرب من مواجهة الحقيقة و السواق يتنافى مع الدراسة الموضوعية العلمية ، لان الغرض من هذه الدراسة هو ان نقطف ثمرها ونعلن للناس قيمة الشيء الذى در سناه دراسة علمية ، وهل هي خير ام شر، وحقا باطل ؟ . والا كانت الدراسة عقيمة وبلا جدوى ... و هل يكفى ان نعلم وتكلم بان القنبلة الذرية او الهيدروجينية اذا القيت على مدينة فيها الملايين من الرجال والنساء و الاطفال افنتهم عن اخرهم ، ثم نحتاط ونتورع عن الحكم بان هذا العمل

شروط قبيح واثم وجريمة ؟ .

معياد الخير والشر

ليس من شك ان الشيء الذى يكون خيرا عند شخص دون آخر ، ويشبع رغباته دون سواء - لاضابط له ولا مقياس ... ومن يقدر ان يضبط و يحدد الميول الشخصية ؟ . وبالخصوص الطائشة والجائرة ... ومثل ذلك فى امتناع الضبط والتحديد ، الشيء الذى يرضى فئة دون فئة لوحدة فى المشاعر ، ولكن هذا افضل من النوع الاول الذى يرضى الفرد فقط ، و كلما ازداد عدد الفئة والجماعة كان الخير النسبى افضل ، وكذلك الشر .. وعلى أية حال فان الخير والشر النسبى خارج عن محل الكلام و موضوع البحث .

ان موضوع البحث هنا هو الخير والشر بذاته ، ولا شك فى وجوده ، والدليل عليه بديهية العقل ، فلقد اتفق الناس جميعا على ان الصحة خير ، والمرض شر ، والشجاعة فضيلة ، والجبن رذيلة ، والذكاء والفصاحة من المحسنات ، والبلادة والفهاة على العكس ، وان الارض الطيبة اغلى و ائمن من الارض الخبيثة ، الى غير ذلك مما لا يختلف فيه اثنان مهما تغيرت الظروف والاحوال ... ولولم يكن للخير والشر وجود فى ذاته لما وجدت الشرائع والقوانين ، ولا امكن التحاكم الى شىء ... هذا ، الى ان اهل الجاهلية حتى الهمج الرعاع يجرمون بفطرتهم نكاح الامهات والبنات ، والامم المتحضرة الملحدة منها وغير الملحدة تحرم السرقة والقتل ، و توجب رد الامانة ، ووفاء الدين ؛ و اى شىء ادل من هذا على وجود الخير و

اما معيار الخير والشر، وتحديدده، تحديد اجامعا مانعا يرضى جميع الناس على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ، ويرفع مايينهم من خلاف، اما هذا التحديد فصعب وعسير، لان الخير والشر على انواع ، منه طبيعي كالخصب والجذب ، ومنه عاطفي كالحقد واللؤم، والحب والاخلاص ، ومنه اجتماعي كال تعاون اوالتناحر ، ومنه نظري فكري كالقوانين الانسانية التي تلائم الانسان من حيث هو انسان، مثل كل انسان برىء حتى تثبت ادانته، وكل مجرم يؤخذ بجرمه وجريته .

ومن اجل هذا لا ينحصر طريق المعرفة بالخير والشر ، لا ينحصر هذا الطريق بالبدية كالامثلة المتقدمة ، بل هناك طرق اخرى ،منها ما اشار اليه الفيلسوف الالماني «كانت» بقوله : «اذا اردت ان تعرف حسن الصفة من قبها فانظر بعقلك ما ينجم عنها اذا هي عمت وانتشرت ؟ . فاذا تمحضت عن خلل في الوجود والعلاقات الانسانية كالسرقة والقتل - مثلا فاعلم ان القبيح شيمتها» .

ومن هذه الطرق القلب السليم ..، ولكن تحديد هذا القلب بدقة و صيغة واضحة تزيح عنه اللبس والغموض - صعب جدا ؛ وعليه فانا نشير الى هذا القلب ، وندل عليه بضرب بعض الامثال من افراذه كقلب غاندى الذى تمر د على عادات قومه ويسته في عبادة البقرة ونجاسة المنبوذين، وقلب الحنفاء الذين آمنوا بالله واليوم الآخر بفطرتهم الصافية فى عصر الجاهلية الجاهلاء ، ومنهم ورقة بن نوفل ، وعبدالله بن جحش ، وعثمان

بن الحويرث ، وزيد بن عمرو ، وقس بن ساعدة اليايادى ، وذكر اهل التاريخ ان صفوان بن امية ومقيس السهمى حرما الخمر على نفسيهما بدافع الفطرة والغريزة .

ومن هولاء ونظائرهم يمكن ان نستخلص تحديداً لصاحب القلب السليم بانه الذى يملك شخصية قوية مستقلة لا يوتر فيه أى شىء الا ما اثبتق من اعماقه ، واستوحاه من قلبه الصافى كما اودعه الله دون ان تلوثه التربية والتقاليد ، ومن خلال هذا القلب وحده ينظر الى الاشياء ويقارن بينها ، وعلى اساسه يرفض ما يرفض ، ويقبل ما يقبل ، واصحاب هذا القلب موجودون وان كانوا اقل من القليل ، وهم الذين عناهم الله بقوله : «الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه» ١٨ الزمر .

والخلاصة ان الخير والشر موجودان ، وهما يوجهان الانسان فى سلوكه حسبما يعتقد به بمفهوم الخير والشر ، وهو مصيب فى معتقده ان اتفق معه جميع الناس ، او استوحاه من قلبه ان كان له قلب سليم ، والافهو مخطىء ان تمخض عن خلل فى الوجود والعلائق الانسانية على حد تعبير «كانت» .

الاسلام وتحديد الخير والشر

وتسأل: لماذا لانجد فى كتاب الله وسنة نبيه تحديداً واضحاً عن الحق والخير ، وعن الباطل والشر ، والذى نجده هو الامر والترغيب بذاك ، والنهى والبعد عن هذا كقوله تعالى: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» ؟

واجاب الاستاذ عبد الكريم الخطيب عن هذا السؤال فى كتاب القضاء

والقدر - بما يتلخص ان الاسلام لا يحفل بالنظر الفلسفى والجدل اللفظى حول حقائق الاشياء وماهيتها، وغايته اولا وآخر اهى تقويم الاخلاق و تربيتها، واثارة مشاعر السمو النفسى فى الانسان ، و ربطه بالمجتمع برابط الحب والتعاون... ومن اجل هذا كان حديث الاسلام عن الاخلاق عاما و مجملا لا يلتفت فيه الى ذاتيات الاخلاق، بل الى آثارها فى الحياة ومن هذا الباب «يسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي» - ٨٤ الاسراء» وقوله: «يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج» - ١٨٨ البقرة» حيث صرف سبحانه السائلين الى ماهو اوفق وانفع ولقتهم لفتة زاجرة الى الانار والمنافع .

ثم قال: هناك امور واضحة و صريحة فى باب الخير والشر ، فالسارق يدرك ان عمله شر، والكذاب يعرف انه منحرف عن الحق ومع هذه الصراحة والوضوح فانه لا يستطيع ان يضع معادلة جبرية للخير والشر، ويحللها تحليل الكيماويا كما يريد الفلاسفة والحكماء .

شبهة الشر :

تبين مما تقدم ان الشر موجود، وعلميه يتجه هذا السؤال: كيف يمكن الجمع والتوفيق بين الايمان بوجود الشر . والايمان برحمة الله وقدرته على كل شىء؟ ولماذا لم يخلق الله عالما لا شر فيه ؟ .

ولقد طرح هذا السؤال منذ آلاف السنين، واجاب عنه «زرادشت» بوجود الهين : اله الخير ، وهو «موزد» او «يزدان» واله للشر ، و هو «اهريمان» او «اهرمن» .

وقال آخر : ان الله خلق الكون ، ثم اعتزل ، لا يعنيه من امر الخلق

قسوة ولا رحمة ، وكل ما فى الكون من مظاهر هو من عمل الكون بما فيه من قوى وحركة .

وقال عابد زاهد : ان الشرفى الدنيا لعقوبة العصاة والمذنبين ... الى غير ذلك من الاقوال التى لاتستند الى دليل .

وارجح ما قرأت فى الجواب عن السؤال المتقدم - يتلخص بان العالم المادى من حيث هو وبموجب طبعه وذاته ، له آفات وسيئات كالاغراق والاحراق ، والوباء والادواء و الزوابع و العواصف ، و ما الى ذلك من اسباب النقص والشقاء ، وله ايضا حسنات وخيرات ، كالغذاء والجمال و الرفاهية ، ونحو ذلك من النعم و اسباب الحياة ، ويستحيل ان توجد الطبيعة لمجرد المنافع واشباع الرغبات من دون الزوابع و العواصف و غيرها من الالام ، كان يوجد البحر - مثلاً - للصيد والنزهة والسفر فقط دون ان يغرق فيه احد مهما كانت الاسباب ، وان تنظر العين الجمال دون القبح ، وتسمع الاذن ما تشتهى دون ما تكره ، وان يذوق الفم الحلو دون المر ، ويكتب القلم كلمة الحق دون الباطل ، وان يقبل الجسم الحساس الصحة دون السقم ، والراحة دون التعب ، والمعدة الشبع دون الجوع ، وان ينطق اللسان صدقا وصوابا دون الكذب والخطأ ... الى ما لانهاية من الامثلة :

وعلى هذا يكون الشر من فعل الطبيعة المخلوقة مباشرة لا من فعل الله الخالق .

قال صاحب الاسفار : « فاذا قلت : لماذا لم يخلق الله طبيعة بلا شر

فكانك قلت : لماذا لم يجعل الله النار غير النار .. وبهذا تعلم فساد من ظن من
من العوام واهل الكلام الذين لا يعرفون كيفية العجز في المادة ، فيقولون :
ان الله عجز عن كثير من الاشياء ، منها ان يخرج ابليس من ملكه ، وجعلوا
ان العجز في عدم وجود الملك لغير الله ، لافي الله ، و منها ان يدخل
السموات في خرم الابرة ، وذهلوا ان العجز في الابرة وخرمها ، ومنها ان
يجمع بين النقيضين : والعجز فيهما لافيه .

وتسأل : ما هو وجه الجمع والتوفيق بين القول : ان الشر من لوازم
الطبيعة الضرورية وبين ما جاء في بعض الروايات من ان الخير والشر من الله ،
جلت عظمتة ؟ .

الجواب اولا : جاء في اصول الكافي عن الامام الصادق (ع) : ان الله
سبحانه قال : يا ابن آدم انا اولي بحسناتك منك ، وانت اولي بسيئاتك مني
ثانيا : ان الامر في ذلك سهل جدا ، فلقد جاء في العديد من الايات ان ظواهر
الطبيعة كلها من الله كالرياح و الامطار ، و انبت النبات .. حتى الظل
نسبه سبحانه الى نفسه : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل و لو شاء
لجعلها ساكنا - ٤٥ - الفرقان » : بل في بعض الايات ان الله خلق آدم والانعام
بيده : « ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي - ٧٥ ص » : « اولم يروا انا
خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما - ٧١ - يس » مع ان هذا وما اليه يستند
مباشرة الى الطبيعة .. ولكن بما ان الله هو الذي اوجد الطبيعة بكل ما فيها
من قوى وعناصر ، وان هذه العناصر تتفاعل وتأخذ مجراها الطبيعي -
صح نسبتها اليه تعالى تبعوا بالواسطة .

اجل ، الخير من ظواهر الطبيعة ولكن تصح نسبته مباشرة الى الله؛
وان كان السبب القريب هو الطبيعة ، لان الغرض من وجود الطبيعة هو
الخير ، والخير محبوب ومراد لله سبحانه ؛ اما الشر فليس بمحبوب ، ولا
هو مراد بالاصل بل تبعاً ... وبتعبير ابن سينا « الخير مقتضى بالذات ، والشر
مقتضى بالعرض » . وقال الامام الصادق (ع) : ان ترك الخير الكثير لشر قليل
فيه شر كثير .

وقال الملا صدرا : الشر موجود في الطبيعة وكثير، ولكن خير
الطبيعة اكثر من شرها ، ونفعها اكثر من ضررها.. ان الذي احترق ثوبه
بالنار قد تضرر بسببها ، ولكن اذا قسنا هذا الضرر البسيط الى منافعه بالنار
طوال حياته - لم نجده شيئاً مذكوراً .. هذا في الشخص الواحد ، فكيف
النوع ؟ . ان الاشخاص الاصحاء من افراد الانسان والحيوان اكثر بكثير
من ذوى الافات والعاهات .

الخلاصة

والخلاصة ان الله قادر على كل شيء وعالم بكل شيء ، ويستحيل في
حقه ان يوجد شيئاً الاعلى اكمل ما يمكن ان يوجد عليه ذلك الشيء ، بل
يستحيل ان يوجد ما هو احسن منه ، وقد استنتج الفلاسفة من هذه الحقيقة
قاعدة ، سموها قاعدة الاشرف ، و يريدون بها ان الله لا يوجد الادنى مع
امكان وجود الاعلى ... وايضا يستحيل ان يوجد الشيء الا من اجل الخير
فقط ... حتى جهنم و عذابها خير بالنسبة الى تحقق الغرض المقصود
منها .

وقد يستتبع الخير المراد لله قليلا من الشر ، فيغتفر في جانب الخير الكثير ، ولذا يضحى التاجر والزارع والصانع ، بل وطالب العلم بالكثير رغبة فيما هو أكثر ربحا ، واعدود نفعا .. وختاماهل من الخير ان يحبس الله عن عباده المطر لانه يبلل ثوب زيدا وعمره ، ويحرمهم من الشمس ومنافعها لانها تضرب طفلا بحرارتها؟ . وهل علينا ان نحجم عن استعمال الكهر باءلان البعض قد يتضرر من وجودها ؛ ولانركب السيارة والطائرة ، لانه بالامس سقطت طائرة ، واليوم اصطدمت سيارة .

فلسفة الاختيار

مواضيع ثلاثة

نتحدث في هذا الفصل عن مواضيع ثلاثة، لانها متشابكة متشابهة ..
الموضع الاول : القضاء والقدر. الثاني: هل الانسان مسير او مخير. الثالث:
ما هو المراد بنسبة الهدى والضلال الى الله تعالى ؛ مثل قوله تعالى : «فان الله
يضل من يشاء ويهدي من يشاء - ٨ فاطر» ؛

معنى القضاء والقدر

ما هو معنى القضاء والقدر ؟ . وهل يجب الرضا والايمان به ؟ وبالتالي
هل هذا الايمان يبعث على الكسل والتواكل كما يقول اعداء الله والاسلام ؟ .
اما القضاء فله معان : منها الامر ؛ كقوله تعالى : «و قضي ربك ان لا
تعبد و الا الاياه و بالوالدين احسانا - ٢٣ الاسراء» ومنها الحكم والفصل
كقوله سبحانه : «فاقض ما انت قاض - ٧٢ طه» . ومنها الفراغ والتمام :
« قضي الامر الذي فيه تستفتيان - ٤١ يوسف » . ومنها الارادة التكوينية :
« و اذا قضى امر فانما يقول له كن فيكون - ٤٧ آل عمران » .

ومنها العهد : «وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر - ٤٤
القصص» . ومنها الموت والقتل : «فوكزه موسى فقضى عليه - ١٥ القصص» .

ومنها الخلق : «فقضاءهن سبع سموات - ١٢ فصلت» . السى غير ذلك من المعانى التى انهاها بعضهم الى احد عشر معنى .

ويستعمل القدر فى التضييق ، ومنه قوله تعالى : «واما انا . ابتلناه فقدر عليه رزقه فيقول ربى اهاننى - ١٦ الفجر» . ويستعمل فى التعظيم : «وما قدر والله حق قدره - ١٩ الانعام» . وفى مبلغ الشىء و مقداره : «قد جعل الله لكل شىء قدرا - ٣ الطلاق» .. «انا كل شىء خلقناه بقدر - ٣٩ القمر» . وقيل : المراد هنا ان كل شىء ثابت فى علم الله كما هو فى طبيعته و خصائصه ، ويستعمل القدر ايضا فى القضاء الحتم : و كان امر الله قدرا مقدورا - ٣٨ الاحزاب » .

واوضح معانى القضاء البت والامضاء الذى لامعقب و لامر دلـه ؛ و اوضح معانى القدر التقدير ، قال الامام الكاظم نجل الامام الصادق (ع) : القدر هو تقدير الشىء من طوله وعرضه ، والقضاء هو الامضاء الذى لامرد له ، وقال الرضا حفيد الامام الصادق (ع) : القدر هندسة ، والقضاء ابرام . ويمكن ان يكون من هذا الباب ما روى ان عليا امير المؤمنين (ع) عدل من حائط مائل الى آخر مستقيم ، ف قيل له : انقربا امير المؤمنين من قضاء الله ؟ قال : افر من قضاء الله الى قدر الله عز وجل . اى من قضاء الله بسقوط الحائط الى ما بقى من عمرى الذى قدره الله ، وكتبه لى .

وكثير اما يستعمل القضاء والقدر فى معنى واحد ؛ وهو الحتم الذى لامعقب له و لامرد .

موضوع القضاء والقدر

وموضوع القضاء والقدر هو ما يحدث فى الطبيعة من ظواهر ، ويصدر

عن الانسان من اعمال ، وليس من شك ان لهذه الحوادث والاعمال موجبات واسبابا .. فما هي هذه الموجبات والاسباب ؟ . هل هي الطبيعة وسننها فقط لا غير ، كما يزعم الماديون ، او هي قوة القاهرة تكمن وراء الطبيعة ، وتتصرف كما تشاء مباشرة وبلا توسط علة ونظام كما يظن المؤمن الغبي ، او هي تلك القوة القاهرة العالمة ، ولكن بتوسط ربط المسببات باسبابها ، والنتائج بمقدماتها ، كما يقول اهل الدين والعلم .

قال الامام جعفر الصادق (ع) : « ابي الله ان يجرى الاشياء الاسباب ، فجعل لكل شيء سببا ، وجعل لكل سبب شرحا - اى علامة تدل عليه و تميزه عن غيره - وجعل لكل شرح علما - اى ان تلك العلامة تفيد القطع واليقين - وجعل لكل علم بابا ناطقا عرفه من عرفه ، وجهله من جهله . اى ان باب العلم لا يخفى على اهله ، وهو العقل والوجدان ، والنبي و القرآن .

وقال الفارابي : ان الله هو علة وجود الاشياء - يريد الاسباب - اما الاشياء ذاتها فانما يؤثر بعضها ببعض وفقا لقوانين نعرفها بالتجربة . وقال الملا صدرا فى شرحه لاصول الكافي : القضاء والقدر انما يوجبان ما يوجبان بتوسط اسباب وعلل مترتبة منتظمة ، بعضها مؤثرات ، واخرى متأثرات ، ومتى اجتمعت الاسباب وارتفعت الموانع وجد الشيء المقضى المقدر .

وفى قول الله سبحانه غنى عن كل قول ؛ وهو واضح وصريح فى انه جلت حكمته ؛ يجرى الامور وفقا لقوانين ثابتة تضبط سير الحوادث و

الاعمال ، وتطرده على نسق واحد عبر القرون والاجيال ، وقد عبر سبحانه عن هذه القوانين بسنة الله التي لا تقبل التبديل والتحويل لانه هو خالقها والمسيطر عليها ، قال عز من قائل : سنة من قدارسلنا قبلك ولن تجد لسنة الله تحويلا ٧٧ الاسراء . وقال : « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا - ٦٢ الاحزاب » . و قال : ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيرهم واما بانفسهم - ١١ الرعد » . الى آخر الايات التي دلت بصراحة و وضوح على ان قانون الاسباب والمسببات ؛ وربط النتائج بالمقدمات هو قانون كوني الهى يطرده في كل شىء ولا يخرج عنه شىء الا اذا خرج عن صنع الله .. ان وجد شىء ليس لله فيه صنع .

الايان بالقدر ايمان بالعلم والعمل

وعلى هذا يكون الايمان بالقضاء والقدر هو عين الايمان بالعلم والعمل ، والجد والاجتهاد من اجل الحياة ، بل هو عين الايمان بان الله مع العاملين والمجاهدين ، وانه سبحانه ضد الكسالى والمخمشين : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون - ١٠٥ التوبة .. وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون - ١١١ النحل . ان الله سبحانه لا يفعل جزافا ، ولا يترك اعتبارا ، بل يعطى ويمنع حيث يوجد سبب العطاء او المنع : «ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه - ١٩١ آل عمران » .

اما الرضا بالقضاء والقدر (١) فهو الرضا بكدا اليمين وعرق الجبين ،

١ - الرضا بالقضاء والقدر عند حلول المصيبة لا يجب لذاته و بما هو ، واما الواجب لا يتفوه الانسان بمحرم ، اما الايمان بالقضاء والقدر بالمعنى الذى ذكرناه فهو من لوازم العلم بالله وصفاته .

والثقة بالله وبالنفس، هو النهوض بالعبء عن طيب خاطر، وتحمل المسؤولية من غير تافف وتبرم . ونفض اليدين من الغرور مع النجاح ، على حد تعبير بعض الأدباء وترك الآهات والحسرات مع الفشل ، وبكلمة هو ان يكون الانسان عاقلاً متمزناً في جميع حالاته ، لا تبطره نعمة ، و لا تذله مصيبة : لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - ٢٣ الحديد » .

ابعد هذا يقال بان الايمان بالقضاء والقدر يجعل المسلم كسولاً متواكلاً يدع اموره الى خالقه يعملها عنه و ينجزها له .. اذن لماذا الحث على الجهاد وآياته، وعلى الصبر والتضحية من اجل العمل المثمر ؟ . و اذا كان الايمان وحده كافياً وافياً فلماذا قرنه الله بالعمل في العديد من الايات، ثم اجملها بقوله . « وان ليس للانسان الا ما سعى - ٣٩ النجم » ؟ .

ان السبب الاول والاخير الذي اوجب الايمان بالقضاء والقدر هو بديهية العقل التي ادركت بمعونة الحس و العيان - كما قد منا في فصل اثبات الخالق - انه لا وجود لشيء على الاطلاق الا لله فيه تأثير و تقدير بنحو او باخر . حتى نظرات العين ، ونبضات العرق ، وخطرات القلب : « ولقد خلقنا الانسان و نعلم ما توسوس به نفسه - ١٦ ق » . لقد خلق سبحانه الاسباب وسلطها على المسببات ، وهو عالم بالاثنين معا ، و علمه تماماً كرادته لا يتخلف عن المعلوم، ولو شاء لذهب بكل من السبب والمسبب والفاعل وفعله .. ما شاء الله كان ، وان لم يشأ لم يكن .

و اذا كان الايمان بقضاء الله وقدره هو عين الايمان بالله و نظامه ، وقدرته وسننه التي هي سنن الطبيعة بالذات - اذن اين مكان الصراع و

العناديين الايمان بالقضاء والقدر؛ وبين الايمان بالعلم والعمل ؟ . وابن
مكان التواكل والكسل بل ماهو الفارق ووجه الخلاف بين المؤمنين
والماديين من حيث العلم والايمان بان الاشياء تجري على اسبابها ؟ .. ابدا
لاخلاف بين من آمن ومن جحد من هذه الحثية والجهة ، والفرق انما
هو من جهة ثائية .. ذلك بان الماديين قالوا : لاشيء وراء الاسباب الكونية
يدبرها ويقوم عليها : بل هي عنصر مستقل برأسه يفعل ما يشاء ، و يحكم
ما يريد ... وقال المؤمنون العارفون : ان الاسباب والعلل بشتى انواعها
تنتهى بكاملها الى المبدأ الاول وسبب الاسباب ، ويفتقر اليه فى اصل وجودها
واستمرارها وانه تعالى شأنه لو تخلق عنها طرفة عين فمادونها لم تكن
شيئا مذكورا .

وقد اثبتت التجارب العلمية ان بعض الانوار المترتبة بظواهرها على
المادة يستحيل ان تأتى من ذات المادة وخصائصها ، وانما هي بتوسط قوة
خارجة عن المادة - كما نقل عن علماء الطبيعة - . ومما قرأته فى هذا الباب
ما نقله العقاد عن اهل الاختصاص فى كتاب الفلسفة القرآنية ص ١٤٦
طبعة ١٩٦٩ ، وهو « ان الكشوف تعاقبت فى ميادين العلوم الطبيعية ، وكل
منها يرجع الى قانون يزعم اصحابه انه صالح لتفسير كل ظاهرة من الظواهر
الطبيعية بغير حاجة الى مدبر من وراء الطبيعة .. ثم تقدمت الكشوف
الذرية ، وابطلت هذه النظرية » ثم ذكر العقاد الكاتب الاسلامى الشهير
اسماء علماء الطبيعة الذين آمنوا بهذه الحقيقة واعلنوها على الملأ .
والخلاصة ان الايمان بالله يلزم الايمان بالقضاء والقدر بالمعنى

الذى ذكرناه ، وهو ان الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل شىء سبباً ، وان سلطانه فوق سلطان الاسباب وغيرها .

هل الانسان مسير او مخير ؟

ان افعال الانسان كغيرها من الحوادث لا بد لها من سبب موجب ، و الامتنع وجود شىء منها على الاطلاق ، لان الحكمة الالهية قضت ان يجرى كل شىء بسبب ونظام ، وهذا السبب الموجب عبارة عن خط طويل يتألف من حلقات هي علل متتابعة يتولد بعضها من بعض تبتدى من واجب الوجود العلة الاولى ، وتنتهى بالعلة المباشرة لوجود الفعل بلا واسطة ، و ليست هذه العلل بكاملها فى تصرف الانسان ، وتحت قدرته ، يقبل منها ما يشاء و يرفض ما يريد .. هذا مستحيل ، والا كان الانسان مخيراً ، فى كل شىء حتى فى خلقه واصل وجوده ، و اى كائن طبيعى لا يخضع لقوانين الطبيعة ؟ .
اللهم الا اذا امكن ان ينفصل الشىء عن نفسه .

ولكن ليس من الضرورى ان تكون العلل فى الخط السببى كلها حتمية ابداء دائماً وفى كل الاحوال ، بحيث لا يستطيع الانسان ان يختار اى شىء من الاشياء ، او يحدد لنفسه مسلكاً من المسالك .. ولوصح هذا لم يكن للانسانية عين ولا اثر ، اذ لانسانية بالحرية ، وما فضل الله الانسان على كثير من خلقه الا بعد ان منحه القدرة التى بها يفعل والعقل الذى به يميز و - الارادة التى بها يختار .

واذن ، فالخط السببى قد يكون حتمياً بجميع اجزائه وعلله الاولى والثانوية ، وعندئذ يكون الانسان مسيراً ، لا مخيراً بالاتفاق .. و يستحيل ان يكون الخط السببى بكامله اختيارياً .. ايضا بالاتفاق .. وقد

تكون بعض علل الفعل وموجباته حتمية لاصلة لها بقدرة الانسان و ارادته،
والبعض الاخر عين قدرته و ارادته ، وهنا محل البحث والكلام في ان الانسان
هل هو مخير او مسير في هذه الحال ؟.

ولاشك في اني مخير في كثير من الافعال ، فها انا الان ادخن واكتب
بملىء ارادتي واختياري ، وبالايس عرض على بائع البطيخ ان اشترى منه
فاشتريت ، ودفعت الثمن عن طيب نفس ، وساتفدى بعد ثوان من اللحم
المشوى مع «الزلاطة» . وصممت ان اصطاف بلبنان في العام المقبل ،
ان كنت مع الاحياء كل ذلك كان مني لامن سواي ، وانا بالذات اخترته
لنفسي ، وهكذا غيري .

هذا ما احسه من اعماقي ، ولاستطيع ان انكر احساسى ، ومامن
احد يستطيع اقناعى بانى في ذلك مسير لا مخير الا بدليل اقوى من الحسن
والوجدان .. فاين هو ؟ . وهل بعد الحسن من دليل ؟ . وكلماتنا في خلاف
في حرية الانسان ازددت ايمانا و يقينا بحريته .. ذلك بان الخلاف في حرية
الانسان هو في ذاته اجماع على وجودها ، واعتراف صريح بها من الذين
انكروها على المستوى النظري ، لانهم في انكارهم لحرية الانسان اما
مسIRON ، واما مخIRON ، ولانالك ، وعلى الاول فانكارهم ليس بشيء لان
انكار المسير تماما كانكار المجنون واقاره ، وعلى الثانى يكون انكارهم
في ذاته اعترافا عمليا بحرية الانسان ، واذن فالاجماع قائم و منعقد من-
الجميع على ان الانسان مخير لا مسير .

وتسأل : اذا كانت حرية الانسان في هذا المكان من البدهة فكيف

وقع فيها الخلاف بين ارباب العقول - ولو على المستوى النظرى .-

الجواب :

ان ارباب العقول الذين اشرت اليهم يعترفون بان فى الانسان قدرة و ارادة ، ولكنهم يزعمون أن الله يخلق الفعل فى الانسان بمجرد ان يهبه ، و يتجه اليه ، وان الاثر كل الاثر فى وجود الفعل الانسانى هو لله وحده ، ولا شىء فيه للانسان ومن الانسان .. كلا ، انه مجرد ظرف واداة للفعل ..حتى «الباتزين» .فى السيارة افضل الفمرة من الارادة والقدرة فى الانسان ، لان «الباتزين» تأثيره البالغ فى حركة السيارة وسيرها ، اما القدرة والارادة فى الانسان فليس لهما دنى تأثير فى نشاطه وعمله .. ويأتى البيان .

وبعد ، فان مقياس الفعل الاختيارى هو ان يكون مراد او مقدر او فعلا وتر كالفاعله ايا كان مصدرا لارادة ومنشأها ، وعلى هذا الاساس قامت الاديان والاخلاق والاداب ، وشرعت الشرائع والقوانين ، وعامل الناس بعضهم بعضا تهمة وثقة ، وكرموا الابطال والهداة ؛ ولعنوا الخونة والطفاة ، ولو كان الانسان مسيرا امخيرا لكانت جميع افراده بمرتبة سواء لافضل لتقى على شقى ، ولالعالم على جاهل ، لان العلم والتقوى من الله لامن الانسان .

وصدق من قال : ان الانسان حر لمجرد كونه انسانا .. اجل ، قد تتولد ارادة الانسان من الاضرار ، كمن يقطع عضوه السقيم لسلامة بقية الاعضاء ، وايضا قد تتولد ارادته من البيئة او العادة او الوراثة ، ولكن لاشىء من ذلك يخرج بالانسان عن حريته مادام هو الذى يحدد المصلحة

لنفسه ، ويرجح اهون الشرين على اخطرهما ، ويقدم على الفعل باختياره وارادته .

ومن اجل هذا اهملت الشرائع والاديان البيئة والعادة والورثة ، ولم تدخل شيئاً منها فى حسابها من حيث المؤاخذه ؛ بل اخذت الفاعل بفعله ؛ وان ورثه عن ابيه وامه ، او من يئته ؛ او من طبيعته الثانية مكتفية بقدر معين من الحرية .. اجل ؛ لقد اسقط الشارع المؤاخذه عن المريد المضطر ؛ كالجائع يأكل من الميتة ؛ او يسرق الرغيف ليقيم به الاودحيث لا وسيلة الا السرقة والميتة .. ولكن الشارع صحح معاملة المريد المضطر ، وعمل بارادته التى انشأها بالعقد ، وصرف - اى الشارع - النظر عن البواعث الخارجية ، والدوافع القهرية ، كمن باع ثوبه اوداره من اجل التطبيب ، وفى الوقت نفسه ابطل الشارع معاملة المكره - بالفتح - ومعنى هذا ان مجرد الارادة كافية لان تجعل الانسان مخير الامسيرا ايا كان نوعها وقدرها ومنشأها ومصدرها ، وما احاط بها من حدود ومقاومات .

الارادة والاختيار والرضى:

وبهذه المناسبة نشير الى الفرق بين الارادة والاختيار والرضى ..
لاشك ان للانسان حالات تختلف بحسب ظروفه ، فقدير يد شيئاً ويتمناه مع العجز عنه ، وقدير يده مع القدرة عليه بلا علل وشوائب ، فيختاره و يرضى به ، وهو مرتاح النفس والضمير ، وقد يقدر على الشئى ولو لكان مع العلل والمنغصات ، فاذا اضطر اليه اختاره - لارضى به - بل ترجى حالاهون الشرين .. وعلى هذا تكون الارادة اعم من الاختيار والرضى ، لانها تكون مع القدرة وعدمها ، ولا يكون الاختيار الا مع القدرة ، اما الرضى فهو اخص

من الارادة والاختيار ، اذ قد يختار الانسان فعلا دون ان يرضى به ، وترتاح اليه نفسه .. وقد يما قيل : اذالم يكن ما تريد فاردماء يكون .

الجبر والتفويض وما بينهما:

قدمنا انه يكفي للحكم بان الانسان مخير لامسير ان يكون له قدر من الحرية ، وان الحرية الكاملة والمطلقة من كل جهاتها ليست بشرط ، ودعمنا رأينا هذا بمنطق الحس وبديهة العقل ، وبهما نحتج على من خالف وانكر .

وقد اختلف الناس او المسلمون في مسألة الجبر والاختيار ، وافترقوا على ثلاث فرق ، اشار اليها الامام الصادق (ع) مع بيان الفرقة المحقة - باخصر عبارة وابلغها ، وذلك حيث قال : «لجبر ولا تفويض ، بل امرين امرين» . «لجبر» اشارة الى قول الجبرية . ولا «تفويض» الى رأى المفوضة ، ويطلق عليهم ايضا القدرية . و«امرين امرين» الى ما عليه الامامية . و التفصيل فيما يلي :

الجبرية

قال الشريف المرتضى في كتاب انقاذ البشر : اول من ابتدع الجبر في الاسلام جهم بن صفوان . وكان في صدر الدولة الاموية ؛ وتبعه في هذا القول ابو الحسن الاشعري امام السنة في العقائد ، وكان في القرن الثالث الهجرى ، ويتلخص قول الجبرية بانه لا سبب حقيقى في الوجود على الاطلاق ، ولا شىء يؤثر في شىء من قريب او بعيد ، سواء اكان من نوع المادة ، ام من غيرها ؛ فلا علاقة للرجل بالمشى ، وللعين بالرؤية ولا للاذن بالسمع ؛ وللسان بالكلام ، ولا صلة للعقل بالعلم ، والمعدة بالهضم ، ولا

للماء بالحياة .

ابداً لاسبب ولاتاثير الله ، فهو وحده يباشر كل شىء حتى النفس هو الذى يخرج من الانف .. وحتى الثمرة هو الذى يقطفها من الشجرة ، ويرمى بها على الارض مباشرة وبلا واسطة ، اما جاذبية الارض وغيرها فكلام فارغ .

واما قدرة الانسان وارادته وعقله فنسبته الى افعاله واقواله تماما كنسبة الحجر الى الانسان ، لان الله هو الذى يخلق الفعل والقول فى الانسان ، وما الانسان الا اداة او ظرف ككأس الشراب وأثناء الطعام . هذا هو المراد بالجبر الذى نفاه الامام الصادق (ع) بقوله : « لا جبر ولا تفويض ، بل امرين امرين »

وزعم الجبرية ان قولهم ضرورى لكمال التوحيد الخالص من كل شائبة ، لانه لو كان لغير الله ادنى تاثير لكان شريكاً له فى خلقه ، ولم يكن الله هو الواحد الاحد ، والفرد الصمد .

وقد غاب عن عقولهم ان مبدأ العلية مبدأ الهى وطبيعى فى آن واحد وأن الله سبحانه هو الذى خلق الكون بارضه وسماؤه ، وجعل كل شىء فيه يجرى بسبب ونظام لا يتخلف عنه ، ولا يتجاوزة الا ان يشاء الله ، وعلى هذا تكون الاسباب ومسبباتها ، والنتائج ومقدماتها ، ومنها افعال الانسان الخاضعة لقدرته وارادته ، كل ذلك وما اليه فى ملك الله وسلطانه .. وباسلوب آخر : خلق الله الكون على نظام يربط المسببات بالاسباب ، وهو سبحانه بالذات اودع فى كل سبب قوة التاثير والتيسير ، وجعل فيما جعل قدرة

الانسان و ارادته من المقدمات والاسباب لانجاز أى فعل من افعاله الاختيارية.
لقد ذهل الجبرية عن هذه الحقيقة . وايضا ذهلوا عنهم ارادوا ان ينفوا
الشريك لله ؛ فنسبوه الى الظلم .. حتى الجاهل يتساءل بفطرته ويقول :
اذا كان الله هو الذى قدر على كل شىء وهو الذى فعل وترك وحده لا شريك
له ، فلماذا يكلفنى ويحاسبنى ويعاقبنى ؟ . وكيف جاز ذلك فى عدله ؟ .
وعن أى شىء اتوب واطلب العفو ؟ . هل اتوب من فعل الله ، لامن فعلى ،
واطلب العفو عما كان من مشيئته ، لامن مشيئتى ؟ .

لقد تجاوز الجبرية كل حد ، ولا شىء يساوى قولهم هذا فى اى دين .
قال النصارى : ان الله اقدر عباده على صلبه ، فصلبوه ، وتقبل هو الصلب لا
لشىء الا ليكفر عن خطيئة المذنبين ... وقال الجبرية : كلا ؛ ان الله صلب
الابرياء لا لشىء الا ليكفر هو عن فعله وعمله .. تعالى الله عن ذاك
علواً كبيراً .

المفوضة:

وقف المفوضة ، ويقال لهم القدرية ايضا ، و قفوا فى الخط المقابل
للجبرية ، وقالوا : ان الله خلق العباد ؛ ومنحهم القدرة على الفعل وترك
وامرهم بالطاعة ، ونهاهم عن المعصية ، ثم فوض اليهم ان يفعلوا بهذه القدرة
ما يشاؤون ، اى انه تعالى بعد ان خلق القدرة ؛ واعطاها لهم انتقلت منه اليهم ؛
وصارت ملكا ظلالا لهم ؛ وانقطعت الاسباب والصلات بينها وبين خالقها فى
كل ما يفعلون ويتركون بسبب هذه القدرة تماما كالبيع ينتقل من البائع
الى المشتري بعد ان يتم عقد البيع ويلزم ؛ والفرق ان الله يسأل عباده يوم
القيامة عن هذه القدرة ؛ ويحاسبهم من اجلها ، فيعاقب من اساء التصرف

بها ، ويجزى من احسن بالحسنى ، اما البائع فلا شأن له مع المشتري ،
 اساء التصرف فى المبيع ، ام احسن ... هذا هو المراد من التفويض الذى
 نفاه الامام الصادق (ع) بقوله : «لا جبر ولا تفويض ، بل امرين امرين» .
 وقل العارفون بمعنى التفويض حتى ان بعضهم فسرهُ بالتفويض فى تشريع
 الاحكام .. وعلى هذا يكون كل انسان مشرعا ومصدر الدين الله وحلاله و
 حرامه .. واشكل منه تفسير الامرين الامرين حيث حصل فيه خبط و
 خلط كثير ، ويأتى البيان ، وتقدم تفسير الجبر فى الفقرة السابقة .

والذى حمل المفوضية على هذا القول انهم ارادوا ان ينزهوا الله عن
 الظلم والجور الذى نسب به الجبرية اليه تعالى - فعز لوه عن ملكه ، وجعلوا
 له شريكافى خلقه .. حاولوا الفرار من القبيح ، فوقعوا فيما هو اسوأ واقبح .
 قال الملا صدرا : كل من الجبرية والمفوضة اعور دجال .

ولو صح هذا التفويض لجازل للانسان اذا فعل شيئا ان يقول : فعلت
 هذا بحولى وقوتى لا بحول الله وقوته .. نستعين بالله ونستغفره .. و اذا كان
 اللازم على قول الجبريه ان يسد الله تعالى باب التوبة والعفو والرحمة -
 فان المفوضة يلزمهم القول بان يسد سبحانه باب التوكل عليه ؛ والثقة به ،
 والابتهاال اليه ، وطلب التوفيق منه والهداية .. سبحانه وتعالى عما
 يشركون ..

ان الذى يؤمن بالله وحده لا بد ان يؤمن ايضا بان قدرته كاي حادث
 وكائن هي من الله ، وفى يد الله ، وانه تعالى هو الذى اراد لها ان تفعل وتؤثر
 كما اراد ذلك لغيرها من الاسباب ، وانها مسخرة لامره حدودا واستمرارا ،

ينتزعها سبحانه من عباده ساعة يشاء .. حتى وهم يباشرون أفعالهم وأعمالهم ، و
لا يستطيعون إلهاردا .. وشاهدنا ذلك مرات : « الحمد لله الذى هدانا لهذا
وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله - ٤٣ الاعراف » .

امر بين امرين :

المراد بامر بين امرين منزلة بين الجبر والتفويض ، فقد سئل الامام
جعفر الصادق (ع) : هل بين الجبر والقدر - اى التفويض - منزلة ثالثة ؟ .
قال : نعم ، اوسع ما بين السماء والارض . وفي رواية ثانية : « لا جبر
ولا تفويض ، بل امر بين امرين » . وفي ثالثة : « لا جبر ولا قدر ، ولكن منزلة
بينهما فيها الحق الذى بينهما ولا يعلمها الا العالم او من علمها اياه العالم »
وقال الماصدرا : « ان تحقيق امر بين امرين مما يعجز عن ادراكه عقول
كثير من العلماء والحكماء فضلا عن العوام » .

و كنت قد قرأت لهذا الامر او هذه المنزلة العديد من التفاسير ، و
اخترت بعضها ، ثم استبان لى الخطا فيما اخترت ، ولذا عدلت عنه الى الرأى
التالى وعسى ان اكون فيه على بينة من ربي ، لامن فهمى الذى يخطىء ،
وقد يصيب .

بعد ان اتضح ظلم الجبر وجوره ، لان الله اكرم وارحم من ان يكلف
عباده ما لا يطيقون ، ويعذبهم على ما فعل بهم وهو صنع .

وايضا اتضح فساد التفويض وبطلانه ؛ لان الله اعز واجل من ان يخرج
شيء عن حكمه وسلطانه . كيف وهل يضاد الله فى ملكه ، او بلغ به التناقض
الى ان ينهى ويفوض ، ويقدر ويجبر فى آن واحد ؟ . بعد ان اتضح فساد

الامر ينمعاوجب البحث عن امر ثالث ، ولكن اين يوجد هذا الامر ؟ وهل من ثالث للجبر والتفويض ؟ . اجل ؛ هناك ثالث ، وهذا بيانه :

من البداهة والخبرة بمكان ان الله قد اوجب على العبد ما اوجب ، وحرّم عليه ما حرّم ، ومن اجل هذا ارسل الانبيا و انزل الكتب . وشرع الشرائع .. وايضا من البداهة والخبرة ان العبد قادر على ان يفعل ما امر الله به ، و يترك ما نهى الله عنه ، وليس وراء الحس و البداهة من دليل ، و اذن للعبد قدرة على الفعل و الترك ، و بهايكون حرا و مكلفا ومسؤلا .

وايضا لا عاقل منصفاً يشك في ان الله على صلة دائمة بجميع خلقه من اصغر ذرة الى اعظم المجرات ، وان ما من شىء في الارض ولا في السماء الا هو مسخر لامره تعالى ، وفي قبضته مباشرة ، او بسبب من اسبابه كخصائص الكائنات ولوازمها التي لا تنفك عن ذاتها وطبيعتها .. وقدرة العبد من جملة ما هو مسخر بامره تعالى و في قبضة يده ، ينتزعها منه متى شاء حتى حين يهّم بالفعل او هو يباشره ، ومعنى هذا ان القدرة الثابتة للعبد بالفعل ، والتي عليها مدار حريته وتكليفه ومسؤوليته هي بالذات مملوكة لله يتصرف فيها كيف يشاء ، وان العبد مسير في اصل ثبوتها له ، وفي بقائها واستمرارها لا يستطيع بحال ان يرفضها : ولان يحتفظ بها .. وبهذا يكون العبد مسير في قدرته حدودا وبقاء ، وهو في نفس الوقت مخير فعلا وتر كالمالما وجب عليه ، او حرّم . وعليه يكون تكليف الله لعباده حقا وعدلا ، لانه اقدرهم ومكثمهم من الفعل والترك ، و جعل لهم الخيار

فى ان يفعلوا ، او يتركوا دافعا لشبهة القهر والالءاء الذى التزم به الجبرية..
واىضا يكون سبحانه - فى تسخير القدرة لامره و ابقائها فى قبضته -
متفردا فى خلقه ولاشريك له فى ملكه الذى يلزم وجوده على القول
بالتفويض .

وهذا المعنى هو المراد من امرين امرين فى قول الامام الصادق (ع)
وقد استوحيناه من كلام قاله ذوالعقل الكبير الملا صدرا ، وهو يفسر
الامر بين الامرين فى شرحه لاصول الكافى ، وهذه عبارته بالحرف
الواحد :

«لم يرد الامام (ع) بقوله : لا جبر ولا قدر - اى تفويض ان العبد خال
من الجبر والاختيار ، ولا بقوله : ولكن منزلة بينهما - اى امرين امرين -
ان فيه شيئا ضعيفا من الجبر ، وشيئا ضعيفا من الاختيار ، ولا يضاف فيه
تركيبا بينهما كالمركب من الحلاوة والحموضة .. بل المراد ان العبد
مجبور فى قدرته قادر فى جبره ، مضطر فى عين اختياره ، مختار فى عين
اضطراره ، والفعل ثابت له من حيث هو ثابت لله ، وصادر منه من حيث
هو صادر من الله » .

ونفس هذه العبارة تيسير اعلى الافهام بعد ان فسرنا قول الامام بوحى
منها . يريد ذوالعقل الكبير ان العبد مجبر فى الزامه بالقدرة لعجزه
عن رفضها وعن الاحتفاظ بها ايضا ، وهو برغم هذا العجز قادر على ان يفعل و
يترك لان الله قد ممكنة من احدهما على سبيل التخيير . ولا محرب له من
ذلك ، أى ان العبد مخير ضمن الاطار الذى يضم الفعل والترك معا تاما

كفردى الواجب التخييرى فاذا اختار العبد الفعل اسند اليه حيث آثره على التترك وايضا يسند الى الله، لانه هو الذى اقدره عليه، وممكنه منه، وهكذا يقال لو ترك، واذن فلا يقال : ان العبد مخير مطلقا ومن كل الجهات ، ولا هو مسير كذلك بل مخير من جهة ومسير من جهة وهذا كاف وافى حريته التى تبرر تكليفه ومسؤوليته .

الله ومعصية العبد:

وتسأل: اذا كانت قدرة العباد مسخرة لله وفى قبضته، و انه بهذا الاعتبار تنسب افعالهم الى الله واليهم معا اذا كان الامر على هذا فمعناه ان العبد اذا عصى و فعل الشر جاز ان ينسب شره ومعصيته الى الله كما تنسبها الى العبد. وعليه يكون الله شريكا لعبده فى المعصية وفعل الشر ومن البداهة بمكان انه لا يجوز فى منطق الحق والعدل ان يعاقب اقوى الشريكين شريكه الضعيف على شيء هما سواء فيه ؟

الجواب :

ليس من شك ان العبد اذا اطاع وفعل الخير ينسب اليه حيث كان فى مقدوره ان يتركه ، وينصرف الى الشر ، ومع هذا لم يفعل ، وايضا تنسب هذه الطاعة وهذا الخير الى الله بقول مطلق 'لانه تعالى هو الذى اقدر العبد عليه ، وامره به ، فاستجاب واستحق الثواب ، اما اذا عصى العبد وفعل الشر فانه يسند اليه حيث فعله وهو قادر على تركه ، ولذا يستحق العقاب ، وايضا يسند هذا الشر الى الله ، ولكن لا بقول مطلق ، بل بقيد واعتبار ان القدرة التى عصى العبد ربه

بواسطتها هي من الله سبحانه،

وانه قادر على سلبها منه بمجرد أن يهيم بالمعصية، ولكن الله تعالى لم يفعل
لحكمة نشير اليها في سياق هذا الكلام .

ولله جلّت عدالته ، ان يحاسب العاصي ، ويعاقبه على المعصية حيث
نهاه عنها ، وحذره منها بعد ان اقدره منها ، ولكنه عاند وتمرد ، قال الامام
الصادق (ع) : قال رسول الله: (ص) من زعم ان الله يأمر بالسوء و الفحشاء
فقد كذب على الله ومن زعم ان الخير والشر بغير مشيئة الله فقد اخرج الله
من سلطانه ، ومن زعم ان المعاصي بغير قوة الله فقد كذب على الله ، ومن كذب
على الله ادخله النار .

يريد الامام (ع) بمشيئة الله للشر انه تعالى منح عباده القدرة على الشر
تماما كقوله تعالى : «وما تشاؤون الا ان يشاء الله - ٣٠- الانسان» أي لا تقدر
على شيء الا بقدرة من الله . . ان الله سبحانه نهى عن المعاصي ، وتوعد
العبد عليها ؛ ولكن العبد ارادها لنفسه ، وفعلها بسوء اختياره مستعينا بقدرة
هي منحة من الله لعبده؛ فتركه سبحانه وشأنه ، ولم يدعه عن المعصية بالقهر
والالغاء حرصا على انسانيته ، اذ لا انسانية بلا حرية ، وايضا ليفصح عن نفسه
و يظهر للملا على حقيقته ، ويتميز عن الطيبين باختياره وارادته وبالتالي
لتكون الحجة لله عليه اعظم وألزم حيث عصاه . مختاراً بقدرة هي نعمة عليه
من الله .

وبعد ، فان كثيراً من العلماء تعرضوا في مؤلفاتهم لمشكلة الجبر
والاختيار ، وايضاً وضعوا فيها كتباً مستقلة قرأت أكثرها ، او الكثير من طوالها

وقصارها، وبعضهم شوه الحقيقة، وشوش العقول والافكار، وزاد المشكلة غموضاً وتعقيداً.. وفي استطاعتي - لو شئت - ان اسود عشرات الصفحات، فألخص من الكتب وادّوح، واقلم واطعم .. و لكنني لم افعل حرصاً على عقل قارئى ورفقاً به، ولا اقول: ان كلمتى هذه حادية واعية، او فيها بلغة الكفاف، لان الكاتب يجب ان يتوارى خلف مايكتب ، ويدع الحكم له او عليه للذى يتقن فن القراءة، ويجيد التفكير فيما يقرأ، وانا اعرف هذا من نكهة حديثه ، وفي عقيدتى أن من قرأ ولم يفكر فقد تنكر للعلم الصحيح، ولنعمه الله وفضله . قال كوفوشيو سوس: «العلم بلا تفكير اخطر من التفكير بلا علم» ومهما يكن فنصيحتى ان يقيس الانسان القراءة على الطعام ، فلا يقبل عليها الا اذا كان مستعداً ، والا فقد ظلم نفسه ، والكاتب الذى يقرأ له .

* * *

اشكال وحل

وهنا اشكال معروف، وايضاً جوابه معروف، ويتلخص الاشكال بان الله سبحانه يعلم مقدماً بان الانسان المجرم سير تكب الشر ويفعله ، وليس من شك ان علمه تعالى لا يتخلف عن المعلوم تماماً كما ارادته التى لا تتخلف عن المراد وعليه تكون ارادة الانسان مغلوبة لعلم الله ، وبالتالي يكون الانسان مسيراً لامتيراً، وبتعبير الفلاسفة او المتفلسفين ان كل ما علم الله صدوره عن العبد فهو واجب الصدور، والالزام انقلاب علمه سبحانه جهلاً . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

الجواب: فرق كبير وبعيد جدا بين سابق علمه تعالى بسوء اختيار العبد لفعل الشر، وبين سابق علمه سبحانه بفعل الشر من حيث هو، وبصرف النظر

عن ارادة فاعله واختياره له . فان العلم الاول مجرد كشف عن وجود المعلوم في الحال والاستقبال تماماً كعلم الاستاذ بان لهذا التلميذ النجيب مستقبلاً زاهراً، وكعلمك بان فلان الذي تعرفه جيداً سيرفض لامحالة لونا معيناً من الطعام متى قدم له .

واما العلم الثاني فليس كشفاً عن وجود الفعل بل علة لوجوده .. وبكلام آخر: فرق بين قولك: علمت بان زيداً سيسافر غداً، وبين قولك : لما علمت بانه سيسافر سافر... وعلمه تعالى بصدور الفعل من العبد من النوع الاول .

الشقى والسعيد:

وبهذا نجد تفسير الحديث المشهور : «الشقى من شقى فى بطن امه ، والسعيد من سعد فى بطن امه» اى ان الله يعلم قبل ان يخرج هذا من بطن امه أنه سوف يعمل عمل السعداء، وايضاً يعلم قبل ان يخرج ذاك من بطن امه انه سوف يعمل عمل الاشقياء . وقد سئل الامام الكاظم (ع) عن معنى هذا الحديث، فقال: «الشقى من علم الله، وهو فى بطن امه، انه سيعمل عمل الاشقياء والسعيد من علم الله، وهو فى بطن امه ، انه سيعمل اعمال السعداء» قال السائل : فما معنى قول الرسول الاعظم (ص) : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ؟ . فقال الامام (ع): «ان الله جل وعز خلق الجن والانس ليعبدوه، ولم يخلقهم ليعصوه فيسر كلا لما خلق له، فالويل لمن استحب العمى على الهدى» .

اى ان كل انسان يجد الطريق امامه موسعاً وميسراً ما يختاره لنفسه من طاعة او معصية ، فان اختار الطاعة يسرها الله له ، وان اراد المعصية ايضاً يسرها له، بل وارادها ايضاً عقوبة له على ما اراد.. وهذا ما قصده الامام بقوله : «الويل لمن استحب العمى على الهدى» اى ان الذى آثر العمى ألزمه الله بما

الزم به نفسه ، وعامله بما اراده لها .

وعلى هذا يكون لله سبحانه ارادتان: ارادة مستقلة ك ارادته لخلق الكائنات
وارادة تابعة لارادة العبد بما يختاره لنفسه، ولكن بعد أن يلقي عليه الحجة،
ولا يبقى له من سبيل للاعتذار .

والخلاصة ان الله جلّت عظمته وحكمته خلق الانسان على وضع يستطيع
به ان يختار بين الهدى والضلال ، وهذا ثابت بالحس والبديهة . ومن يختار
الهداية يجد اسبابها ، ومن يختار الضلالة فكذلك : « فاما من اعطى واتقى و
صدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى
فسنيسره للعسرى - ١٠ الليل » .

ليبلوكم ايكم احسن عملا:

وتسأل : ان قوله تعالى : « ليبلوكم ايكم احسن عملا - ٧ هود » يتنافى
بظاهره مع القول بان الله سبحانه يعلم الشقى والسعيد قبل ان يخرجها الى
هذه الحياة ؟ حيث دلت الاية بظاهرها على ان الله يبتلى عباده بالتكليف ليميز
الخير من الطيب ، ومعنى هذا انه تعالى لا يميز الا بعد الابتلاء ، وما دام العبد
فى بطن أمه فلا ابتلاء .

الجواب : ان الله سبحانه لا يختبر عبده ليعلم منه ما لم يكن يعلم ..
كلا؛ فانه اعلم به من نفسه ، وانما يمتحنه لامور :

« منها » : ان يترجم ما هو كامن فى نفسه الى عمل ملموس ، حيث اقتضت
حكمته تعالى ان لا يحاسب الناس على ما يعلمه منهم ، ولا على ما هو كامن فى
نفوسهم ، بل يحاسبهم على الاعمال ، قال الامام على (ع) : « يقول الله :

واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة « ومعنى ذلك انه يختبرهم بالاموال والاولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضى بقسمته ؛ وان كان سبحانه اعلم بهم من انفسهم ، ولكن لتظهر الافعال التى بها يستحق الثواب والعقاب .

و «منها» : ان يتميز الخبيث من الطيب ، وتظهر حقيقته امام الناس ، فيعاملونه بما يستحق .

و «منها» ان بعض الناس ، واكثرهم يجهلون حقيقة انفسهم ، و يقولون : «لوسمحت لنا الظروف لكننا كذا وكيت» فيمنحهم الله الاستطاعة ليلقى الحجة عليهم ، ويعرفهم بحقيقتهم وواقعهم .
الهدى والضلال :

وتسأل : لقد ورد فى كتاب الله آيات تدل بظاهرها ان الله سبحانه يخلق فى العبد الهدى والضلال ، تماما كما يخلق العبد بجسمه وروحه ، و منها قوله تعالى : « فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء - ٨ فاطر .
وقوله : « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم - ٣٩ الانعام . وعليه يكون العبد مسيرا ، لامخيرا ؟ .

الجواب . ان الله سبحانه وهب الانسان القدرة والعقل والارادة ، و بالقدرة يفعل ، وبالعقل يميز ، وبالارادة يختار ، ثم ارشده الى طريق الخير وطريق الشر ، وحذره من هذا ، وامره بذلك ؛ وهو سبحانه - بموجب عدله يعامل كل واحد من عباده بما يختاره لنفسه ، فمن اساء الاختيار ، وسلك سبيل الضلال اصبح ضالا ، لامحالة ، وصحت نسبة الضلال اليه ، لانه هو الذى اقدم عليه بسوء اختياره وتصح نسبة الضلال الى الله . لانه هو الذى

جعل هذا الطريق مؤدياً الى الضلال ، تماماً كما جعل السم سبباً للموت ، و
التردى من شاطئ علة للتخظيم والهلاك .

والانسان فى البداية حرقى ان يقدم او يحجم عن طريق الضلال ، فان
اقدم سلبت منه الحرية ، ولزمه الضلال حتماً وقهراً .. ونظير ذلك ان يقول
قوى لضعيف: اياك ان تدخل هذا الكهف ، والاسدودت بابيه عليك حتى تموت
فيه جوعاً وكمد أجزاء لعصيانك وتمردك ؛ فاذا دخل بعدهذا التحذير، و
سد القوى باب الكهف على الضعيف ، وهلك فيه صح ان يقال : اهلك الداخلى
الضعيف نفسه بنفسه ، وان يقال ايضاً : القوى اهلكه ، ولكن اللوم كل اللوم،
واشد اللوم على من دخل الكهف ، وهو يعلم انه هالك فيه لامحالة .

وفى القرآن الكريم آيات عديدة وصريحة فى هذا المعنى ، منها :
« فلما زاغوا وازاغ الله قلوبهم - ٥ الصف) . اى انه تعالى اراد لهم الزيف بعد أن
ارادوه لانفسهم . ومنها : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بانهم قوم لا يفقهون ١٢٧
البقرة » « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب - ٣٤ غافر » . . والذين اهتدوا
زادهم الله هدى - ١٧ محمد » . ويضل الله الظالمين - ٢٧ ابراهيم » . . « كذلك
يضل الله الكافرين - ٧٤ غافر » . . ووضح الايات دلالة فى هذا الباب قوله تعالى
« كيف يهتدى الله قوماً كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم
بالبينات والله لا يهتدى القوم الظالمين - ٨٦ آل عمران » .

ويتضح من هذه الايات ونظائرها ان افعاله تعالى تنقسم الى نوعين :
الاول يهدف الى ما هو مطلوب بالذات ، والثانى يهدف الى ما هو مطلوب
بالعرض ، والاضلال من النوع الثانى اى انه تعالى لم يرد الاضلال من العبد

على كل حال حتى ولو اراد الهدى لنفسه ، بل اراده من العبد اذا اراده العبد
لنفسه، ونظير ان تريد الخير والهداية لمن تحب ، وترغبه فيها بكل وسيلة ،
ولما أصر وعاند وابى الا الضلال كرهته ، والزمته بكل ما يترتب على الضلال
من آثار عملا بمبدأ «الزموهم بما الزموه بانفسهم» .

سؤال ثان: ان الله سبحانه يعلم انه لو خلق هذا الشقى لاثّر الشقاء على
السعادة ، وليس من شك ان عدم الشقى الفاسد خير من وجوده . واصلح له .
لان مصيره الى الخلود في جهنم وعذابها ، وايضاً عدمه اصلح للمجتمع لانه
يرتاح من شره وضره .

الجواب اولاً : ان من شأن الخالق هو ان يفيض الوجود على الممكنات
على ان لا يتنافى ذلك مع عدله ورحمته ، والله سبحانه قد احسن الى الشقى
الفاسد ، وانعم عليه بالوجود ، وزوده بالقدرة والعقل والارادة ؛ وهداه النجدين ،
ولكنه اختار الشر : فكان هو المسئول دون غيره .. وعليه يكون عدم الشقى
خير من وجوده بالنسبة اليه ، لا بالنسبة الى الخالق .

ثانياً : لو اخذنا بهذا المبدأ لما صح الاتكليف من نعلم بانه يسمع
ويطيع مع ان التكليف يصح توجيهه للجميع .

ثالثاً : ان الحجة لا تقوم لله على عباده الا اذا اوجدهم واقدرهم وكلفهم .

رابعاً : ان وجود الشقى فيه شر ، وفيه خير ايضاً ، حيث به يتميز التقى
ويظهر فضله على غيره .

فَلَيْسَ فِيهِ الْبُيُوتُ

النبوة

يتفرع هذا البحث عن الايمان بوجود الله تعالى ، ومن انكر وكفر فلا يحق له الحديث عن النبوة والانبياء ، لان الفرع ينتفى بانتفاء الاصل ، وايضا الحديث عن نبوة محمد (ص) وغيره من الانبياء يتفرع عن اثبات النبوة كفكرة بصرف النظر عن نبوة الاشخاص ، ولذا نبدأ الكلام قبل كل شيء عن تحديد النبوة من حيث هي ، ثم عن اثباتها ، فان استطعنا ذلك ، تحدثنا عن نبوة الرسول الاعظم (ص) في الفصل التالي :

البعثة

النبوة بعثة من الله الى عباده ، وسفارة بينه وبينهم ، وغايتها ارشادهم الى ما فيه الله رضا، ولهم خير وصلاح ، فالرسول مبعوث من الله ، ورسالته النصيحة : « ابلغكم رسالات ربي وانصح لكم - ٦٢ الاعراف » . ولكن هل يحتم العقل ان يكون لله رسل الى خلقه وسفراء بينه وبينهم ؟ .

الجواب : اذا كان لكل مصلح رسالة الى اهله وقومه فبالا ولى ان يكون للخالق رسالة الى خلقه ، واية حاجة للناس باله لايهتم بهم ، ولا يعنيه من امرهم قليلا ولا كثيرا ؟ .

و يمكن ان نقرر حكم العقل بهذا الاسلوب ، وهو بعد ان افترضنا وجود الله سبحانه ، وانه متصف باعلى صفات الكمال والجلال . بعد هذا الافتراض يلزمنا حتما ان نؤمن بان ما من شيء حسن فى ذاته الا والله سبحانه فاعله وليس من شك ان ارشاد من يحتاج الى الارشاد حسن فى ذاته وان الناس كل الناس فى حاجة الى من يرشدهم الى النجاح والصلاح ، فينتج من ذلك ان الله سبحانه لابد ان يرشد عباده الى ما فيه خيرهم وصلاحهم ، وحيث لاسبيل الى ذلك الا بأرسال الانبياء فيتعين ان الله انبياء عورسلا .

وبالاختصار ان فى افعالنا خير او شر ، ونحن نجعل الكثير منها ، والله عالم بما نفعل ونجهل ، فيجب ، وهذى هى الحل ، ان يرشدنا ما يعلمه من صلاحنا باجدى الوسائل ، وارسال الرسل ... واليك هذا المثال للتوضيح : اعمى كاد ان يتردى فى حفرة امامه ، وانت قريب منه وعلى مرأى ، فتجأ هلته حتى هوى ومات ... ولو تفوهت بهذه الكلمة فقط : « انتبه امامك » لسلم ومع هذا تجاهلت من غير عذر ، لو حصل معك مثل هذا لكنت مذموماً وآثما عند الله والناس وعند ضميرك ايضاً .. والله سبحانه اجل واعظم ، واعدل وارحم ان يخلق عباده ثم يتركهم سدى يسرون فى طريق الهلاك من غير حارس ودليل .. ان الله ارحم بعباده من الام العطوف بوليدها . كما فى الحديث .

هل يغنى العقل عن الانبياء : وقال قوم ، وهم البراهمة ، لاجابة اطلاقا الى الانبياء ، لانهم ان جاءوا بما يوافق العقل ففيه غنى عنهم ، وان خالفوه وجب ردهم والانكار عليهم .

واجيبوا بان العقل لا يحيط بكل شىء علما ، بل يدرك شيئا ، ويغيب عنه اشياء ، لا يدركها الاعلام الغيوب ، فيبينها سبحانه للناس بلسان انبيائه

ورسله .

واصدق شاهد لهذا الجواب ان القرآن الكريم كشف عن كثير من الحقائق التي لم يهتد اليها العلم والعلماء الا بعد الف سنة واكثر وعلى سبيل المثال دون الحصر نذكر قوله تعالى : «وجعلنا من الماء كل شيء حي» - ٣٠ الانبياء حيث اثبت العلم الحديث ان الماء مبدأ الحياة ، وقوله «وارسلنا الرياح لواقح - ٢٢ الحجر» ايضا اثبت العلم ان الرياح تنقل لقاح الازهار الذكور الى الازهار الاناث لتخرج الثمر والفواكه ؛ وقوله : «وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم» - ٣٨ الانعام وبهذا قال اهل الاختصاص بعلم طبائع الحيوانات والطيور والحشرات ، الى آخر الايات التي تتفق نصا وروحا ، او تتفق معها الكشوفات الحديثة .

ونعطف على جواب من رد على البراهمة ، نعطف عليه الحقائق التالية .

١ - ان قول البراهمة واضرابهم لوصح لانسد باب العلم والنصيحة والامر بالمعروف وبشيء انواعه ، وباب الاصلاح والمصلحين ، وجاز لكل انسان اذا ارشده مرشد ، افهم واعلم أن يرد عليه ، ويقول له لي من عقلي غنى عنك وعن تعاليمك .

٢ - لقد رأينا وقرأنا ان بعض الذين يدينون بالنبوات يعبدون الاحجار والاشجار ، وبعضهم النيران او الكواكب او الحيوانات ، او البرق والرعد ، والاشباح و الارواح ويفضلونها على عبادة الواحد الاحد التي تطهر النفوس من الاوهام والخرافات .. وقرأنا ايضا ان لبعض الامم مجموعة من الالهة كثيرة وهائلة ... فانه للسماء واله للارض ، وثالث للفضاء بينهما ، ورابع للشعر : وخامس للجمال ، وسادس للحب ؛ وآخر للبغض ، أول للسلم أو الحرب و لكل شيء رب

يربه حتى القبائل، لكل قبيلة رب.. اما صفات هذه الالهة والارباب فعجيبة غريبة ، فمنهم الطويل الاشقر، ومنهم الاسمر ، وآخر يعشق الجميلات و ينكح البنات الى آخر الاساطير والسخافات.. وايضا قرأنا ان بعض الاقوام الذين لا يدينون بالنبوة ينكحون امهاتهم وبناتهم، ومنهم من يأكل لحوم البشر الى ما لا يبلغه الاحصاء من المآثم والمنكرات.. وصدق الله العظيم «ان الانسان لظلوم كفار - ٣٤ ابراهيم» .

ومن هنا كان الدين السليم ضرورة لكل انسان بالغاً ما بلغ من العلم والعقل ، فان كثيراً من الذين تعودوا اساليب العلم وطقه الدقيقه في هذا العصر يؤمنون بالخرافات.. قال (غوستاف لوبون) في كتاب الاراء والمعتقدات «ان العلماء تبدو عليهم السذاجة كما تبدو على الجهلة الادميين. . . فالعالم قلما يبدو اسنى من الجاهل في الامور التي ليست من اختصاصه، وبهذه الملاحظة ندرك السبب في ان افضل العلماء يؤمنون باسداد الوهام خطلاً» ثم ضرب على ذلك كثير أمثلة منها ان عالماً كبيراً في عصره كان لا يخرج من بيته الى المختبر الاومعه قطعة من حبل المشنوق تقيه - بزعمه - حسد الحاسدين، وسحر الساحرين» .

واغرب ما قرأت في تأليه الانسان للانسان في عصرنا هذا ، عصر النور والحضارة، هو ما ذكره عبدالرحمن عزام في كتابه الرسالة الخالدة ، قال ما يتلخص بانه ذهب سنة ١٩٣١ الى جبال النوبة في جنوب كردفان ؛ فوجد قوماً من الزوج يعبدون واحداً منهم كاله ، ويسمونه «الكجور» ويرفعون اليه الدعاء ويقدمون له القرابين ، ويقدمونه كل تقديس ، ويعتقدون بانه القدير على تصريف الامور الكونية، وانه هو الذي ينزل المطر من السماء ،

فاذا اجذبت الارض ،وهلك الزرع سألوهم المطر، فان تأخر عليهم شكوه الى الحكومة، ولم يتركوها بحال حتى تأمر بحبسهم، واذالم ينزل الغيث قتلوه واقاموا غير مكانه - وهنا تذكرت الاعرابي الذي صنع صنما من تمر ، ولما جاع اكلمه - وقال المؤلف :وقد جالست هذا الرب ، وتحدثت معه بواسطة المترجم، وفي اثناء حديثي معه جاءت زوجته، وكشفت عن ساقها ، فارتنى آثار الضرب . فقال المترجم ان بعض الذين يعبدون زوجها قد ضربها ، وهي تشكوه اليك ظانة انك الحكومة قلت - مازال الكلام للمؤلف : كيف ، وهي زوجة الرب المتصف بالقدره عندهم ؟

ولادري كيف نطق عبدالرحمن عزام بهذا التساؤل ، وهو يروى عنهم انهم يقتلون الاله الذين يعبدون ويقدمون اذالم ينزل الغيث؟. ان الذي يعبد غير الله الواحد الاحد لا يكثر عليه شيء حتى ولو كان عالما كبيرا في عصره كالذي يحمل حبل المشنوق خوفا من حسد الحاسدين، وسحر الساحرين كما حدثنا عنه غوستاف لوبون .

٣ - من تتبع سيرة الانبياء، ودرسها بروية وامعان يجزم بانهم اول من دعا الى دين واحد، وامة واحدة ، والى الصلاح والاصلاح بشتى انواعه ، وان دعوتهم هي التي غيرت وجه التاريخ، ولولاهم لما تقدمت الانسانية خطوة واحدة الى الامام ، ولا كان لها تاريخ و حضارة واية دعوة اسمى واكمل من دعوة الاسلام التي تخاطب العقل والفطرة، وترتكز على الافناع والتحرر من الجهل والخرافات ، وتقليد الاباء والاجداد .

٤ - ان انكار النبوة والانبياء معناه ان البشرية في غنى عن الدين

والشرائع السماوية واحكامها، لان الانسان بمواهبه - كما يزعم المنكرون - يستطيع ان يسد حاجاته في كل زمان ومكان مستقلا عن جميع الاديان .

وقد يبدو هذا صحيحا للوهلة الاولى عند البسطاء السذج، ولكن الاذكيا يعلمون ان غاية الدين لا تنحصر بتنظيم العيش في هذه الحياة، بل هي اعم واشمل، ان غاية الدين ايضا ان يفهم الانسان معنى الحياة وقيمتها ومصدرها واهدافها ومصيرها . . وليس من شك ان كل عاقل يتمنى من اعماقه ان يعيش في حياته هذه حراً كريماً، لا ظالماً ولا مظلوماً ، وايضا يتمنى بفطرته ان يحيا حياة ابدية سعيدة لا يشوب صفوها اية شائبة - لو اتيج لذلك والاسلام يقف معه، ويؤاذه فيما يبتغيه من الحياة الفانية ، ويرشده الى طريق الحياة الخالدة الراضية المرضية . . ومن جادل وخاصم نحيله الى الدعوة المحمدية التي تقدس العقل ، وتمتدح العلم ، وتساوى بين الناس على اساس الحق والعدل ، نحيله الى كتاب الله وسنة نبيه اوعلى ما كتبه العلماء المنصفون في هذا الموضوع شريطة ان يقرأ ويدرس بتجرد وروية .

هل العلم يغنى عن الدين :

وجاء بعد البراهمة من يقول اجل ، ان العقل وحده وبما هو لا يغنى عن غيره ، ولا يخرج الانسان من العيش مع الحيوانات في الغاب والكهوف ، ولكن العلوم الطبيعية هي التي تخرجه من الهمجية والوحشية الى الحضارة والمدنية، ومن الظلمات الى النور .

الجواب: ليس من شأن العلوم الطبيعية ولا في قدرتها ايضا ان تفسر

القيم الانسانية ورغباتها كالسلم والحريّة والمساواة - مثلاً - وانما تصف الحوادث

والتجارب وتسجلها، كما هي في واقعها، ومن هنا قال كثير من علماء الطبيعة انفسهم ان العلم وحده لا يحقق امانى الانسان، وانما ينبغي ان يقترن بقيم انسانية وشريعة عادلة توجه العلم الى ما يضمن اعظم قدر من تحرر الانسان وسعادته .

وقال الدكتور فؤاد زكريا في مقال نشره بمجلة عالم الفكر الكويتية ج ١ ٤٤ بعنوان العلم والحرية الشخصية ، قال : « في العصر الحديث اصبحت الصورة التي يرسمها العلم للكون تتصف بالآلية ، ولا تترك مجالا لقيم الانسان ورغبانه لقد اصبحت العالم موحشا يسير في طريقه المرسوم بدقة واضباط لا مكان فيهما لمشاعر الانسان .. ان العصر الحديث اوجد انفصالا قاطعا بين عالم الطبيعة وعالم الانسان ، وقضى على التداخل بين هذين المجالين » .

ونذكر نحن صفة اخرى اضر واخطر من هذا الانفصال ، وهي ان تلك المصانع والمعامل قد حولت طعام الجوع ، ولباس العراة ، وبيوت البائسين ومستشفيات المرضى ، وروضات الاطفال ، ومعاهد العلوم ؛ حولتها الى اسلحة جهنمية ترعب البشرية بكاملها ، والى آلات التجسس على الدول والشعوب والافراد ، لالشيء الا للاقاع والاضرار بهم .

ومن اغرب ما قرأت في هذا الباب ان في الولايات المتحدة يوجد بنوك للمعلومات عن اسرار الملايين ، تختزنها العقول الالكترونية ، وتباع تلك الاسرار لمن يشاء ساعة يشاء.. وقد بلغ استخدام هذه الاجهزة حداً يفوق التصور حتى لم يبق لاحد من سر مكتوم .

واخطر من ذلك آلات التصوير التي تنفذ اشعتها من الجدران، وتعكس

كل ما فيها حتى مايجرى فى الحمام، ويدور على الفراش ، ويكتمن بالخزائن ..
وغريبة الغرائب ان هذه الاجهزة تباع علنا بالاسواق ، وعلى مرأى من
الحكومة ومسمعها حتى ارتفعت اصوات الاحتجاج تنبه الى الخطر الذى
تعرضت له الحريات والكرامات .. هذى هى العلوم الطبيعية التى تغنى عن
دين الله القائل . «اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا
يغتب بعضكم بعضا يحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا» ١٢ الحجرات .
والخلاصة ان احدث النظم التى يسمونها بالعلمية لا تغنى عن دين الله
شيئا ، لانها لا تعبر الا عن الذين يصنعونها ، و لانعكس لا اطماعمهم و
اهواءهم .

وقال احمد امين المصرى فى بعض ماكتب ونشر : «ان كان العلم فى
كل اشكاله يحقق رغبة الانسان من حيث مادته ، فالدين يحقق امله و
طموحه من حيث نفسه وقلبه ، لقد اراد الماديون ان يؤسسوا نظاما لالاخلاق
على العقل البحت فلم يفلحوا . ان الاخلاق اذا كان يحميها القانون فقط او
الحكومة او الضمير او الرأى العام لم تكن اخلاقا محصنة ، فكل هذه
وسائل لا تمنع الاجرام ، فكم من الجرائم يستطيع الانسان ارتكابها ولا
يصل اليها القانون ولا الحكومة ولا الرأى العام ، وماسمى بالضمير ليس
الامر آة منعكسة للعرف والتقاليد فالضمير فى الهند كان يسمح للزوجة ان تدفن
حية مع زوجها ، والضمير فى امريكا يسمح للامريكى الابيض ان يعامل
الزنجى معاملة الانسان للغنم، والدين هو الذى يسد هذه الثلمة ، فيربط
قلب الانسان بربه ، وضميره بالهه ؛ والهه مطلع على خفاياه يحاسبه حتى
على نياته ، ويراقبه حتى فى خلدجات نفسه » .

محمد والقرآن

فى فصل اثبات الخالق حارلنان نعلم على مبادئ اولية ، وحقائق يقينية فى منتهى الوضوح ، ونحاول هنا ايضا فى كل مانكتب ان نسير على هذه السبيل . ومنه تعالى نستمع العون والتوفيق .

القرآن ومعجزات الانبياء

قالوا : كان لكل نبي معجزة تفسرها حوادث عصره وتعين نوعها الظروف التى كانت تحيط به ، ثم تذهب بذهاب تلك الظروف والحوادث ، او بموت النبي كعصاموسى ؛ وابرء الاكمه والابرص على يد السيد المسيح ، اما معجزة الرسول الاعظم فهى القرآن ، والقرآن باق على مدى الايام ، وقد تفرد بهذه الفضيلة نبينا محمد وامتاز عن سائر الانبياء .

وهذا القول صحيح وصادق فى واقعه ؛ ولكن لا يواجه به غير المسلم بخاصة المتعصب المتعنت ، لان له ان ينكر ويقول : اول الكلام ان القرآن معجزة تثبت نبوة محمد .

والذى يجب سلوكه مع المنكر هو ان نقول له : ان القرآن تتوافر فيه جميع الصفات والمؤهلات التى تجعله موضوعا للبحث والدرس فى انه هل هو معجزة خارقة للعادة شكلا ومضمونا فى كل مكان وزمان ، وعلى مدى العصور والاجيال ، اولاشئ فيه من هذه الصفات والمؤهلات ، بل ان حاله تماما كحال الانجيل والتوراة ، وغيرهما من المؤلفات والمصنفات ؟ .

وليس من شك ان غير القرآن من الكتب .. حتى التوراة و الانجيل
لا تتوافر فيه هذه الصفات و المؤهلات . وبالتالى لا يصح ان يكون
موضوعا لهذا النزاع والاختلاف .. والدليل على ذلك حسى ويقينى من
وجوه ، وهى :

اولا : انه ما من يهودى او نصرانى تجرأ حتى على الدعوى والزعم
بان توراته و انجيله معجزة ، او شبه معجزة .. لافى مبناه ولا فى معناه .. وايضا
ليس فى واحد من الكتابين تصريح بذلك ولا تلميح على عكس القرآن ، كما
ترى فى الايتين التاليتين :

ثانيا : ان القرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى تحدى
المعاندین له فى كل زمان ومكان ، وقال لهم بلسان واضح وفصيح : «فأتوا
بسورة من مثله وادعوا شركاءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا -
٢٤ البقرة» .

وقال ايضا : «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا
القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا - ٨٨ الاسراء» . ومضى
على هذا التحدى اكثر من الف وثلاث مئة سنة ، وما اتى ولن ياتى احد بمثله
على الرغم من كثرة خصومه وعلمهم ومقدرتهم .. ومن اجل هذا آمن به
علماء وفلاسفة كثيرون ولا يزالون يدخلون فى دينه ، ولن يزالوا على مدى
العصور والاجيال .

ثالثا : كل معجزة من الانبياء كانت خاصة بعصره وتاريخ قومه لا -
تتعداه الى غيره . كعصا موسى ، واحالة الماء خمر فى عرس «قانا الجليل»

على يد السيد المسيح ، كما قال الانجيل ، اوابرائه الاكمه والابرص كما يقول القرآن ..

ولاشيى على الاطلاق فى الدنيا بكاملها نطق بلسان المقال والحال ، وتجراً ان يقول : انا المعجزة الكبرى مدى الدهر لفلان ابن فلان ، وان الله قد اوجب على جميع عباده بلا استثناء طاعته وطاعته ، وهذا دليلى البالغ القاطع ، وهو التحدى .. ابدا لا قائل بهذا الا القرآن الكريم ، معجزة محمد الخالدة على مدى العصور والاجيال .. ذلك بانه « كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ۱ - هود » . و به آمنت و صدقت ملايين الملايين على مدى القرون .

وبهذا يتبين معنان المعجزة التى يدعيها المسلمون لمحمد (ص) ليست عصا ، ولا ماء يحول الى خمر ، ولا اى لون من الوان المادة التى تذهب وتزول مع الاحوال والايام ، بل هى روحية عقلية ، لها مبادئ واحكام انسانية تطمئن بها النفوس ، وتذعن لها العقول ، وتصلح لحياة الناس كل الناس فى جميع الميادين ، وعلى كرام العصور واختلاف الامم ، لانها تهدي باسرها الى التى هى اقوم ، ومن ارتاب وتردد قالت له معجزة محمد : « فاتوا بسورة من مثله » .

هذا هو الفارق بين معجزة محمد ، ومعجزة غيره من الانبياء ، وبهذه المعجزة اى بالقرآن ونظامه وشريعته كان محمد سيد الانبياء وخاتمهم ، وكانت رسالته عامة وخالدة الى آخر يوم تماما كمعجزته .. « و ما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا - ۲۴ فاطر » .

« وما ارسلناك الا رحمة للعالمين - ١٠٧ الانبياء . اما الانبياء السابقون فشريعتهم خاصة كمعجزاتهم ، والذي يؤيد هذا انه لا اشارة في التوراة او في الانجيل الى ان موسى او عيسى هو رسول الله الى الناس كافة على تعاقب عصورهم ، وتباين لغاتهم ، وانه خاتم النبيين ، ولا احد من الانبياء السابقين - على محمد - وصف رسالته بالعموم والشمول ، او نفسه بخاتم المرسلين ، بل منهم من بشر بمحمد من بعده ، وتأتي الاشارة الى ذلك .

هل لمحمد معجزة غير القرآن ؟

يرى البعض انه لا معجزة لمحمد (ص) الا القرآن ، اما نحن فنؤمن بان معجزاته لا يبلغها الاحصاء ، ذلك بان على الحكيم ان يخاطب كل قوم بلغتهم ، وبما تستسيغه عقولهم كي تتم الحجة عليهم ، والا كانت الحجة لهم عليه ، ولا تتم الحجة بحال ، ويستحيل ان تتم الا اذا كانت صحيحة في نفسها ، وواضحة في بيانها واسلوبها كنور الشمس بحيث لا تدع منفذ الاية شبهة في في ذهن المخاطب .. والافان « الحدود تدراً بالشبهات » .. وبحيث يعد المنكر مكابراً ومتعنناً في نظر العقلاء جميعاً . و اشرنا الى ذلك في بعض ما تقدم .

وعلى هذا ينبغي ان تتنوع المعجزة وتختلف باختلاف الموارد و الاشخاص ، كما استدعت حكمته سبحانه ان يباهل نبيه الكريم نصارى نجران .. هذا اذا كان طالب المعجزة يتغيبها بصدق ، و اخلاص ، اما الكاذب المتعنت الذي لا يجدى معه شيء عفيقتصر معه على القرآن ، لان اعجازه عام لا يختص بعصر دون عصر ، ولا بقية دون فئة ، او بفرد دون فرد . والذي يدلنا على ان معجزات الرسول الاعظم (ص) متعددة ومتنوعة

ان رجل الدين فيما مضى كان يستدل على نبوة محمد بما جاءت به الاخبار من تكلم الحصى ، وسعى الشجرة اليه ، ونبع الماء من بين اصابعه ..الى غير ذلك من المعجزات التى انهاها بعد عنهم الى اربعة آلاف واربعمئة واربعين معجزة ، كما فى البحار وكان الناس يتقبلون هذا آنذاك ، اما اليوم حيث يتطلع العالم الى حياة افضل فانا نستدل على نبوة محمد (ص) - فيما نستدل :بانه خاطب العقول وحارب الجهل ؛ وساوى بين الناس ، ووقف مع المستضعفين ، وقاوم الطغاة المترفين ، واخرج بشريعته وتعاليمه العالم من ظلمات التوحش والهمجية الى نور الحضارة و المدنية ، وبفضله نزع رعاة الابل التيجان عن رؤس الجبابرة ، والقوا بها تحت اقدامهم .

وقد تستدعى الحكمة ان لا تعرض المعجزة على الشخص اطلاقا ، كما لو اكتفى بمجرد شعوره واحساسه ، فقد روى الرواة ، وفيهم ابن حنبل والبخارى ومسلم .

«ان رسول الله (ص) بيناهو فى المسجد ان دخل رجل . وقال .ايكم محمد؟ .

فارشده اليه . قال الرجل لمحمد (ص) : انى اسألك فمشدد عليك فى المسألة فلا تجد على فى نفسك .

قال النبى : سل ما بدا لك .

قال الرجل : اسألك بربك ، ورب من قبلك : هل ارسلك الله الى

الناس كلهم ؟ .

النبى : اللهم نعم .

الرجل : انشدك الله : هل الله امرك ان تصلى الصلوات الخمس فى اليوم و
الليلة ؟

النبي : اللهم نعم .

الرجل : انشدك الله : هل امرك ان نصوم هذا الشهر من السنة ؟ .

النبي : اللهم نعم .

الرجل : انشدك الله : هل امرك ان تأخذ الصدقة من اغنيائنا فتقسمها
على فقرائنا ؟ .

النبي : اللهم نعم .

الرجل : آمنت بما جئت به ، وانا رسول قومى اليك ، اناضام بن
ثعلبة اخو بنى سعد بن بكر .

والخلاصة ان معجزات الانبياء على نوعين : خاصة كابرء الاكمه ،
وعامة كالقرآن ، ومعجزات الانبياء السابقين كلها خاصة لاتتعدى زمانها ،
وما لواحد منهم معجزة تشمل وتعم ، امام محمد (ص) فله معجزات خاصة ،
كثيرة ومتنوعة ، وله وحده المعجزة العامة الخالدة ، وهى القرآن ، ويأتى
الكلام عن اعجازه .

اما قول من قال بانه لامعجزة للرسول الاعظم الا القرآن لان غيره
يتنافى مع قانون الطبيعة اما هذا القول فردوا ولا بان اعجاز القرآن يتنافى ايضا
مع طبيعة الانسان ، والا يمكنه ان يأتى بمثله . ثانيا : بان الطبيعة بما فيها
من كائنات ترجع الى اصل واحد ، هو الله ، واردة واحدة ، هى ارادته
التي تقول للشيء : كن فيكون ... وما من كائن على الاطلاق له مع الله

سبحانه ارادة ولا قانون ولا خصائص ؛ ولا اى اثر ، بل ولا وجود ايضا ..وله مع
غير الله وجوده وخصائصه وآثاره ، هذا هو الجواب الحق فيما نعتقد ، وما
عداه اوهام وتكثير كلام .

وتجدر الاشارة الى ان المعجزة ليست من باب العجز فى المقدور ، لا
فى القادر كاجتماع التنفيذين اوارتفاعهما ، وكدخول الجمل فى سم الخياط ،
والالام يكن للمعجزة من موضوع ، وكان الكلام عنها جنون وهراء .
ما هو الدليل على صحة الاسلام :

وجه الى هذا السؤال شيخ افريقى يطلب العلم فى قم .. وفى اللحظة الاولى
لسؤاله تبادر الى ذهنى انه يشعر بمسئولية الدفاع عن دينه ، وانه يرغب الى
ان امدده وازوده بما املك من وسائل الدفاع ، فاجبته ، وانا اشرح هنا وافصل
ما اجملته هناك ، لان الكتابة بعد التفكير والتدبر غير الجواب السريع ،
اجبته وقلت : ان الاسلام هو رسالة محمد بالذات (ص) على انها وحى من الله ،
لا صنع محمد ، واصدق الادلة على هذه الحقيقة هو القرآن الكريم ، وما على
المشكك والمتردد الا ان ينظر اليه بروية وامعان ، فان توافرت فيه خصائص
الوحى من الله فالاسلام حق وصدق ، والا فلا وحى ولا اسلام .

ونحن نسأل من تشكك وارتاب فى نبوة محمد (ص) ورسالته ، اوقفه
وجزم بذلك بالتردد ، نسأله هل انت من الذين ينكرون وجود الله من الاساس
كالمادين ، او من الذين يؤمنون بوجوده ، وينكرون ان يكون لله وحى ،
وللانسان بعث كاصحاب الدين الطبيعى (١) او انت من الذين يؤمنون بالله

(١) هم قوم يؤمنون بخالق الطبيعة ؛ وينكرون البعث والنبوت ، وسموا
انفسهم باصحاب الدين الطبيعى لان ايمانهم بالخالق تفرسه البحوث الطبيعية دون غيرها
من المغيبات .

وكتبه وورسله، ولكن ينكرون نبوة محمد ورسالته بالخصوص كالنصارى . .
فان كنت من النوع الاول فلا يحق لك ان تجادل و تخاصم فى النبوات والكتب
السماوية فضلا عن القرآن ونبوة محمد (ص) ولك كل الحق ان تطالب بالدليل
على وجود الله ، وقد اوضحناه فى فصل سابق بعنوان اثبات الخالق، فان اقتنعت
فذاك، والاقلنا مع نبينا الاكرم «لكم دينكم ولى دين» . وان كنت من النوع
الثانى فنفس الشىء ، ولك ان تطالب بالدليل على وجوب الايمان بكتب الله
ورسله، وقد ذكرناه فى الفصل المتقدم بعنوان النبوة .

وان كنت من النوع الثالث أى تؤمن بالله وكتبه ورسله ، ولكن تنكر
نبوة محمد، وتقول : ان القرآن بشرى، لالهى، ان كنت هكذا سألناك هل
تعتقد بان القرآن من عند محمد وابداعه بالذات ، او تعتقد بان محمداً أخذه
من مخلوق مثله. والفرض الاول ابعد من كل بعيد، لان تفسير أى كتاب وتقييمه
والحكم عليه يجب ان يكون فى ضوء شخصية مؤلفه وظروفه الاجتماعية ،
وماسبقه واحاط به من عوامل تؤثر فى عقله وعاطفته، ومهما كان الانسان
قويا فى شخصيته ، وعبقريا فى مواهبه فيستحيل عليه ان يتحرر من جميع
آثار البيئة التى عاش فيها حتى كانه غريب عنها لان الانسان ابن الارض التى
ولد منها وعاش عليها .

وعليه، فاذا قارنا بين القرآن شكلا ومضمونا ، وبين بيئة محمد و
عواملها تبين معنا ان الفرق بينهما هو عين الفرق بين العلم والجهل ، والظلم
والعدل، والحق والباطل، والهدى والضلال، وقد اشار القرآن الى هذا بقوله :
«هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم
الكتاب والحكمة و ان كانوا من قبل لى ضلال مبين - اول الجمعة» . كانوا

فى ضلال مبين من الشرك وتعدد الالهة ، ولما جاءهم محمد (ص) بالتوحيد عجبوا وقالوا : « هذا ساحر كذاب أجعل الالهة ألها واحداً ان هذا الشئىء عجاب - ٥ ص » .

وكانوا يحللون الربا والزنا والخمر والميسر ، والكذب والغيبة ، والسلب والنهب ، وقتل النفس المحرمة ، كما تنابزوا باللقاب ، وتعصبوا للانساب ، وتفاخروا بالاموال والاولاد وقطعوا الارحام ، ووأدوا البنات خوفاً من العار ، وقتلوا الاولاد خشية الاملاق وجعلوا المرأة فى عداد الحيوانات .. الى آخر الرذائل والبربرية التى حرمها محمد وانكرها اشد الانكار على قومه واهل بلده ولاقى منهم لذلك من الوان الازى ما لم يلقه نبي من قبله .. اذن فاين وجه الشبه بين محمد وبيئته وماهى الافكار التى استوحاها وتأثر بهامن ظروفه ومحيطه . واذا كان محمد بافكاره وميوله انعكاساً لبيئته وتقاليده وقومه فلما ذاجيشوا الجيوش لحربه وقالوا عنه فيما قالوا : ساحر و شاعر ومجنون وكذاب واذا اضفى النبي الصبغة الدينية على دعوته ليستجيب اليه العرب عن هذا الطريق كما قال احد المستشرقين اذا كان هذا صحيحاً فلماذا سفه النبي احلامهم وسب آلهتهم التى يعبدون وآباءهم الذين يقدسون؟ لقد كانت دعوة رسول الله (ص) غريبة لدى العرب .. تفوق عقولهم وتصورهم حتى انهم لم يجدوا لها تفسيراً الا السحر وقال الكافرون للحق لما جاءهم ان هذا الاسحر مبين - ٢٣ سبأ . وعلى الرغم من هذا وغير هذا يكابر اعداء الاسلام وخصومه ويصرون على ان محمداً يرتبط فى رسالته بحياة قومه ايمار تباط على حد تعبير المستشرق الانكليزى «جب» ..

ابدا .. لاعامل من بيئة ' ولاسبب من ذات ، ولاشيى على الاطلاق
الاالوحى من السماء .

وتسأل : ان الاشخاص الذين يقاسون بظروفهم ؛ هم العاديون ؛ او
العابرة غير محمد صاحب الشخصية المبدعة الخلاقة التى تعطى البيئة ولا
تأخذ منها ؛ وتتأثر به ، ولايأثر بها ؟ .

ونجيب اولا : اجل ، ان شخصية رسول الله لاتدانيها اية شخصية
عبقريه ، ولكن العبقريه - مهماسمت - فانها لاتانى ولن تانى بالمعجزات
وخوارق العادات .. فالعبرى الذى لم يدرس فن الطب - مثلا - يستحيل
ان يؤلف كتابا فيه صحيحا وسليما فى جميع اقواله ونظرياته بخاصة اذا كان
فيه كشوف جديدة ... ولوا فترض ان جاءنا بكتاب مثل هذا الجزمنا فى الحال
ومن غير تردد بأن وراءه عالم اقديرافى فن الطب هو الذى وضع هذا الكتاب ،
واعطاه للعبرى ، او العبرى سرقه منه .

وهذى هى الحال بالنسبة لمحمد (ص) ، فلقد جاء بالقرآن ، وفيه
اشياء واشياء لا يمكن ان تكون الامن خالق الكائنات ، كالاخبار بالمفربات
وعجائب الارض و السموات ، وخلق الانسان وغيره من الحيوانات و
الحشرات ، وفيه النظام الكامل الشامل لشمى ميادين الحياة .. الى غير هامن
الحقائق الكونية والانسانية التى يعجز محمد والعلم فى عصره عن معرفة
القليل منها .. اذن ، فلا بد ان تكون تنزيلا من لدن حكيم خبير على قلب
الرسول الامين : «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا
نهدى به من نشاء من عبادنا - ٥٢ الشورى» .

ثانيا : ان للعبرى المبدع علامات تدل عليه ؛ وللثائر المصلح صفات تميزه عن غيره ، والنبي يشارك العبرى والمصلح ، في كل فضيلة ، ما في ذلك ريب ، ولكنه يمتاز بصفات لا يشاركه فيها احد ، ان العبرى او المصلح يستوحى آراءه ومبادئه من الارض ؛ لا من السماء ، يستوحىها من عقله وبيئته ؛ والنبي يتلقى الوحي من السماء ؛ من الله جلّت عظمته ، و الوحي معصوم ، والعقل يخطئ ويصيب ، والبيئة شهوات واهواء ،

وايضا العبرى يبدع في شىء عدون شىء عو لا يبدع في كل شىء عو المصلح يهدف الى ناحية واحدة او اكثر من حياة فئة اوامة في بقعة من الارض ، ولا يهدف الى اصلاح اهل الارض جميعا في كل شىء وفي كل زمان و مكان .

امام محمد فهو رسول الحق والعدل الى الانسانية جمعاء لينقذها من الجحالة والضلالة ، ويحملها على نهج الهداية والنجاة .. واين العبرى و المصلح من هذا اوشبه هذا ؟ .

وبعد ، فان محمدا لا يقال : هو عبرى خلاق ؛ ولا مصلح ثائر ، ولا عظيم خالد .. كلا ، والف كلا ، فما اكثر العباقره والمصلحين والثائرين ! . ان محمدا رحمة مهداة من اله السماء لاهل الارض اجمعين : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » . ورحمة الله سبحانه فوق العبرية والعباقره ، والاصلاح والمصلحين ، وفوق العظمة والعظماء الخالدين ، بل فوق الناس مجتمعين والسموات والارضين ، لانها تتسع لكل شىء عو لا يتسع لها شىء الا قلب محمد ومن سار على طريقته وعمل بمبادئه وسنته .

القرآن والتوراة والانجيل

قدمنا ان الذى يؤمن بالله ورسله ، وينكر نبوة محمد (ص) امان يزعم بان القرآن من محمد بالذات ، واما ان يدعى ان محمدا اخذه من غيره ، وابطلنا الزعم الاول بكلام مفصل ومطول ، ونجيب الان عن الزعم الثانى ، وهو من سموم المبشرين الذين ينفقونها ضد الاسلام والمسلمين ، وتتلخص اقوال المبشرين ضد القرآن بانه: ماخوذ من التوراة والانجيل و من بعض الرهبان والقسيسين ! ..

وقال صهيونى عريق : اثبتت المسيحية من اليهودية ؛ واثبتق الاسلام منهما معا ! . ونجيب .

١ - اثبت التاريخ ان اليهود كانوا اعدى اعداء محمد (ص)، وانهم حاربوه وكادوا له ؛ والبوا عليه العرب ؛ ولم يكفوا عنه الا بقوة السلاح؛ و ايضا جرت بين رسول الله (ص) وبين النصارى بعض الحروب والغزوات كغزوة مؤتة وتبوك ، كما جادله نصارى نجران فى الدين والسيد المسيح ، حدث هذا ، وما نقل ناقل صادق ولا كاذب ان نصرانيا او يهوديا احتج على رسول الله بانه اخذ القرآن من التوراة والانجيل ؛ على ان القرآن ردهذا الوهم قبل ان يتفوه به ناطق ، وذلك حيث تقول الاية ٤٩ من العنكبوت: « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك اذا الارتاب المبطلون بل هو آيات بينات فى صدور الذين اوتوا العلم و ما يجحد باياتنا الا الظالمون » .

اجل ؛ ان كان القرآن قد اخذ بعض الايات من التوراة و الانجيل فهى هذه : « قل يا اهل الكتاب لستم على شىء - ٦٨ المائدة » .. « قل يا اهل

الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل - ٧١ آل عمران » .. « قل يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق - ٧٧ المائدة » .. لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة - ٧٣ المائدة » .. « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم و لعنوا بما قالوا - ٦٤ المائدة » ..

مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله - ٥ الجمعة الى آخر الايات التى نددت باليهود والنصارى ، ونعتهم بالكفر والافتراء على الله ، وتحريف كتبه و قتل رسله ؛ ووصفتهم بكل قبيح .

٢ - ماهو وجه الشبه بين القرآن ؛ وبين التوراة والانجيل ؟ هل هو فى الشكل والمضمون او هما معاً ، اما الشكل والاسلوب فان تلامذة المدرسة الابتدائية لا يعجزون عن تقليد التوراة والانجيل .. ويأتى الحديث عن اسلوب القرآن ، واما وجه الشبه فى المضمون فنتساءل : هل تشبه التوراة والانجيل القرآن الكريم فى تنزيه الله عن الشريك والولد ، اوفى الشريعة واحكامها اوفى الحرص على حقوق المرأة اوفى الاخبار عن المغيبات ، وعن عجائب الارض والسموات .. الى غير ذلك من الحقائق .

هذا ، الى ان القرآن تحدث عن انبياء لا ذكر لهم فى الانجيل و - التوراة لانصريحا ولاتلميحا ، كهود وصالح وذى الكفل ، كما ان فى التوراة انبياء لم يشر اليها القرآن كعاموس وميخا وناحوم وغيرهم ...

وقد شهد علماء الغرب بان المسلمين بفضل القرآن وتعاليمه ملا والشرق والغرب بعلومهم وحضارتهم ، قال «سديو» احد وزراء فرنسا فى

كتابه تاريخ العرب :

كان المسلمون متفردين في العلم والفلسفة والفنون والجميلة وقد نشروها أينما حلت أقدامهم، وتسربت عنهم إلى أوروبا ، فكانوا سببا لنهضتها وارتقائها ، و معلمين للأوربيين و ملقنين لهم النهضة و المدنية . و امثال هذه الشهادة كثيرة وكثير ، ومع هذا يصرا اعداء الاسلام على ان القرآن اخذ من التوراة والانجيل ، وان المسلمين اخذوا الادب من الفرس ، والحكمة من الهند ، والفقه من الرومان ، والفلسفة من اليونان ، وليس لهم فيها كثير ولا قليل ... الى مثل ذلك من العدا و الافتراء .

و آمنت ، وانا اقرا هذه الاكاذيب ، ان افضل وسيلة للمسلم ، اذا احب ان يكون على يقين من دين آباءه و اجداده - ان يقرأ ما يقوله اعداء الاسلام عن الاسلام ...

٣ - ان كل ما يستدعي الشك في القرآن كوحى من الله - لو فرض وجوده - فهو يوجب الشك والريب في التوراة والانجيل بطريق اولي ... وبالمناسبة ان اليهودية سبقها كثير من الانبياء ، منهم نوح و ابراهيم ، وكان في عهد موسى وعيسى ديانات و كهانة وسحرة ... فكل ما يقوله اليهودى والمسيحي في حق القرآن ومحمد يصح للمسلم ان يقوله بالذات في حق التوراة و الانجيل وموسى والمسيح ... بل ويزيد عليه ايضا .

الاسلام والصهيونية والاستعمار :

ولمناسبة ما ذكرناه عن اعداء الاسلام نشير الى ان الصهيونية خصصت جماعة من اصحاب الادمغة للافتراء على الاسلام ، و وجهت لهذه الغاية الصحف الكبرى والاذاعات ، والصور المتحركة ، وعددًا غير قليل من

المؤلفين والممثلين ودور النشر، وتعاونت مع بعثات التبشير المسيحي التي تملك مؤسسات و مراكز تنتشر في انحاء البلاد الاسلامية بخاصة افريقيا، منها ٤٠ مركزا للسويد ، وأكثر من ٥٠٠ للنرويج و ٤٥٠٠ لأمريكا عدا ما لاطاليا وفرنسا وانكلترا.. قال العقاد في كتاب «ما يقال عن الاسلام» «ان الغربيين يعرفون اكاذيب الصهيونيين، وانما يساعدونهم . لان خطر الاسلام عليهم اكبر من خطر الصهيونية ، وما يماثلها من سائر الاخطار» و نقل الشيخ محمد الغزالي في كتابه «معركة الاسلام » عن «لورانس براون» انه قال :لقد كنا نتوجس الخوف من خطر اليهود والخطر الشيوعي ، و الخطر الاصفر . ثم تبين لنا ان اليهود اصدقاؤنا والبلاشفة حلفاؤنا ، اما الخطر الاصفر فهناك دول كبرى تتكفل بالقضاء عليه -يشير بهذا الى الخلاف بين الروس والصين - ان الخطر الحقيقي يكمن في نظام الاسلام، وفي قدرة الدين الاسلامي وحيويته، انه الجدار الوحيد الذي يقف في وجه الاستعمار» .

اعجاز القرآن:

تكلم العلماء كثيراً عن اعجاز القرآن، واطالوا الكلام (١) وحاولوا جاهدين ان يكشفوا عن اسرار هذا الاعجاز ، اوعن بعضها ، وربما خيل الى واحد منهم - على الاقل - انه قد ادرك ما اراد، ولكن هيهات ! ، انى يكون له ذلك. والمفروض ان القرآن ان اعجز العقول والقرائح ، فبالاولى ان يعجز الالسن .

(١) انظر: دلائل الاعجاز للجرجاني عن القدماء ، والمعجزة الخالدة لهبة الدين الشهرستاني من الجدد .

أجل؛ إن العالم يفهم المعنى الذى يتبادر الى ذهنه من لفظ القرآن وظاهره، ويستحيل عليه ان يحيط علماً بجميع معانيه واسرارهِ ؛ وعلومه وانواره. وعلى هذا فاذا تحدث العالم عن اسرار القرآن فانما يتحدث عن اعجاز ما فهمه هو من لفظ القرآن وظاهره، لا عن اعجاز القرآن كما هو فى واقعه.. حتى هذا المعنى الظاهر ينطوى على كثير من الخصائص والاسرار، ولا يعرف العالم منها الا قليلاً.. واذن هو يعبر عن هذا النزر القليل الذى يعلمه.. ومن اراد الاطلاع على هذه الرشحات او المحاولات فليرجع الى ما كتبه الجرجاني والباقلاني وابوعيسى الرمانى ، وغيرهم ممن الفوا فى هذا الباب.. اما نحن فنشير فيما يلى الى سر الاعجاز ومكان التحدى باختصار جامع وسريع .

التحدى :

نحن نقر ونعترف بان الذين كفروا وجحدوا بالقرآن الان وقبل الان كثير ون جداً، ويعدون بالملايين، لا بمئات الالوف، وكيف ننكر هذه الحقيقة ويشهد لها الوجدان والبديهة! . ولكن هذا الاعتراف من المؤمنين يقابله الاعتراف من الكافرين بان القرآن تحداهم - مدى الدهر - على ان يأتوا بمثله، ويدعوا من شاءوا، وما ارادوا .. واذالم نجد نحن ملجأ ولا مفرأ من الاعتراف بوجود من جحد وكفر فان الجاحد الكافر لا ملجأ له ايضاً ولا مفر، الا الاذعان والتسليم بان القرآن تحداهم وما زال، وبان التاريخ ما حفظ محاولة ناجحة لتقليده على كثرة أعدائه، والجاحدين به، وبمن نزل على قلبه . نحن نعترف بوجود هؤلاء الكافرين ، وهم بحكم الحس والبديهة

يعترفون بهذا التحدى . كيف لا . والقرآن يعلن بلسان واضح وصريح :
 « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون
 بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً - ٨٨ الاسراء » . . حتى فصحاء العرب
 وبلغائهم تصدوا للقرآن ، واعترفوا بالعجز عن تقليده ، وقال قائلهم وسيدهم
 الوليد بن المغيرة : ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان اعلاه لمثمر ، وان
 اسفله لمغدق .. وانه ليعلو ولا يعلى عليه .. وقال آخرون . . محمد ساحر و
 شاعر .. وهذا القول اقرار واعتراف بان القرآن يذهل العقول ، ويخرس
 اللسان .

اما سر هذا الاعجاز فلا يكمن في نفس اللغة ، وان سمت وعظمت ، ولا
 في اختيار الكلمات ، وسبكها وتشكيلها ، ووضع كل كلمة في مكانها ، كما
 قيل ، فكم من اديب يتذوق نكهة الكلمة ويضعها في مكانها من شعره او نثره
 ويشكل اسلوبا بالغ الروعة في نعومته وطرأوته .. كلا ، ليس السر في التشكيل
 والتجميل . . بل هناك سرا بعد واعمق .. وهو ذات المتكلم وجلاله وعظمته ..
 ويستحيل الفصل بين الاسلوب ؛ اى اسلوب ، وبين صاحبه باتفاق اهل الخبرة
 والاختصاص ، قال الكاتب العالم الفرنسي بافون : « الاسلوب هو صاحب الاسلوب »
 وقال عارف آخر : ليست الكتابة الا التعبير عن طبيعة الكاتب وطابعه وقال
 خبير ثالث : الاسلوب جزء من صاحبه .

ومن اجل هذا يستحيل على الانس والجن ان يأتوا بمثل هذا القرآن
 او بسورة من مثله ، تماما كما يستحيل ان يأتوا بمثل هذا الكون ، او بجزء
 من مثله .

ونفترض-جدلا- وفرض المحال ليس بمحال، نفترض ان المخلوق يستطيع ان يقلد خالقه ، وخالق الارض والسموات، ولو فى اختيار الكلمات وتشكيل العبارات ، وان فى مقدوره وامكانه ان يأتى بمثل القرآن حلالة وطلاوة-على حد تعبير الوليد بن المغيرة - فهل يستطيع ان يأتى بكتاب تحدث تلاوته فى القلب ما يحدثه كتاب الله من الرهبة والخشوع، ويكون له من الاثار ما للقرآن فى الاخلاق والاداب والتشريع والتاريخ والفلسفة. الى غير ذلك من العلوم والحكم التى فتحت ابواب الجد والعمل للدينا والاخرة، واوجدت امة بعد العدم : وجمعت صفوفها بعد الشتات ، وامتدتها من القوة ما اكتسحت به دولتين عظيمتين تماما كامريكا وروسيا فى هذا العصر واقامت على انقاضهما امبراطورية تمتد شرقا وغربا ، وتملا الدنيا حضارة وعلما ؟ .

هنا يكمن سر الاعجاز فى كتاب الله وهنا مكان التحدى فيه . . وهذا التحدى باق مابقى الدهر .. اذن رسالة محمد باقية مابقى الدهر ، وبدوامها وخلودها انسداد باب الوحي، وختمت النبوات ، والشرائع السماوية .

القرآن يتحدى الطغاة المعاندين

وتسأل: هل الذين اسلموا وآمنوا بمحمد(ص) فى عهده كلهم اوجلمهم آمنوا بسبب تحدى القرآن؟.. ولو صح هذا لكان الاسلام جديرا باسم دين التحديات وعرض العضلات من بين الاديان كلها .

الجواب : كلا . . كيف والاسلام دين الهداية والاخاء؟ على ان الناس اواكثرهم لايهتمون بالتحديات، وبالاخص اذا كان القصد من التحدى

مجرد الايمان والاعتقاد بعظمة المتحدى ولوقام الاسلام على مجرد النحدى لما دخل الناس فيه بالملايين ؛ ولاكان له الآن وقبل الآن عين ولا اثر .. ان التحدى - كما تدل اسباب النزول - قد جاء فى القرآن الكريم لكبح المعاندين ، وافحام المشاكسين ، فان جماعة من عتاة الشرك وطفغانه كابى سفيان وابى جهل قد اغرقوا فى التعت ، وتجاوزوا فى اذى الرسول كل حد ، ولم يرتدعوا بحلم ، ولا باية وسيلة ، فتحدهام القرآن ، ليفتضحوا امام الملا حيث الفضيحة الاولى بهم واجدى ، ولوانهم سكتوا وسكت عنهم القرآن وهذا النوع من الناس موجود فى كل زمان ومكان ، والقرآن يتحدهام اينما كانوا ومتى وجدوا ، و من كف الاذى عن الاسلام و نبيه فهو غير مقصود بالتحدى ، قال تعالى : « وان كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم انتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون - ٤١ يونس . »

اخبار القرآن بالمغيبات:

من اعجاز القرآن اخباره بالمغيبات ، وتحققت كما اخبر .
 « منها » قوله تعالى : « لتدخلن المسجد الحرام انشاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون - ٢٧ الفتح . فدخلوا آمنين وما كانوا يطمعون . »

« و منها » : « هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون - ٣٣ التوبة . وظهر . »
 و « منها » « و عدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها - ٢٠ الفتح . و اخذوها . »

و «منها» «واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم - ٧ الانفال» . و
صارت لهم .

و « منها » : « قل للذين كفروا ستغلبون - ١٢ آل عمران »
وغلبوا .

و « منها » : « غلبت الروم في ادنى الارض وهم من من بعد غلبهم سيفعلون
في بعض سنين - اول الروم » . وغلبوا اعداءهم الفرس في بضع سنين .
و « منها » : « ام يقولون نحن جمع منتصر سيهزمون ويولون الدبر
- ٤٥ القمر » . وهزموا وولوا الدبر .

و « منها » : « ان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من
مثله - الى قوله - فان لم تفعلوا ولن تفعلوا - ٢٣ البقرة » . و ما فعلوا ولا
طمعوا في ان يفعلوا .

و « منها » : آيات كثيرة كشفت اسرار المنافقين ، وما كانوا يقولون
ويبيتون من الكيد والمكر ، كقوله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا
كلمة الكفر - ٧٤ التوبة » ... « سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم - ٩٠
التوبة » الى كثير من الايات التي لا ينطق بها حقاً وصدقا الاعلام الغيوب .
وبعد ، فان ما اشرنا اليه من اعجاز القرآن هو غيض من فيض .. وما كل
الذين آمنوا بمحمد (ص) آمنوا به من اجل المعجزات .. كلا ؛ بل هم على
انواع والتفصيل فيما يلي :

١ - الثقة بالصدق واهله :

آمن كثير من الناس بمحمد (ص) في عهده لمجرد الثقة به وبصدقه

وامانته ، فلقد اشتهر بين قومه بلقب الصادق الامين وتميز عنهم منذ نشأته بالبعد عن كل قبيح كانوا يزاولونه ، وقد اجمع اهل السير والتاريخ ، ومنهم المنصفون من قادة الفكر في الشرق والغرب ، ومن كل دين ، اجمعوا على ان محمدا كان قبل البعثة تماما كما كان بعدها المثل الاعلى لكل فضيلة ، وان عددا غير قليل تأثر بشخصيته وعظمته .

وضربنا مثلا لهؤلاء بقصة ايمان ضمام بن ثعلبة في فقرة «هل لمحمد معجزة غير القرآن ؟» .

وفي كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامي : ان المؤرخ والكتائب الشهير «ولز» الذي ذاعت مؤلفاته الكثيرة وترجمت الى العديد من اللغات - قال : « من الذي يشك ان القوة الخارقة للعادة التي استطاع بها محمد ان يقهر خصومه هي من عند الله ؟ . وقد اجمعوا على ان من انصاع الادلة على صدقه ان المطلعين على جميع اسراره اول من آمن به ؛ ولوارثا بوا في صدقه لما آمنوا .»

٢ - البشارة بمحمد :

ما من نبي من الانبياء - حتى نوح وابراهيم - الا اخذ الله عليه عهدا و ميثاقا ان يبشر بمحمد (ص) وينوه باسمه ، كما تشير الاية ٨١ من آل عمران : « وان اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به » . وقال الامام على (ع) : ما بعث الله نبيا الا اخذ عليه العهد في محمد (ص) وامره ان يأخذ العهد على قومه فيه بان يؤمنوا به ، ويناصروه اذا دركوا زمانه .

واشارت بعض الكتب الموغلة جدافى القدم الى محمد ورسالته ، و
فوق ذلك ذكرت اسم ابى لهب بالحرف ونصبه العداء لرسول الله (ص) . فقد
نقل العقاد فى كتاب العبقريات الاسلامية تحت عنوان الطوالع والنبوات -
عن عبد الحق فى كتاب محمد فى الاسفار الدينية العالمية المطبوع
بالانكليزية ، نقل عنه ما يلى :

« ان اسم الرسول العربى مكتوب بلفظه العربى احمد فى « السامافيدا »
من كتب البراهمة ؛ وقد ورد فى الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء
الثانى مانصه بالحرف : ان احمد تلقى الشريعة من ربه ، و هى مملوءة
بالحكمة .. وان وصف الكعبة ثابت فى كتاب « الانارفايدا » وانه قد جاء فى كتاب
« زندافستا » الذى اشتهر باسم الكتاب المقدس فى المجوسية جاء فيه الاخبار
عن نبي يوصف بانه رحمة للعالمين يدعو الى اله واحد لم يكن له كفوا احد ؛
ويتصدى له عدو يسمى ابولهب » .

وفى القرآن الكريم اكثر من آية تصرح بوضوح ان البشارة بمحمد
(ص) جاءت فى التوراة والانجيل ، وان بعض علماء النصارى واليهود على
يقين من ذلك ، وانهم كتموا الحق حرصا على مكانتهم ؛ وخوفا على جاههم
قال تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه - اى محمدا - كما يعرفون
ابناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون - ١٤٦ البقرة » .

اجل كان هذا العلم موجودا ايام نزول القرآن عند بعض احبار اليهود
رؤساء الكنائس ، والا ما اعلن القرآن ذلك على سمع منهم ، وما سجل
التاريخ عن راوا واحد انهم نفوا وكذبوا ، وكانوا يبحثون عن كل صغيرة و

كبيرة يدينون بها الرسول والقرآن .

اما الفريق الاخر من اهل الكتاب فقد اعلن هذا العلم ودان به ، قال اهل التفسير : « ان عبد الله بن سلام كان من احبار اليهود وكبار علمائهم ، وقد اسلم هو وجماعته على يد رسول الله (ص) وقال فيما قال : انا اعلم بنبوة محمد منى بابنى لانى لاشك فى ان محمدا نبي ؛ اما لى فلعل امه قد خانت.. وكان اسمه الحصين ، فسماه الرسول عبدالله ؛ و فيه نزلت هذه الاية : « وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فأمن واستكبرتم - ١٠ الاحقاف » . وايضا الاية ٤٣ الرعد : « قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم و من عنده علم الكتاب » .

وكان عدى بن حاتم الطائى نصرانيا ، ومن اشد الناس عداوة لرسول الله ثم اسلم على يده طوعا وايمانا بالحق . ومن الايات التى اشارت الى الذين آمنوا من اهل الكتاب الاية ١٥٧ من الاعراف : « الذين يتبعون الرسول الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل » . اى التوراة الحق التى انزلها الله على موسى ، والانجيل الصدق الذى انزله على عيسى ، اما توراة الناس وانجيلهم فمحرقان مزوران . و على رغم التزوير والتحريف فان فى التوراة فقرات تنطبق على محمد والتبشير به ، قال : « ول » فى قصة الحضارة تعريب محمد بدران ج ٢ من المجلد الرابع ص ٢١ مانصه بالحرف : « ويمكن ان تنطبق على محمد ، بعض فقرات تبشيره » . وهذا القائل مسيحى امرىكى واكبر مؤرخ فى هذا العصر .

اهل الكتاب يعترفون بتحريف كتابهم :

وسأل : لماذا تجيزون للمسلم ان ينسب التحريف والتزوير الى التوراة

والانجيل ، وتحجرون على غير المسلم ان ينسب ذلك الى القرآن .

الجواب : نحن مع الدليل اينما كان بسرف النظر عن دين الالباء والاجداد ، واذا درسنا كل واحد من الكتب الثلاثة في ضوء ما احيط به من ظروف وعوامل ، وعلى اساس شكله ومحتواه - تبين معنا الفرق والسبب المانع من قياس الكتابين على القرآن .. من حيث الشكل والمضمون ، ومن حيث العوامل الخارجية .. فان معاني القرآن واسلوبه والعوامل التي احاطت به كلها ، تشهد وتعترف بانه من عند الله ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، اما اسلوب التوراة والانجيل ، وما فيهما من محتويات ومضامين ، واحيط بهما من ظروف وملابسات - فانها تبعث على الاعتقاد بان الله وموسى والسيد المسيح بريئون من هذه التوراة والانجيل ، ومن كتبها وآمن بها . وفيما يلي البيان بما امكن من السرعة والايجاز .

اما الفرق من حيث الظروف والعوامل الخارجية فقد روى الرواة والمؤرخون من كل دين ، وفي كل عصر على انه قد كان للنبي (ص) كتبة للوحي معروفون ، ومنهم باتفاق الجميع - كما في اعجاز القرآن للرافعي - الامام علي بن ابي طالب (ع) وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، فاذا نزلت الاية سجلوها على ورق او جلد او عظم ونحوه ، حتى كتبت آي الذكر الحكيم كلها في عهد الرسول (ص) وبامره ، ولكنها لم تجمع في مصحف واحد ، في حياته (ص) لانه كان يتوقع ان ينزل عليه جديد من الوحي ، وايضا كان عدد غير قليل من الصحابة يحفظون القرآن في عهد الرسول (ص) ، منهم - كما في اول تفسير القرطبي - الخلفاء الاربعة ،

وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وسالم بن أبي حذيفة وعبد الله بن عمرو بن العاص .

ولما انتقل النبي (ص) الى الرفيق الاعلى ، وانقضى عهد الوحي جمع المسلمون القرآن في كتاب واحد في عهد ابي بكر وبمدينة الرسول ، وبعده بلافاصل، ونصوص النسخ كلها واحدة حرفاً وكلمات وترتيباً وسياًفا . .

اجل، حصل بعض الاختلاف في قراءة آيات منه ، وهذا امر طبيعي لخلوه انذاك من النقط والشكل، فحاول عثمان ايام خلافته ان يجمع الناس على قراءة واحدة، واذن فالقرآن ثابت بالنقل المتوافر المتواتر عن محمد بالذات باعتراف الجاحدين لنبوته .

قال هيكل في كتاب حياة محمد (ص) ص ٣١ الطبعة التاسعة: «الذين يزعمون تحريف القرآن من المستشرقين هم قلة بين اشد المستشرقين تعصبا اماكثرتهم فيقرون بان القرآن الذي نتلوه اليوم هو بعينه القرآن الذي تلاه محمد (ص) على المسلمين اثناء حياته لم يحرف ولم يبدل - الى ان قال - وقد أورد المستشرقون كثيراً من التحريف ، ونختار من هذا الكثير الذي قاله المستشرقون ، بعض ما كتبه السير «وليم موير» في كتابه حياة محمد (ص) ليرى الذين اسرفوا على انفسهم وعلى التاريخ شدة ما اسرفوا حتى اطمأنوا الى تحريف القرآن و«موير» مسيحي شديد الحرص على مسيحيتة والدعوة اليها؛ شديد الحرص على ان لا يدع موضعاً لنقد نبي الاسلام وكتابه دون أن يقف عنده ومحاولة دعمه». أى دعم النقد للنبي والقرآن .

ثم نقل هيكل عن «موير» المتعصب صفحات عديدة تشهد أن القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن هذه الصفحات ما نصه بالحرف :

«ان كل مافى القرآن صورة صادقة كاملة لما أوحى به الى محمد (ص) ..
ونستطيع أن نؤكد استناداً الى اقوى الادلة أن كل آية من القرآن دقيقة فى
ضبطها تماماً كما تالها محمد» .

هذه شهادة واضحة نطق بها كبرى يدين بالمسيحية، ويتعصب لها ، و
لكنه درس وحقق ظروف القرآن وكل ما احاط به من ملابسات ، ثم اعلن
نتيجة دراسته وتحقيقه، وهى ان القرآن الذى أوحى به الى رسول الله (ص)
هو هذا الذى عند المسلمين لازيادة فيه ولا نقصان .

وبعد اعتراف جماعة من كبار اليهود والنصارى بان القرآن أخذ من
رسول الله (ص) شكك المحققون منهم وارتابوا فى نسبة التوراة الى موسى ،
ونسبة الانجيل الى عيسى . ذلك بان التوراة التى نزلت على موسى (ع) قد
فقدت من بعده باعتراف اليهود والنصارى انفسهم ، وانه بعد سنين طوال
ادعى من ادعى بانه يحفظها عن ظهر قلب ، وكتب دعواه هذه، وقال لها : كوني
توراة فكانت .

ونفس الشىء حدث للانجيل الاصيل الذى أنزل على عيسى (ع) ،
قال صاحب اظهار الحق ص ٤٢ : ان قسيسا اعترف بضياع الانجيل بسبب
المصائب والفتن التى وقعت على المسيحيين مدة ٣١٣ سنة فالتجأوا فى اثباته
الى الظن والتخمين ..

ومن الطريف ان انجيل السيد المسيح قد اولد بعده اكثر من ١٧٠
انجيلا ، انظر اظهار الحق ص ١٤ . وفى سنة ٣٢٥م اجتمع رؤساء النصارى
واقروا اربعة منها .

و آخر ما قرأته في هذا الموضوع كتابين حديثين : الاول كتاب القاموس المقدس اشترك في وضعه ٢٧ عالما ورئيسا دينيا من المسيحيين وجاء في مادة يوشا من هذا الكتاب مانصه بالحرف : « مما لاشك فيه ان معظم الاسفار المقدسة اُتلف او فقد في عصر الارتداد عن الدين والاضطهاد » وجاء في مادة اسفار : « هناك رأى - اى لاهل الكتاب - يقول : ان الذى اضفى صفة القانون على اسفار العهد القديم هم كتاب الاسفار انفسهم » و هذا اعتراف صريح لا يقبل الشك بان الاسفار لا عين لها ولا اثر، وان هذه الاسفار المتداولة من عند كتبتها .

والكتاب الثانى قصة الحضارة لمؤلفه : «ول ديورانت» فقد جاء في الجزء الثانى من المجلد الاول ترجمة محمد بدران ص ٣٦٧ - ما نصه بالحرف : «كيف كتبت هذه الاسفار ؟ ومتى كتبت ؟ واين كتبت ؟ ذلك سؤال بربرى لاضير منه ، ولكنه سؤال كتب فيه خمسون الف مجلد » و هذا - السؤال البربرى من عالم ومورخ مسيحي اوضح دليل على شكه في مقدسات آباءه واجداده .. ولو كانت تلك الاسفار حقا وصدقا لكان جواب السؤال عنها بسطر اوسطين ؛ تماما كجواب السؤال عن القرآن الكريم ... و مما يمكن فان الخمسين الف مجلد التى ألفت في الجواب قد أكدت شبهة التحريف ، وحولتها الى القطع واليقين بالتزوير والتحريف .

هذا مجمل الفرق والتضاد بين ظروف القرآن التى تشهد بصدقه ، و ظروف التوراة والانجيل التى تنطق بالتحريف والتزوير فيهما .

اما الفرق من حيث الشكل و الاسلوب فلسنا بحاجة الى الكلام

عنه.. وحيداً الوُسجِلَت الفاظ التوراة والانجيل كما سُجِلَت المفردات فى قواميس اللغة.. واما من حيث المحتوى و المضمون فهذا نموذج من محتويات التوراة والانجيل: زنى لوط بابنته ، وزنى داود بزوجة احد اتباعه وقتله ، وعبد هارون العجل مع عبد ، وشرب عيسى الخمر ، و قال فيه قول العاشق الولهان ، وسقاء فى الاعراس للشبان ؛ و تجلّى الله فى صورة انسان ، وحملته مريم فى بطنها ، واولدته كما تلد النساء .. وشكى من ظلم عبده الذين شتموه وضربوه ، ثم صلبوه ودفنوه فى التراب . الى غير ذلك من الاساطير والخرافات.. واطرف من كل طريق ان سفر التثنية من التوراة التى نزلت على موسى بالذات - قالت مانصه بالحرف: «فمات موسى ، ولم يعرف انسان قبره الى اليوم .. هل نزل هذا الخبر على موسى قبل موته او بعده ؟ ومن بلغه الى الكاتب الذى خط التوراة يمينه .

وايضاً حدثتنا الاناجيل عن صلب السيد المسيح ودفنه، ثم عن خروجه من القبر وصعوده الى السماء واختتام حياته على الارض... فهل حديث الصلب والدفن الموجود فى الاناجيل ، هل هذا الحديث وحى من الله ، او هو خبر من بعض الناس ، فان كان وحياً من الله فعلى من اتزله بعد المسيح ؟ وان كان من بعض الناس فكيف دون فى الاناجيل ، ونسب الى الله؟.

وبعد ، فان علماء الاسلام قد وضعوا العديد من الكتب فى تحريف التوراة والانجيل ، منها كتاب الرحلة المدرسية ، و كتاب الهدى الى دين المصطفى للشيخ جواد البلاغى ، وكتاب محمد رسول الله فى بشارات الانبياء لمحمد عبد الغفار ، وكتاب محمد رسول الله هكذا «بشرت الاناجيل» لبشرى

زخارى مخائيل ، وكتاب البشارات والمقارنات للشيخ محمد الصادقى .

كتاب اظهار الحق :

ومن اراد ان يقنع أى انسان بتحريف التوراة والانجيل ، او يفحمه بمعادلة شبه حسابية لا تقبل الشك - فليقرأ كتاب اظهار الحق لرحمة الله الهندى ، فانه يتيم وعظيم فى هذا الموضوع ، يحتوى على مئة دليل حسى على التحريف والتزييف ... ولصاحبه عقل اشبه بالعقل الالكترونى فى حفظ الارقام والاحاطة بها و حفظها ، فهو يعرف كل ما فى اسفار التوراة والانجيل ومتى فقد كتاب موسى ، وكتاب عيسى ؟ وكيف اختفيا من كل مكان؟ وايضا يعرف اول من كتب هذه التوراة المتداولة فى ايدى الناس ، ونسبها كذبا وافتراء الى كريم الله ، واول من كتب هذه الانجيل ، ونسبها الى روح الله ، ومتى كان ذلك؟ وكيف قلمت بالنقصان ، وطعمت بالزيادة مع مرور الزمن ، ثم يقارن بين النسخ اللاحقة والسابقة ، ويبين وجه التهافت والتناقض بينهما بل يعرف زمان الطبع ومكانه ، وعدد اللغات التى ترجم اليها كل من الانجيل والتوراة .

وفوق ذلك احاط علماً بالكتب المؤلفة فى تفسير الكتابين ؛ ونقل عن اقطاب المفسرين : الاعتراف الصريح بتحريف الكثير من آيات التوراة والانجيل ؛ وهو يذكر اسم المفسرين ورقم الاية المحرفة ورقم الصفحة من التفسير وسنة الطبع . الى غير ذلك من التدقيق والتثبت .

ويقع هذا الكتاب المفعم المتخم بالعلم والارقام ، فى جزأين ، ويقول المؤلف فى المقدمة : ان الانكليز بعد ان استعمر والهند حشدوا رجال الكنيسة للرد على الاسلام واهله ، فوضعوا هذه الغاية الكتب والرسائل ، ونشروها فى

كل قطر.. ثم دعاه رئيس الكنائس في الهند للمناظرة علنا ؛ فاستجاب الشيخ
رحمة الله ، وانهقد مجلس المناظرة في بلدة اكبر آباد بمحفل عام في شهر
رجب سنة ١٢٧٠ هـ ، وتقرر أن تكون المناظرة في خمسة موضوعات : هي
تحريف التوراة والانجيل ، ونسخ الشرائع ، وعقيدة التثليث ، وحقيقة القرآن
ونبوة محمد (ص) ولما ظهرت الغلبة للمؤلف في مسألة التحريف والنسخ
احجم رئيس الكنائس عن المناظرة ، وسد بابها ، وولى هاربا .

ثم الفرحمة الله في الموضوعات الخمسة كتاب اظهار الحق ، وقال في
آخره : ابتدأت به في ١٦ رجب سنة ١٢٨٠ هـ ، وانتهيت منه في آخر ذي الحجة
من السنة نفسها.. وقد طبع الكتاب سنة ١٣٠٥ هـ ، وهو نادر الوجود الا في
بعض المكاتب القديمة ، واتمنى لو طبع ثانية طبعة حديثة على ان يجعل
للموضوعات عناوين بارزة ، ولكل مسألة فقرة خاصة مع جملة في رأس السطر
بالحرف الاسود تشير اليها ، وايضا مع الفواصل ، ورؤس الاسطر .

٣-الفتح

اشرفنا فيما سبق الى ان الذين آمنوا برسول الله على انواع ، وذكرنا
منهم نوعين : نوع آمن به لمجرد الثقة بصدقه ، وآخر لورود البشارة به في
التوراة والانجيل ، واضطرنا حديث البشارة الى الكلام عن التحريف واوجزنا
بقدر الامكان ، ونعود الان الى الموضوع ، ونذكر في هذه الفقرة النوع الثالث
وهو ان الله سبحانه بعد ان فتح على نبيه الكريم ، ونصره على عمارة اليهود
والمشركين ، و امتلات قلوبهم منه رعبا - دخل الناس في دين الله قبائل
وافرادا كما جاء في سورة النصر ، لان كثير منهم كانوا ينتظرون في اسلامهم

فتح مكة ، ولما فتحها الله على نبيه عظم امر الاسلام ، وانتشر في الجزيرة العربية كلها .

٤ - ايمان العقل والوعى

ابتدأ محمد (ص) دعوته بقوله ايها الناس قولوا: لا اله الا الله تفلحوا . .
هو الذى خلقكم من نفس واحدة.. ان اكرمكم عند الله اتقاكم.. ان الله بالناس لرؤف رحيم . . ولكنه لا يحب الظالمين والمفسدين . . ويحب المتقين والمحسنين .

هذه امثلة مما قاله محمد (ص) للناس عن ربه وربهم . . وقال لهم عن نفسه: انما انا بشر، مثلكم يوحى الى انما الهكم واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين.. فمن ير جولا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احداً.. ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكمة والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله .

هذا هو اصل الدعوة الالهية المحمدية : الايمان بالله وحده الذى يحب المتقين، ويكره المعتدين ، والايمان برسوله ، وهو واحد من الناس وبشر مثلهم كما نطقت الآية ١٢٨ من التوبة : «لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم» . هذا هو أصل الدعوة المحمدية، وعليه تتفرع جميع مبادئ الاسلام واحكامه.. واذا لم يأت الانبياء بهذا الدين فبأى شىء يأتون. وهل ابسطوا وضوح، وانقى واصفى من هذا .

وجاء فى كتاب «لماذا اخترنا الدين الاسلامى»: ان «ليون روش» الفرنسى قال فى كتابه «ثلاثون عاما فى الاسلام»: وجدت الاسلام افضل

دين عرفته .. انه انساني يجمع المحامد والفضائل ولوانه وجد رجلا يعلمونه
الناس حق التعليم ، ويفسرونه تمام التفسير لكان المسلمون اليوم ارقى
العالمين ، واسبقهم في كل الميادين ومعنى قوله هذا ، ان الاسلام تركن اليه
النفوس ، وقره العقل ، وان الناس يجهلون حقيقته واهد افه . حتى
المسلمين .. وانه لو اتيح له من بينه للناس على حقيقته ، وببشر به كما بشر
بالمسيحية لظهر على الدين كله ، وآمن به اكثر من في الارض ، وعاشوا في
أمن ورخاء.. ويؤيد هذا الفهم للإسلام قول الرسول الاعظم (ص) : « المؤمن
القوى خير من المؤمن الضعيف » وليس من شك ان كل انسان يود ان يكون
قويا ، لضعيفا ، لانه بالقوة يعمل ويبني ، و بها يحيا وينمو .

وآمن كثيرون بمحمد (ص) في عهده ، واخلصوا لدعوته ، آمنوا بها
وبه عن عقل وعلم ، وقناعة ودراية ؛ لالمحاكاة والتقليد ، ولالمجرد الثقة
بصدقه وامانته ، اولجأه وسلطانه.. و من هؤلاء النجاشي ملك الحبشة ،
ومعه كثيرون من الرهبان والقسيسين ، وغيرهم من المسيحيين ؛ وحديثه
مع جعفر بن ابي طالب مشهور ومدون في كتب السيرة والتاريخ ،

اسلام على واسلام ابي بكر

و اول من آمن برسالة محمد (ص) عن هدى وبصيرة هو علي بن ابي-
طالب (ع) . قال محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد في ص ١٤٠ الطبعة
التاسعة - مانصه بالحرف : « دعا محمد (ص) ابن عمه عليا الى عبادة الله وحده
لا شريك له ، والى دينه الذي بعث به نبيه .. فاستمهل علي ابن عمه محمدا
حتى يشاور اياه ، ثم قضى ليله مضطربا حتى اذا اصبح اعلن لرسول الله و

خديجة انه يتبع دين محمد من غير حاجة الى رأى ابي طالب ، وقال على :
لقد خلقني الله من غير ان يشاور ابا طالب ، فما حاجتي انا الى مشاورته
لا عبد الله ..

وبعد ان نطق هيكل بهذه الحقيقة اخذه عرق من تربته ؛ و انسجم
مع بيئته ، وقال : «وكذلك كان على اول صبي اسلم» .

ان عليا سبق ابا بكر الى الاسلام باتفاق الكل ، وسبقه ابو بكر الى
الخلافة ، فقال من آمن بالله ورسوله : كيف تقدم ابو بكر على اول القوم
اسلاما و اقدمهم بالله ايمانا ؛ والله يقول : «والسابقون السابقون اولئك المقربون
١١ - الواقعة» ؟ و حارفي الجواب من تنكر للحق واهله .. واخيرا اسعفته
الفريضة على اللف والدوران ، فتلاعب بالالفاظ ، وقال : « اول من اسلم
من النساء خديجة ، ومن الصبيان على ، ومن الرجال ابو بكر » .

اجل ، ان ابا بكر كان رجلا حين اسلم ، مافى ذلك ريب ، و ايضا
كان رجلا كبيرا ، وهو يعبد الاصنام .. و لكنه لم يكن ذاعقل نير ينهيه و
يردعه عن عبادة الاحجار كعقل ورقة بن نوفل ، و عثمان بن الحويرث ،
وزيد بن عمرو ، وغيرهم من الحنفاء الذين تمردوا على عصرهم الجاهلي ، و
ادركوا بفطرتهم الصافية ان عبادة الاصنام جهالة وضلالة .. ان اسلام ابي بكر
لم يكن عن عقل ووعى ، بل لمجرد صداقته مع رسول الله ، وثقته بصدقه ،
كما قال هيكل في نفس الصفحة من الكتاب السالف الذكر ؛ و هذى هي
عبارته بالحرف : « وكان ابو بكر بن ابي قحافة التيمي صديقا حميما لمحمد
يستريح اليه ، ويعرف فيه النزاهة والصدق .. ولم يتردد ابو بكر في اجابة

اما ايمان على فهو ايمان العقل والعلم الذى اعلنه بقوله: « لقد خلقنى الله من غير ان يشاور ابا طالب ، فما حاجتى انا الى مشاورته لا عبد الله ؟ » و ليست هذه وحدها من هفوات هيكل ، فقد ذكر فى الطبعة الاولى حديث « ان النبى (ص) عندما نزلت هذه الاية «وانذر عشيرتك الاقربين» جمع بنى عبد المطلب ، وقال لهم : قد امرنى الله ان ادعوكم اليه ؛ فايكم يؤازرنى على هذا الامر على ان يكون اخى ووصيى وخليفتى فيكم ، فاسمعوا له واطيعوا » ذكر هيكل هذا فى الطبعة الاولى ، ثم حذفه فى الثانية ، لانه قبض خمس مائة جنيه ثم نال هذا التحريف .. والعهد على ذمة ناقل الرشوة .

الاسلام والقائلون بالحق

اسلم الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ، وآمنوا بدعوة محمد (ص) فى عهده ، وفى كل زمان ومكان ، وتنباؤ كثير من قادة الفكر فى هذا العصر بان الاسلام هو دين المستقبل مهما طال الامد ، و عللوا ذلك بان العالم يتجه الى العلم واستغلاله لخير الانسان و صالحه ، والاسلام هو الدين الذى يوجه العلم لهذه الغاية .

قال تilstوى الفيلسوف الروسى الشهير : «ان الشريعة الاسلامية ستعم البسيطة كلها ، لانها تأتلف مع العقل والحكمة والعدل» .

وقال الكاتب الفرنسى «هنرى» فى كتاب الاسلام : ان السبب الوحيد لانتشار الاسلام بسرعة تشبه خرق العادة هو بساطة هذا الدين ، وسهولة

تعاليمه ، وخلوه من الخرافات ، ومن كل ما يصعب على العقل قبوله .

وقال الفيلسوف الشهير واديب القرن العشرين برنادشو الانكليزي:

«ان الاسلام دين المستقبل، ولا بد ان تعتنق الامبراطورية الانكليزية النظم الاسلامية.. ولو بعث محمد في هذا العصر لحل المشكلات العالمية ، وفاد العالم الى السعادة والسلام ، فما حوج العالم الى رجل كمحمد» (كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامي) .

وهذا العظيم يمثل اسمى ما وصلت اليه الثقافة في هذا العصر، وقد نطق بهذه الحقيقة ، وهو يعنيهها ويؤكددها ؛ لانها نتيجة حتمية لدراسة طويلة وعميقة، وثمره يانة لتفكير صاف وسليم .. لقد تطلع هذا الفيلسوف الى الوقت الذي يصبح فيه كل الناس مسلمين ، لانهم يتطلعون بفطرتهم الى الامن والرخاء ، والعدل والمساواة ، ولا تتحقق هذه الامنية للناس كافة الا اذا آمنوا بالعدالة والاخوة الانسانية ، ودخلوا في السلم كافة على هذا الاساس وهذي هي دعوة محمد ولاجلها بعث .

لقد ادرك برنادشو الكثير من خصائص محمد (ص) التي استحق بها ان يختاره الله لرسالته ، وايضا ادرك ان العصر الذي نعيش فيه تماما كعصر الجاهلية الجاهلاء فسادا وتناحرا ، وان اختلف الشكل والمظهر ، وانفذ محمد الناس من جاهليتهم الاولى ، فينقذهم من توافرت فيه خصائصه من الثانية .. واذا لم يكن محمد (ص) في هذا العصر بشخصه فانه موجود بسنته وشريعته، وقد آمن بها كثير من العلماء وقادة الفكر المنصفون بعد الدراسة والتمحيص ، وفيما يلي نذكر امثلة من هؤلاء الذين يعدون بالعشرات .

من الذين آمنوا:

اكتب هذه الفقرة ، ولدى من مصادرها كتاب التكامل لاحمد أمين العراقي ، وكتاب مايقال عن الاسلام للعقاد ، وثالث كتاب محمد والقرآن لكاظم آل نوح، ورابع كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامى للرضوى ، وفي هذه الكتب الاربعة عدد غير قليل من الذين آمنوا بان رسالة محمد (ص) الهية ، لابشرية ، وكلهم من اهل المعرفة وحملة الشهادات العالية ، و فيهم الانكليزى والفرنسى والالمانى والامريكى والدنمركى و الايطالى والهولندى والبلغارى .

قال اللورد «هيدلى» البريطانى : اعتنقت الاسلام نتيجة لبحث سنوات عديدة .. ان الاوربيين ينظرون الى الاسلام كانه وحشية و همجية مع ان كل اعمال محمد كانت لازالة التوحش والهمجية ، ولكن المبشرين المسيحيين لا يدخرون وسعا لتحريف الاسلام ، وهذا هو الكذب الذى يخزيهم .

وقال الدكتور «بنوه» الفرنسى : تصفحت القرآن لانتقده ، فاذا بى اؤمن به واقده .

وقال «دولاند» الامريكى : اسلمت بعد ان قرأت القرآن وشيئا من سيرة محمد (ص) فرأيت ان الجانب الانسانى يتجلى فى كل وصية من وصايا الاسلام .

وقال الدكتور «ماركوس» الالمانى بعد ان اسلم : عقيدة التوحيد قدسية ، وتعاليمها منزهة عن الخرافات ، وتهدف الى تأسيس حرية جماعية

عامة . (انظر صور هؤلاء الاقطاب الاربعة فى كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامى للسيد الرضى) .

وجاء فى كتاب «ما يقال عن الاسلام» للعقاد بعنوان الاسلام والنظم الا-
جتماعية : نحمد صنيع الكاتب الفاضل الاستاذ : « ليوجولد فايس»
النمساوى .. لقد دان بالاسلام منذ خمس و ثلاثين سنة ، وتسمى باسم
«محمداسد» ، ودافع عن الاسلام ، ودأب منذ اسلامه على تصحيح اخطاء
الاوربيين .. والف فى الموضوعات الاسلامية كتاب الاسلام على مفترق
الطرق ، وكتاب اصول الفقه الاسلامى ، وكتاب الطريق الى مكة ، وكتاب
مبادئ الدولة والحكومة فى الاسلام .

وبهذه المناسبة نشير الى ان الكتب التى الفها غير المسلمين فى عظمة
الاسلام - كثيرة ، منها كتاب الاسلام والعصر الحديث للدكتورة الالمانية «الس
ليختستادترو كتاب الاسلام والجماعة المتحدة» ، للاستاذ هوتن جوهرى عميد قسم
الدراسات العربية بجامعة ادنبرة (انظر ما يقال عن الاسلام للعقاد) وكتاب حياة
محمد لوليم ميود ، ايضا كتاب حياة محمد لثبورت اسمت (انظر كتاب لما
ذا اخترنا الدين الاسلامى؟ للرضوى) . و كتاب اقوال محمد لتنلى ليسن
بول ، وكتاب اشعة خاصة بنور الاسلام (انظر كتاب محمد والقرآن لكازم
آل نوح) .

محمد خاتم النبیین

وتسأل : قال سبحانه فى الاية ٤٠ من الاحزاب : «ما كان محمدا با
احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبیین » . وقد فهمنا ان محمدا نبى

ولكن لماذا خاتم النبيين ؟ .

الجواب : ان الغاية من بعثة الانبياء هي ان يبلغ النبي قول الله الى عباده فيما يحتاجون اليه من امر دينهم ودنياهم ، وای مبدأ من المبادئ التي يحتاج اليها الانسان في هذا العصر وغيره . - غير موجود في كتاب الله و سنة نبيه ، وهل من شيء اصدق في الدلالة على ان الاسلام هو دين الحياة في شتى مراحلها من اسلام من اسلم عن بصيرة في هذا العصر ؟ .

قال سبحانه : « ما فرطنا في الكتاب من شيء ع-٣٨ الانعام » . و قال الرسول الاعظم (ص) : ما من شيء يقربكم الى الله الاوامر تكمل به ؛ وما من شيء يبعدكم عن الله الا انه يتكم عنه .

وقال ايضا : ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فاحسنه الاموضع لبنة ، فجعل الناس يطوفون به ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ . فاننا اللبنة ، وانا خاتم النبيين .

و قلنا في ما ألفنا : ان محمدا ودين محمد قد استوفيا جميع صفات الكمال ، وبلغا الغاية منها والنهاية ؛ تماما كما بلغت الشمس الحد الاعلى من النور ؛ فلا كوكب ولا كهرباء يمتلي الكون بنورهما بعد كوكب الشمس .. كذلك لانبي يأتي بجديد لخير الانسانية بعد محمد .

العصمة نوعان :

معنى العصمة : التنزيه عن الخطأ و الخطيئة وهي نوعان : الاول العصمة في تبليغ الوحي عن الله سبحانه ، أي ان المعصوم لا يخطئ فيه لاجهالا ولا نسيانا ، ولا يعتمد الكذب اطلاقا ، وهذه العصمة تجب حتما لمن

اصطفاه الله لابلاغ رثته والاستحالة ثبوت الوحي بحال من الاحوال حيث لا وسيلة لاثباته الا عصمة المبلغ .

وتسأل : هل هذا النوع من العصمة يكون بالقدرة والاختيار ، او بالجبر والقسر ؟

الجواب :

اما نحن فلانرى مانعا من العقل ان تكون العصمة في التبليغ بالقسر لا بالاختيار ، ودليلنا على ذلك :

اولا : انها في تبليغ الاحكام عن الله ، لافي امتثالها .

ثانيا : ان النبي في هذه الحال هو لسان الله وبيانه . ولسانه تعالى يستحيل عليه الخطأ .

ثالثا : ان ظاهر القرآن يدل على ذلك ، قال تعالى في سورة الاعلى مخاطبا نبيه الكريم : « سنقرئك فلا تنسى » ودلاء هنا للنفي و الاخبار ، لا للنهي والانشاء ، لان المعنى نحن نقرئك القرآن يا محمد ، و نحفظه في قلبك وعلى لسانك بكامله بحيث لا تنسى منه حرفا واحدا ؛ و الى هذا يومىء قوله تعالى : « ان علينا جمعه وقرآنه - ١٧ القيامة » وقوله : « نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون - ٩ الحجر »

النوع الثانى : العصمة في امتثال الاحكام بحيث يفعل المعصوم الواجب مع قدرته على تركه ، ولا يفعل المحرم مع قدرته على فعله... ابدأ لا يفعل هذا ، ولا يترك ذلك ، لاعمدوا لاجهال ولاسهوا . وهذه العصمة ممكنة ، بل هي ثابتة لاهلها ، ما في ذلك ريب .

ابن هو المعصوم:

وتسأل: قد يوجد انسان يعرف حدود الله وحلاله وحرامه ، ويلزم بها نفسه، ولا يعتمد المعصية في قول او فعل، ولا يقصر في فريضة بل ولا في سنة . . ولكن هل يوجد انسان واحد يستحيل في حقه الخطأ بما هو انسان بحيث لا يخفى عليه مكر ولا خديعة ، ولا يجوز عليه سهو ولا نسيان .. كيف وهو ابن الارض والطبيعة.. حتى سيد الانبياء (ص) قال: « انما انا بشر مثلكم يوحى الى - ٦ فصلت « ونحن نؤمن بعصمته في التبليغ، اما في غيره فهو كما وصف نفسه، وان قال قائل : ان العصمة بالطبيعة او بالقسر قلنا له : اذن لافضل بها ولا اجر عليها .

الجواب:

ان الانسان بما هو انسان ليس بمعصوم، وايضا لا تأتية العصمة بالكسب والعمل، كما هي شأن العدالة ، ومن هنا . . . فقط سبحانه التكليف عن الجاهل والناسي مع التحفظ وعدم التقصير.. وايضا لا تكون العصمة في امتثال الحلال والحرام بالجبر والالقاء، حيث لاطاعة ولا امتثال الامع القدرة والارادة ، ولكن ليس معنى هذا انه لا وسيلة عند الله سبحانه الى العصمة في الامتثال الا الجبر والاكراه .. كلاهما كطريق آخر اليها عنده تعالى ، وقد اشار اليه بقوله: وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم - ٢٩ الحديد . واليك البيان :

وبقصد التوضيح نمهد بهذا المثال : لك صديق وحبيب تحرص كثيراً على مصلحته حتى كأن شيئاً لو اصابه قد اصابك بالذات . . ورأيتهم يهتم بامر ظنه خيراً له وصلاحاً ، وانت تعلم علم اليقين أنه شر وفساد ، وهو يثق بعلمك و

نصحك، فتطلعه على الحقيقة ، وهو بدوره يحجم ويمتنع بارادته واختياره بمجرد الاشارة منك ، فيكون لك وهذى هي الحال، فضيلة الاخلاص والنصيحة وله ايضا فضيلة الاستماع اليها، والعمل بها .

والله سبحانه أمر عباده ونهاهم ، ووعد الطائع منهم بالثواب ، وتوعد العاصي بالعقاب، ثم ترك كل امرئ وما يختاره لنفسه، ولا يتدخل في شؤنه عند الطاعة او المعصية، ولكنه يعذر المخطيء اذا هو احتاط ولم يقصر . . هذا شأنه، جلت حكمته، مع جميع عباده الامع المعصوم فانه يشمل به عنايته ويمده بارادة التسديد لا التكوين، فاذا اوشك ان ينسى او ينخدع نبهه سبحانه بطريق اوبأخر، وكشف له عن الواقع، فينتبه المعصوم ويمتنع مختاراً لا ملجأ .

وقد حدث هذا مع الانبياء اكثر من مرة ، من ذلك ما جاء في السبب الموجب لنزول هذه الاية : ومن يرتكب اثماً ويرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً واثماً مبيناً ولو لا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم ان يضلوك وما يضلون الا انفسهم - ١١٢ النساء قال المفسرون : ان رجلاً من المسلمين سرق متاعاً، ورمى به بريئاً ، فناصرت السارق طائفة من الصحابة ، وحاولوا جاهدين ان يخدعوا رسول الله (ص) في براءة السارق ، وكاد الرسول ان ينخدع ويثق بما اظهروه من الصلاح ، وبما اقساموا من الايمان فاطلعه الله على كذبهم ومكرهم . فعامل الرسول الاعظم (ص) كلابما يستحق .

وهكذا سبحانه يسدد المعصوم، ويمده بارادة لاهي بالتكوين فينتفي الفضل والاجر، ولا بالتشريع فيستوى المعصوم وغير المعصوم، بل بين بين... ونحن

على هذا الفهم والرأى حتى يثبت العكس ، وبهذه الارادة أى ارادة التسديد
لا التكوين أو التشريع - نفس ارادته تعالى فى آية التطهير: انما يريد الله
ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً ٣٣ - الاحزاب) .

لقد اراد سبحانه للنبي وآله التطهير والتنزيه عن الخطأ والخطيئة ،
اراد ذلك بالنص الصريح فى هذه الاية التى لا تقبل التأويل بوجه . . ولكن
من أى نوع هى الارادة الالهية؟ هل هى من نوع التشريع ، واذن فلامبرر
للتخصيص باهل البيت (ع)، او من التكوين ، واذن فلا فضيلة لهم ماداموا .
ولا تصور نوعاً ثالثاً لارادته تعالى الارادة التسديد والتأديب ، واليها اشار
النبي (ص) بقوله: « ادبنى ربي فاحسن تأديبي » ولنا ان نفس هذا التأديب الرباني
بقول امير المؤمنين (ع) : « لقد قرن الله نبيه محمداً (ص) من لدن ان كان
فطيماً اعظم ملك من مازنكته يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن اخلاق العالم
ليله ونهاره . ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر امه ، يرفع لى فى كل يوم من
اخلاقه علماً ويأمر نى بالاعتدائه » .

وبعد ، فهل من دليل على الارادة الثالثة أصرح واقوى من هذا الدليل

الشيعة والعصمة

والشيعة اول من ادرك أن العصمة يحتملها وجوب العمل بالوحي ،
وقرروها باساليب شتى . واستدلوا عليها بمنطق العقل وبداهته . وعنهم اخذ
السنة فكرة العصمة كما قال الدكتور احمد شلبى - من السنة - استأذن التاريخ
الاسلامى والحضارة الاسلامية بجامعة القاهرة ، فقد جاء فى الجزء الثالث
من كتابه مقارنة الاديان طبعة ١٩٦٧ - مانصه بالحرف « الشيعة يشبهون عصمة

الانبياء والائمة ايضاً، ويرون ان الرسول لو لم يكن معصوماً من الزلزل لقلت الثقة به، ولانتفت فائدة البعثة.. والعجب ان قول الشيعة بعصمة الانبياء تسرب الى اهل السنة؛ واصبح رأى جمهور المسلمين».

ومع هذا يقول صاحب الخطوط العريضة بكل جهل وصلافة : ان الشيعة ينفون . العصمة عن الانبياء وبناء على افتراءه هذا حمل عليهم باضاليه وابطاليه ، وتجاهل قول الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد : «من العسير اقامة الدليل العقلى ، او اصابة دليل شرعى يقطع بما ذهب اليه الجمهور» اى من وجوب العصمة للانبياء .

وبعد ، فان النبى بشر بطبعه وطابعه ، وقد غالى وتجاوز الحد من قال : « ان محمدا (ص) هو الحقيقة التى خلق الله منها الوجود ، والروح التى سرت فى جميع الكائنات علويها وسفليها ، كلا ، لافرق بين محمد سيد الانبياء ، وغيره من البشر الا فى الجهات التالية :

١ - انه قد ارتفع الى اعلى مراتب الانسانية كمالات ، بحيث لو تجاوزها قيد شعره لكان ألهاً او نصف اله .

٢ - يوحى اليه .

٣ - ان الله قد لطف به كما لطف بجميع الانبياء ، فقر بهم من كل فضيلة ؛ وابعدهم عن كل رذيلة ، لطف بهم ، لافى بيان الاحكام فقط ، بل فى اقوالهم وافعالهم ، ومن اجل هذا كان قول النبى وفعله وتقريره دليلاً على الحق .

ومن المفيد ان نختم هذا الفصل بما قلناه في المجلد الاول من تفسير الكاشف ص ١٩٨ : ان فكرة العصمة لا تختص بالشيعية وحدهم ؛ فان السنة قالوا بها ، ولكنهم جعلوها ايضا للامة ، لالائمة ، مستندين الى حديث لم يثبت عند الشيعة ، وهو : « لا تجتمع امتى على ضلالة » .. و المسيحيون قالوا بعصمة البابا ، والشيوعيون بعصمة ماركس ولينين ، وقال القوميون السوريون بعصمة أنطون سعادة ، والاخوان المسلمين بعصمة حسن البنا ، وكثير من البعثيين بعصمة عفلق ، وكل من استدل بقول انسان ، واتخذ منه حجة ودليلا على الحق فقد قال بعصمته شعر بذلك ام لم يشعر .

وفي الصين مئات الملايين اليوم تؤمن بعصمة ماوتسى تنغ ، واذا اختلف الشيوعيون فيما بينهم ، وكذلك غيرهم ممن ذكرنا فانهم يختلفون في تفسير اقوال الرؤساء والقادة ، لافي وجوب العمل بها ، تماما كما يختلف المسلمون في تفسير نصوص القرآن ، والمسيحيون في تفسير الانجيل .

فلسفة الفلاسفة

اصول الدين

«ما يجب بلا شرط ، وما يجب مع الشرط»

هذا الفصل :

هذا الفصل هام جدا ، وعليه تركز مباحث هذا الكتاب ، وكان من حقه ان يكون الاول في الترتيب ، ووضعناه هنا عن قصد ، لانه بمباحث الولاية اليق والصق ، وعلى اية حال ، فالمقصود الاول من البحث امران : الاول : بيان ما يجب على المسلم ان يلتزم به كاصل و ركن من اصول الدين والعقيدة بحيث يكون مسؤولا عنه امام الله ، ولا يعذر فيه ان قصر واهمل .

الثاني : تحديد الطريق الى معرفة هذا الاصل ، وما يتفرع على ذلك من صحة التقليد ؛ وحكم العاجز عن المعرفة والغافل .
بساطة العقيدة ووضوحها :

وعقيدة الاسلام في منتهى الوضوح والبساطة ، لانه دين الفطرة التي لا تشوبها شائبة من دنس البيئة والتربية ، فاصل الاصول فيه هو التوحيد ، وأى عاقل يأبى الايمان باله لاشريك له ولا نظير ؛ وانه الحليم الكريم ، والغفور الرحيم ، والقادر العليم ؟ .

اما الايمان بمحمد (ص) فهو ايمان بالدليل الصادق الناطق بحلال الله وحرامه .. ومن اجل هذه البساطة ، وهذا الوضوح اسلم من طلب الحق لوجه الحق في هذا العصر ، واشرنا الى بعضهم في فصل محمد والقرآن ، وايضا شهد كثيرون من قادة الفكر الاجانب بان الاسلام هو دين الحياة في كل زمان ومكان ، ونقلنا طرفا من اقوالهم في الفصل المذكور .

اصول الدين على نوعين :

يعترف للشيخ الانصارى بالسبق والاستئذنة في الغوص وبعد النظر - كل من تأخر عنه من اهل الفضل والاجتهاد ، وعلى كتابيه في الفقه و اصوله مدار الدرس والمذاكرات .. عليه الرحمة والرضوان .. وان كان لا يرحم طالبا ولا استاذا في تعبيره واسلوبه .

فقد انتب عشرات الالاف ، واجهد عقولهم ، واسهر عيونهم حتى الصباح في تفسير معانى الكلمات وطلاسمها .. ومرة ثانية عليه رحمة الله ورضوانه .

قال هذا الشيخ العظيم في كتابه المعروف بالرسائل ما توضحه :
ان اصول الدين على نوعين :

الاول: ما يجب البحث والنظر مقدمة لمعرفة ، وتمهيد للتدين و الالتزام به ، ويسمى هذا النوع في عرف الفقهاء والاصوليين بالواجب المطلق ؛ اي ان العلم به شرط لوجوده ، لا لوجوبه تماما كالطهارة بالنسبة الى الصلاة - مثلا - من تنبه الى الخالق وشك في وجوده فعليه ان ينظر ويبحث ، ولا يجوز له ان يهمل ويقول : ان علمت بطريق او آخر ان الله

وجود آمنت واذنمت ، والافماعلى من سبيل ! ..بلعليه ان يسعى ، ولا يدخر شيئامن جهده وطاقته .

النوع الثانى : لايجب تحصيل العلم بهمع انه فى الواقع من اصول الدين ، ولكن لايجب التدين به ، ولا تتم به الحجة الابعدا لاطلاع عليه ، اى ان العلم به شرط لوجوبه ، لا لوجوده فقط ، فمتى علم به المكلف باى طريق من الطرق وجب عليه ان يلتزم ويدعن ، و الا فلا يجب السعى وبذل الجهد لتحصيل العلم تماما كما لا استطاعة بالنسبة الى الحج ؛ و يسمى هذا النوع بالواجب المشروط .

وزاد الاشتيانى تلميذا الشيخ الانصارى قسما ثالثا فى حاشيته الكبرى على رسائل استاذة ، وقال ما نصه بالحرف : «ان هنا قسما ثالثا لايجب التدين به ولو بعد العلم بثبوته عن النبى (ص) واخباره به على سبيل الجزم واليقين ، وان كان انكاره بعد العلم بثبوته عن النبى (ص) موجبا للكفر من حيث رجوعه الى انكار النبوة وتكذيب النبى (ص) فان تكذيبه ولو فى الاخبار العادية موجب للكفر قطعا ، وهو ما يرجع الى امور واقعية لاتعلق لها بالدين مثل بيان مبدأ خلق السماء والارض - الى ان قال - لا يقال : لاعمى لهذا التقسيم لان كل ما بينه النبى (ص) يكون من الدين لامحالة ، والالم بينه... لانا نقول : هذا غلط واضح ، و خلط ظاهر ، فان الرسول (ص) قد يخبر عن الشئى عن حيث كونه شارعا ومبلغا عن الله تعالى ومأمورا بتبليغه الى العباد ، وقد يخبر عن الشئى لا من هذه الحيثية ، بل من حيث كونه عالما بالغيب بافاضة الله سبحانه ، ومن المعلوم ان هذا لا يرجع الى الاخبار عن الامر الدينى ..»

(انظر صفحة ٢٧٦) .

وقد تنبه الشيخ الانصارى لهذا النوع ؛ و اشار اليه بقوله : «نعم ظهر في الشريعة امور، صارت ضرورية الثبوت من النبى (ص) ، فيعتبر في الاسلام عدم انكارها» . تنبه الانصارى الى هذا النوع ، ولكن لا يعتبره قسما لاصول الدين التى يجب التدين ببعضها من غير شرط ، وبالبعض الاخر مع الشرط ، وغاية الامر يحرم انكاره ؛ وبديهة ان حرمة الانكار اعم من وجوب التدين ، وجواز الوقوف على الحياد بلا انكار ولا اقرار .

وعلى اية حال ، سنتحدث فيما يلى عن كل واحد من هذه الانواع الثلاثة فى فقرة على حدة .

١ - ما يجب التدين به من غير شرط :

الاصول الاولى التى يبنى عليها الاسلام ، وعنهما تنفرع سائر الاصول ، وكل الفروع ، وتجب مطلقا وبلا شرط العلم بها هى التوحيد ، ونبوة محمد (ص) والمعاد روحا وجسما .

اما الامامة : فقال الخوارج : ما هى من اصول الدين ولا من فروعها فى شىء على ما نسب اليهم - وقال السنة : هى من الفروع ، لا من الاصول ، وان وجوبها كفاية لا عينيا ، اذا قام به البعض سقط وجوبها عن الكل .. ولا ادرى كيف يجتمع قول السنة هذا مع قول من قال منهم بكفر الشيعة لانهم ينكرون خلافة الشيخين . (١) وهل انكار الفرع يستدعى الكفر حتى ولو كان من ضرورات المذهب ، لا من ضرورات الدين ؟ .

واتفق الشيعة على ان الامامة اصل ، واختلفوا فيما بينهم : هل هى

(١) انظر : آخر الصواعق المحرقة لابن حجر .

من اصول الدين، او من اصول المذهب وضروراته ، وان الاعمال تصح بدونها ،
 ويسقط التكليف عن منكرها اذا قام بما عليه من عبادات ، ولكنه لا يستحق
 الثواب من اجلها - كما عليه جماعة- ونحن نعتقد بانه لا يسوغ لغير المعصوم
 ان يتحدث عن ثواب الآخرة وعذابها الامع النص القاطع سنداً واهمناً . اللهم
 الارجاء الترغيب والترهيب.. وعلى آية حال، فان لحديث الامامة والولاية
 العديد من الشعب ، ويأتى الكلام عن الكثير منها .

وبعد ان ذكر الشيخ الانصارى بعض الروايات ، عن اهل البيت (ع)
 كدليل على ان الاصول الاولى للاسلام هي التوحيد والنبوة والامامة - قال :
 «تدل هذه الروايات على عدم اعتبار ما زاد.. وهذا هو الظاهر من جماعة من
 علمائنا الاخيار» وعلق الاشتياني على ذلك بقوله : «لأشكال فى عدم اعتبار
 الزائد عما ذكره فى الايمان» .

وتسأل: لقد ثبت فى الحديث: من قال: لا اله الا الله محمد رسول الله دخل
 الجنة. وأذن، فمن اين جاءت الزيادة على الاقرار بالشهادتين ؟

الجواب: اولاً لقد كان هذا عند بدء الاسلام وظهوره، قال الامام الباقر (ع)
 بعث الله محمداً (ص) وهو بمكة عشرين سنين ، ولا احد فى هذه المدة يشهد
 ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله الا دخله الله الجنة .

(ملاحظة) اقام النبى بمكة ١٣ سنة بعد البعثة، ولعل مراد الامام (ع) انه
 فى السنوات الثلاث الاخيره كان لا يطلب من المسلم اكثر من الاقرار بالشهادتين
 او ان الناقل سهى عن كلمة ثلاث .

ثانياً: ان المراد بدخول الجنة ان من اقر بالشهادتين لا يدخل فى النار ،

بل يعذب بقدر ما يستحق - ان كان قد اذنب - ثم يدخل الجنة .

ثالثاً: ان الاقرار بالشهادتين يتضمن الاقرار بكل ما جاء به محمد (ص) ولوعلى سبيل الاجمال .

رابعاً: لا فائل من المسلمين بان مجرد الاقرار كاف في الاسلام حتى مع انكار البعث .

٢ - ما يجب التدين به على شرط :

لكل اصل من الاصول الاولى شعب تتفرع عليه، فمن الشعب او المسائل التي فرعها العلماء، على اصل التوحيد رؤية الله تعالى ، وهل : هي ممكنة بذاتها او ممتنعة ومسألة صفاته تعالى، وهل: هي عين ذاته، او غيرها . وهل : افعال العباد مخلوقة لله. وهل: اللوح المحفوظ هو لوح كاسمه ، او هو كناية عن علمه تعالى. وهل: الله ان يعفو عن المسيء بعد التهديد والوعيد وهل القرآن حادث، او قديم؟. وهل نزل الوحي نجوماً، او دفعة واحدة؟.. الخ .

وفرعوا على نبوة محمد (ص) انه هل: كان يعلم الغيب؟ وهل : فوض الله اليه امر التشريع ؟. وهل: اسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى بالجسد، او بالروح ؟ الخ.

وفرعوا على الامامة هل : الائمة المعصومون افضل ، او انبياء ما عداً محمداً . وهل كانت الملائكة تحدثهم . وهل فاطمة افضل، ام مريم بنت عمران ! . الخ .

وفرعوا على المعاد اشياء واشياء ، كالبرزخ ، وحساب القبر ، وحشر الحيوانات، وكيفية النفخ في الصور، ودقة الصراط وحدته، وكيفية نشر الصحف

وشجرة طوبى والزقوم، وتعذيب ابن الزنا واطفال الكفار... الخ .

كل هذه الشعب ونحوها لا يجب تحصيل العلم من اجل الايمان بها ،
وان كانت من اصول الدين او شئونها؛ بل اذا اتفق وحصل العلم بها وجب الاذعان
والافلا، على العكس من الاصول الاولى التى يجب تحصيل العلم للتدين بها
والايمان .

والخلاصة ان الاعتقاد بالتوحيد، ونبوة محمد (ص) والمعاد الجسماني
وامامة الائمة الاثنى عشر- على قول الشيعة- يجب مطلقاً ومن غير قيد ،
والعلم شرط لوجود هذا الاعتقاد، لا لوجوبه ، وما عدا ذلك فالعلم لوجوبه
لا لوجوده، وعلى من جهل ان يحجم عن القول بغير علم نفيا واثباتا ، قال الامام
الصادق (ع) «لو أن العباد اذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا لم يكفروا» .

وتسأل : ان الاعتقاد من صفات القلب، لا ارادة فيه للانسان ، ولا خيار ،
وعليه يكون التكليف به تكليفا بما لا يطاق ، فكيف تعلق الامر به .

الجواب : اجل؛ ان الاعتقاد والايمان من حيث هو فوق القدرة
والاستطاعة ؛ سواء اُتعلق بوجود الله ، ام بغيره ، ولكن الانسان يستطيعه
ويقدر عليه من حيث مقدماته وايجاد اسبابه ، وايضاً يقدر عليه من حيث
اظهاره وآثاره ، والايمان مطلوب بهذين الاعتبارين ، فمعنى آمنوا بالله
ورسوله اطيعوا الله ورسوله ؛ ومعنى لا تكفروا لا تترتبوا آثار الكفر فى قول
او فعل ، ومن كان فى شك فليبحث وينظر الى حجج الله وبيناته التى تؤدى
بطبعها الى الايمان والاعتقاد .

سؤال ثان اوحى به الجواب عن السؤال السابق ، و هو : لقد علمنا ان

للايمان بالله ورسوله واليوم الآخر - اعظم الاثر ، حيث يبعثنا على التقوى والعمل الصالح ، اما الايمان بان الله لا يرى بالبصر ، وان القرآن حادث ؛ وان لنا اماما مستورا ، اما هذا الايمان ونحوه فلا اثر له يحس ويلمس .. ان المهم هو طاعة الله ، لا جواز رؤيته ، او عدم جوازها ؛ وايضا المهم العمل بالقرآن ، لا الايمان بحدوثه ، او قدمه ، والانتفاع بالامام ، لا مجرد الاعتقاد بوجوده ؟ .

الجواب : ان الحق احق ان يقال ، والاعتراف به فضيلة للمعترف وتعظيم وتكريم للحق واهله ، وانكاره قبيح في نظر العقلاء وای اثر اظهر من ذلك ووضح ؟ ..

ان قول الحق حسن بذاته ، حتى ولو لم ينتفع به القائل والمعترف ، و الاجاز ان تتجاهل الانبياء والعظماء الاموات منهم والاحياء الامع المنفعة ، وان نترك الشهادة بالحق الا اذا جرت الينا نفعا ، او دفعت عناضرا ، مع ان العكس هو الصحيح .. ولو اخذنا بمبدأ المنفعة بالشهادة لانسد باب القضاء وعمت الفوضى ، وضاعت الحقوق على اهلها .. ودفعنا لهذه المفساد وغيرها يجب علينا ان نقر بالحق ، ونعلمه اينما كان و يكون ، ولا يجوز جحوده و انكاره بحال ، ومن ذلك الاعتراف : بان الله لا يرى ، و بحدوث القرآن ، ووجود الامام المستور .. على ان الايمان بوجود هذا الامام ليس باعجب واغرب من الايمان بنبوة نوح وهود و صالح ؛ وغيزهم من الانبياء الذين عفى الدهر على آثارهم ، واكد و شرب ، و يأتي الحديث عن ذلك انشاء الله .

وبعد ؛ فان للحق بما هو حق قدسيته وجلاله ، ومن تنكر له في اي مورد من موارد صغر مكانه من نفسه ؛ واجترأ عليه اينما كان ويكون ، و في ذاك ضلال وفساد عظيم .

٣- ما يحرم انكاره فقط:

هذا النوع لاصلته باصول الدين ولا بفروعه ، ولا هو من الاخلاق ، او الامر بالمعروف ، ولا يسأل عنه الانسان غدا ، ويحاسب على الجهل به ، لانه مجرد اخبار عن موضوع خارجي ، كالاخبار عن عمر الارض واصلها ، وطولها وعرضها ، وما فوقها وما تحتها ، وعدد من عاش عليها من قبل ومن بعد ، واذا لم يكن هذا النوع من الدين في شيء فكيف يجب التدين به ؟ ، اجل ، اذا اخبر المعصوم عنه حرم الرد عليه والاعتراض ، لانه تكذيب له ، وليس من شك ان تكذيب اهل العصمة كفر والحاد .

طريق المعرفة الى اصول الدين:

قال الرسول الاعظم (ص): « اصل ديني العقل » وقال الامام الصادق (ع): من كان عاقلا كان له دين ، وقال كبير من علماء الامامية ، وهو المحقق القمي : العقل حجة الله على عباده .. ولا نعرف ديننا اشد بالعقل والعلم كما اشاد بهما الاسلام ، فلقد تتبع بعض العلماء آي الذكر الحكيم ، فوجد فيها لكلمة العقل ومشتقاتها ومرادفاتها ٨٠ كلمة ، ولكلمة العلم كذلك ٨٨٠... وليس معنى هذا ان العقل يدرك ويستقل بمعرفة الاسلام عقيدة وشريعة ، ولا يفوته شيء من اصوله وفروعه ، والا كان وجود الاسلام تحصيلا للحاصل ، وتوضيحا للواضح ، بل معناه ان الاسلام والعقل على وفاق تام في جميع

مبادئه و كلياته و جزئياته ، ولا يتنكر لشيء منها على الإطلاق .

اجل ، ان العقل يدلنا بمعونة الحواس على وجود الله تعالى ، حيث لا طريق الى معرفة الله سوى ذلك ؛ والادار او تسلسل على حد التعبير المشهور ، وسبق الكلام عن ذلك في فصل اثبات الخالق . وايضا العقل وحده يستقل في اثبات فكرة النبوة من حيث هي ، وانه لامحالة من ان يكون لله انبياء ورسول الى خلقه ، كما تقدم في فصل النبوة ، اما الطريق الى معرفة النبي وتعيينه باسمه وشخصه كـ محمد وعيسى وموسى فهو العقل ، ولكن بضميمة النظر الى المعجزة وظهورها على يده بالذات ، وتحدثنا عن ذلك في فصل محمد والقرآن . وايضا يحكم العقل بامكان المعاد ، والحساب والجزاء بعد الموت ، اما وجوب الوقوع فيؤخذ من النقل ؛ بل ومن العقل ايضا ؛ ولكن بلحاظ العدالة الالهية ، لان ترك الظالم دون ان يقتص منه للمظلوم هو الظلم بعينه ، ويأتى البيان في فلسفة المعاد انشاء الله ، اما الامامة فهي تماما كالنبوة ، و الفرق ان تعيين النبي بشخصه يكون بالمعجزة ، وتعيين الامام يكون بالنص من الله ، او المعصوم .

هذا بالنسبة الى اصول الدين الاساسية التي اشرنا اليها في الفقرة الاولى ، والتي يجب التدين بها مطلقا وعلى كل حال ، واما الشعب التي اشرنا الى بعضها في الفقرة الثانية ، ولا يجب التدين بها الا بعد العلم ، اما هذه فيثبت بعضها بالعقل كما امتناع رؤية الله ، وكون الانسان مسيرا ، لا مخيرا ، وكعصمة الانبياء ، وبعضها الاخر يثبت بالضرورة الدينية او المذهبية نصا كان سببها ام اجماعا ام اى شى ؟ . ولكن التمييز بين ما هو ضرورى وغير

ضرورى صعب مستصعب. قال صاحب القوانين : اختلف العلماء فى ضرورات الدين ، يحكم احدهم بان هذا الشيء من ضرورات الدين ، ويحكم الاخر بان عدمه من ضرورات الدين .

وايضا يثبت بعض الاصول بالنقل ، شريطة ان يكون قطعى السند و الدلالة كبعض آيات القرآن الكريم ، وبعض الاخبار المتواترة والخبر المحفوف بالقرينة القطعية على صدوره من المعصوم ، على ان يكون قطعى الدلالة ايضا .

وتسأل. لقد ثبت بالدليل القاطع ان الظن الذى يستند الى ظواهر الكتاب والسنة ، والى الخبر الواحد هو حجة تاما كالعلم ، وبناء على هذا يجوز لنا ان نثبت الاصول والعقائد بالخبر الواحد وان كان ظنى السند ، و بظواهر الكتاب والسنة المتواترة ، وان كانت ظنية الدلالة ، وشرطا لقطع سندا ودلالة لادليل عليه ، بل قام الدليل على عدمه .

الجواب : ايضا ثبت بالدليل القاطع ان التدين يجب ان يعتمد على العلم واليقين ، ولا يجوز التعويل فيها على الظن ايا كان مصدره . قال الشيخ الانصارى فى الرسائل :

« ظاهر كلمات كثير من العلماء انه لا يجوز العمل بظواهر الكتاب والخبر المتواتر فى اصول الدين ؛ ولعل الوجه فى ذلك ان وجوب التدين بهذه الاصول انما هو من آثار العلم » . وقال الاشتياني : « ان اكثر الايات و الاخبار الامرة بالعمل بالعلم ، الناهية عن الظن تختص باصول الدين ، ومثله فى بعض الكتب المعتمدة .

وعليه يجب ان نخضع الدليل على جواز العمل بالظن الخاص ، و هو الناشئ من الخبر الواحد ، و بعض الايات و السنة المتواترة ، ان نخضع هذا الدليل بالمسائل الفرعية العملية دون اصول الدين العقائدية

التقليد في اصول الدين :

قال اكثر العلماء : لا يجوز التقليد في اصول الدين . وقال اهل التحقيق : يجوز . ومن هؤلاء الاردبيلي والانصارى والمحقق الطوسى ، ونحن معهم ، سواء كان المقلد قادرا على تحصيل المعرفة ، ام عاجزا عنها ، لان المطلوب الاول هو التدين والاعتقاد الجازم بالواقع على ما هو عليه من اى طريق سلكت اليه ، والمعرفة بالدليل وسيلة ، لا غاية ، ووجوبها مقدمة لوجود غيرها ، ومتى وجد ذو المقدمة سقط بطبيعة الحال وجوب المقدمة .

هذا ، الى ان سيرة العلماء منذ القديم - ومنهم القائلون بعدم جواز التقليد - قائمة على معاملة المقلدين في اصول الدين معاملة المسلمين ، بل وعدالة من اتقى وعمل صالحا . وقد اشبعنا هذا الموضوع بحثا و تفصيلا في المجلد الاول من التفسير الكاشف عند تفسير الاية ١٧٠ من البقرة ، فقرة التقليد واصول الدين ، وذكرنا للمقلد ٦ اقسام ، و قلنا في آخر البحث ما يلى :

« ان العبرة في اصول العقائد هي الايمان الصحيح المطابق للواقع ، ومن اجل هذا قبل النبي (ص) اسلام كل من آمن به ، وما طلب الاجتهاد منه واستعمال النظر .. اما الايات التى وردت في ذم اتباع الابهاء فان سياقها يدل

على ان المراد منها التقليد فى الباطل والضلال ، لافى الحق والهداية ، و تتجلى هذه الحقيقة لكل من امعن الفكر فى قوله تعالى: « اولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم » . وقوله: « واذ قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » . وقوله: « اولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » . فان المفهوم من هذه الايات ان آباءهم اذا كانوا على الهدى الذى نزل على الرسول جازا اتباعهم ، لان المطلوب هو اتباع ما انزل الله ، فاذا تبعوه فقد امتثلوا واطاعوا ، ولا يسألون بعد الطاعة عن شيء » .

الشاك فى اصول الدين:

من شك فى دين آباءه واجداده فلا يخلو ان يكون واحدا من

ثلاثة

١ - ان يعجز عن البحث والسؤال ، كما لو عاش فى الصحراء ، او بلد ناء عن الاسلام والمسلمين ، واهله لا يهتمون الا بالدنيا و اشياؤها ، و ليس من شك ان هذا معذور من حيث الحساب والعقاب ؛ ولا فرق فى ذلك بين ان يكون ابواه مسلمين ، ام كافرين . وفى رسائل الانصارى عن الشيخ الطوسى انه قال : « العاجز عن تحصيل العلم بمنزلة البهائم » .. ولكن لا نرتب عليه آثام الاسلام اذا لم يقر باصول الدين ، و يظهر النطق بالشهادتين .

٢ - ان يقدر على السؤال والبحث ، وتهيأ له اسباب المعرفة ، وهذا يجب عليه ان يبحث ؛ ويبذل الجهد لتحصيل المعرفة حتى يشعر بالعجز ،

و عندئذ يعمل بما توصل اليه من العلم ، فان كان محققا ذاك ، و الا فهو معذور .

وان اهمل البحث ولم يكثرث ، ومع هذا لم ينطق بالشهادتين فهو كافر ظاهرا وواقعا . قيل للامام الصادق (ع) : ما تقول فيمن شك بالله ! قال : كافر . قيل فشك في رسول الله (ص) ؟ . قال : كافر .

٣ - قدر على اسباب المعرفة ؛ ولكنه اهمل ولم يبحث ، ومع هذا اقر باصول الاسلام و اعلن الشهادتين ، و هذا يعامل في الدنيا معاملة المسلمين ، وفي الآخرة حكمه الى الله ، ونقلنا عن الامام (ع) انه قال : « لو ان الناس اذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا ولم يكفروا » . وقال الشيخ الا- نصارى : « تدل هذه الرواية بظاهرها ان المقر ظاهرا الشاك باطنا الغير مظهر لشكه - غير كافر » .

الغافل واصول الدين :

اكثر الناس ينشأون على دين الاباء والاجداد ، ويطمئنون اليه ؛ ولا يشكون فيه على الاطلاق ، ويعتقدون انه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وان كل ما عدا مهراء وضلال ، ولا يختص هذا بالعوام - كما يظن - بل عليه العديد من العلماء واصحاب الكتب والمؤلفات .. و منهم من يقول ايضا بحرمة التقليد في اصول الدين ، ووجوب البحث والنظر لمعرفة العلم وادلتها .

وليس من شك ان الغافل الذاهل غير مكلف ولا مسؤول عما غفل عنه وذهل حتى ولو كان المحقق الاول ، لان التكليف مع الغفلة تكليف بغير

المقدور ؛ وقد اطال المحقق القمى الكلام عن ذلك فى كتاب القوانين ،
ونذكر من اقواله بعض المقتطفات مع التصرف فى الاسلوب فقط بقصد التوضيح
والتيسير على الافهام ؛ قال عليه الرحمة والرضوان :

ان الله عادل وحكيم ورؤف رحيم ؛ وعليه اذا افترض ان انساناً
منذ طفولته على دين الاباء والاجداد ، واستمر على ذلك حتى الموت دون
ان يلتفت الى ان التقليد يصرف عن الحق ؛ ولا خطر له هذا على بال ؛ اذا كان
الامر على ذلك فبأية وسيلة يتحرر من التقليد ؟ .. ان التحرر من هذا التقليد
صعب وعسير حتى العلماء المرئيين الذين يحسبون انهم خلعوا من اعناقهم
اغلال التبعية والمحاكاة .. كيف والمفروض انهم لا يحتملون الخطأ
بحال ؟ . وأى انسان بلغ به الامر الى هذا الحد فهو بحكم البهائم والمجانين ..
ابدا . لا يتجه اليه امر ولا نهى ، ولا حساب ولا عتاب ؛ سواء كان مسلماً ؛ ام
غير مسلم .

واليك عبارة القمى بحروفها لتكون على يقين مما اراد : « هذا
الكلام لا يتفاوت فيه الحال بين الموافق والمخالف ؛ والمسلم والكافر
على ما تقتضيه قواعد عدليه .. والقول بتعذيب الكفار والمخالفين دون
المسلمين خروج عن العدل - الى ان قال - : وان كان اطمئنان الغافل من
جهة حسن ظنه بآيئه وامه من غير فرق بين ما صادف الواقع وعدمه فى عدم العقاب ،
ويشهد لقول هذا المحقق (العقل الحاكم الجازم بان الله لا يكلف نفساً الا
وسعها . وايضاً يشهد له النقل ؛ وهو قوله تعالى : « ومن يشاق الرسول من بعدما
تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت

مصيـرا - ١١٥ النساء ، و معنى هـذا ان من اتبع سبيل الكافرين و الضالين عن جهل وقصور فان الله سبحانه لا يوليه ما تولى اى لا يكله الى من اعتمد عليه ؛ و اخذ منه الكفر والضلال ؛ ولا يصليه نار جهنم و بئس - المصير .

ثم قدم صاحب القوانين هذا المثال او هذا السؤال : ما قولك و حكمك فيمن نشأ بين قوم يكرهون الشيعة بالغ الكره واشده ؛ ولا يسمع من علمائه ورؤساء دينه الاتكفيرهم ، والاحاديث الموضوعة ، وتكذيب او تأويل كل حديث اخذ به الشيعة بما يتفق مع اهواء خصوصهم واعدائهم ! . ما ظنك بمن نشأ على ذلك ، ولم يحتمل ان الحق على غير ما سمع . وما هو المبرر لحسابه وعذابه ؟ (انظر المجلد الثانى من القوانين من صفحة ١٦٦ الى صفحة ١٧٣ طبعة عبدالرحيم) وابلغ حجة قيلت في هذا الباب ماروى عن الامام الصادق (ع) : « ان امر الله كله عجيب الا انه قد احتج عليكم بما قد عرفكم من نفسه . » وعلى هذا يقع الوزر على السبب الاول الذى اضل الناس عن الحق و اهله وسن بغض الشيعة لالشيء الا لانهم يقدمون اهل بيت النبى (ص) على غيرهم عملا بآيات الله واحاديث رسول الله .

وتسأل : هل يسقط التكليف بالواقع من الاساس بالنسبة الى الذاهل عن اصول العقائد ، او ان التكليف بالواقع ثابت لا ريب فيه ، ولكنه لم يصل الى مرحلة التنجيز التى يجب ان يتبعها العمل والامثال بالافصل ، كما هى الحال بالنسبة الى الغافل عن الصلاة مثلا - واستمرت غفلته حتى مضى الوقت . الجواب : فرق بين اصول الدين وفروعه ، لان التكليف فى الاولى يتعلق بالايمان والاعتقاد ، لا بالافعال ، وفى الثانية يتعلق التكليف بالافعال

كالصلاة ونحوها ، وليس من شك ان الافعال يمكن قضاء واستدراك مافات منها كمافات ، وعليه يصح التكليف بها من حيث هي ، وبصرف النظر عما يعرض للمكلف من الموانع والطوارئ عن الامتثال والطاعة ، فاذا عرض له مانع من غير تقصير كان معذوراً ، ومتى زال المانع وجب القضاء والاستدراك ، اما الايمان والاعتقاد فلا يتصور بحال القضاء فيه ، وبالأولى ان لا يتصور قضاء مقدماته التي تؤدي الى تحصيله .. ومن الذي يقدر على ايجاد الفرع مع العجز عن الاصل كما هو الفرض ؟ وبكلمة ان للفرع بدلاً ، ولذا وجب انشاء أعلى الاطلاق وتنجيز أعم الالتفات ، اما الاصل فلا بد له ، واذن ، فاية جدوى من انشاء وجوبه حين الغفلة ؟ .

سؤال ثان: اذا كان غير المسلم معذوراً عند الله مع الغفلة والذهول فلماذا لا نعذره نحن كما عذره الله سبحانه ، ولانعامله معاملة غير الكافر . لماذا نحكم بنجاسته ونحرمه من الارث والمناكحة ، ونحو ذلك من الاحكام التي تجري على المسلمين . وهل يجب ان نكون بانبيين اكثر من العدالة الربانية !

الجواب : ان الفرق بين احكام الدنيا ، واحكام الآخرة تماماً كالفرق بين الدنيا والآخرة ، ان الاحكام في حياتنا تتبع الاسماء ، وان الآثار تلحق الظاهر ، لا الواقع ، فمن قال : لا اله الا الله محمد رسول اخذنا بظاهره ، اما في الآخرة فلا اسماء ولا ظواهر .. ابداً لاشيء الا الواقع .. ومن اجل هذا قد نعامل واحداً من الناس معاملة المسلم ، وماله في الآخرة الا النار والخسران وقد نعامل آخر معاملة الكافر ، وهو من عذاب الآخرة في أمن وأمان . وبكلام آخر كل من نطق بالشهادتين فله مال للمسلمين ، وعليه ما عليهم كائنا من كان في حقيقته وواقعه ، ومن لم ينطق بهما فحكمه غير حكم المسلم في الحياة الدنيا .

من هم اهل البيت؟

ليس الغرض من هذا الفصل ان نبين مكانة اهل البيت وعظمتهم عند الله سبحانه، بل غرضنا اولا بالذات أن نعرف من هم المقصودون بهذه الكلمة ؟ والذي انتهينا اليه بعد التتبع والتأمل ان المقصودين عرفاً بكلمة اهل بيت النبي (ص) هم اسرته وعشيرته الاقربون، فلقد دُئِب الناس منذ القديم والى يومهم هذا ان يستعملوا كلمة اهل البيت في هذا المعنى . . اجل ، ان الائمة الاطهار اشهر واكمل المصاديق. اما المقصودون شرعاً من هذه الكلمة فهم فاطمة والائمة الاطهار ؛ ودليلنا على ذلك آية التطهير ٣٣ الاحزاب، وحديث الثقلين؛ اما آية التطهير فانها تعنى عليا وفاطمة والحسن والحسين بدليل آية المباهلة ٦١ آل عمران، واغرب ما قرأت في التناقضات أن بعض السنة يقولون: ان المراد من «نساءنا» فاطمة لا ازواج النبي (ص) وفي الوقت نفسه يقولون: آية التطهير ٣٣ من الاحزاب نزلت في نساء النبي.. فاي وجه الجمع نستدل بهذا، وبما جاء في سبب نزول آية التطهير في كتب الحديث والمناقب والتفسير، وهوانها قد نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين.

ومن كتب الحديث التي اثبتت ذلك صحيح مسلم والترمذي، ومستدرك الصحيحين، ومسندا احمد؛ وخصائص النسائي، والرياض النضرة، وكنز العمال، ومسنداي داود؛ والاستيعاب، واسد الغابة؛ ومشكل الآثار، ومجمع الزوائد،

ذكر هذه الكتب الفيروز آبادى فى كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة .
واما كتب التفسير فمنها الدر المنثور للسيوطى عند تفسيره «وأمر اهلك
بالصلاة» وتفسير الطبرى والاندلسى والحافظ وغيرهم كثير حتى ابن تيمية
فى كتاب المنتقى .

وقال صاحب المنار عند تفسير قوله تعالى: «ويحيى وعيسى والياس كل
من الصالحين - ٨٦ الانعام» . قال مانصه بالحرف الواحد : «اقول فى الباب
حديث ابى بكر عند البخارى مرفوعا : ان ابنى هذا سيد يعنى الحسن ولفظ
ابنى لا يجرى عند العرب على اولاد البنات، وحديث عمر فى كتاب معرفة
الصحابه لابى نعيم مرفوعا: وكل ولد آدم فان عصبتهم لا يبيهم خلا اولاد فاطمة
فانى انا ابوهم وعصبتهم. وقد جرى الناس على هذا، فيقولون فى اولاد فاطمة
اولاد رسول الله (ص) وابناؤه وعترته واهل بيته» .

ومعنى هذا القول من صاحب المنار ان ولد فاطمة ليسوا ابناء رسول الله
لغة، ولكنهم ابناؤه شرعاً لقوله (ص): «انا ابوهم وعصبتهم» : وايضا هم ابناء
رسول الله عرفا لان طريقة الناس جرت على القول : ان اولاد فاطمة هم اولاد
رسول الله وابناؤه وعترته واهل بيته .

هذا هو المراد بكلمة اهل البيت فى آية التطهير، اما المقصودون بها
فى حديث الثقلين فهم - على ما فهمناه من المساواة بينهم وبين القرآن فى
وجوب التمسك - فاطمة والائمة الاثنا عشر الذين اشار اليهم النبى (ص)
بقوله: «ان هذا الامر لا ينفضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة، كلهم من
قريش» .

رواه مسلم في صحيحه كتاب الامارة ، والترمذى ج ٢ ص ٣٥ طبعة ١٢٩٢هـ ، والبخارى كتاب الاحكام، ومستدرك الصحيحين ج ٤ ص ٥٠١ طبعة ١٣٢٤هـ ، ومسنند احمد ج ٥ ص ٨٦ طبعة ١٣١٣هـ ، وكنز العمال ج ٦ ص ٢٠١ طبعة ١٣١٢هـ ، كما في كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة .

هذا حديث الاثمة ١٢ ، اما حديث الثقلين فقد جاء في صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل على بن ابي طالب ، وفي الترمذى ج ٢ ص ٣٠٨ ومستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٠٩ ، ومسنند احمد ج ٣ ص ١٧ ؛ وحلية الاولياء ج ٩ ص ٦٤ طبعة ١٣٥١هـ ؛ وكنز العمال ج ١ ص ٩٦ ، ومجمع الزوائد للهيتمي ج ٩ ص ١٦٤ طبعة ١٣٥٢هـ ، والصواعق المحرقة ص ٧٥ طبعة ١٣١٢هـ ايضا كما في كتاب فضائل الخمسة .

وبهذا يتبين معنا ان السنة والشيعة متفقون على ان الخلافة لا بد منها ، وانها في قريش دون غيرهم ، وان عدد الاثمة اثنا عشر اماما ، ولكن السنة يختلفون مع الشيعة في امرين : الاول في حصر الخلافة بالهاشميين ، وبصورة اخص بعلى وبنيه ، الامر الثانى فى تعيين الاثمة الاثنى عشر باسمائهم وانسابهم وعلى هذا تكون فكرة الاثمة الاثنى عشر من حيث هى اسلامية ، لاسنية فقط ولاشيعية فقط وانما الخلاف فى التطبيق .

اما السبب لتسمية الفرق الاثنى عشرية بهذا الاسم مع ان السنة يؤمنون بالاثمة الاثنى عشر فهو ان هذه الفرق قد اجمعت على تعيين ال ١٢ باسمائهم و اعيانهم ، واختلفت السنة فى ذلك ، فمنهم من قال : ال ١٢ لم يخلقوا بعد وسيخلقون ويملكون بعد ظهور المهدي المنتظر ووفاته ، ومنهم من قال : ان المراد

بال١٢ اماما غير اصحاب الرسول لان حكم اصحابه يرتبط بحكمه.. اذن كل الائمة الاثنى عشر من بنى امية ما عدا عثمان و مروان بن الحكم لانهم اصحابيان وعليه يكون اول الائمة الذين عناهم النبى (ص): يزيد بن معاوية ، ثم ابنه معاوية ، ثم عبد الملك بن مروان ، واولاده الاربعة: الوليد ؛ وسليمان ، ويزيد ، وهشام ، ثم عمر بن العزيز ، والوليد بن يزيد ، ويزيد بن الوليد ، واخوه ابراهيم و مروان الحمار ، ومن السنة من قال : هم ابوبكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، ومعاوية ، ويزيد بن معاوية ، وعبد الملك ، واولاده الاربعة ، وعمر بن عبد العزيز ومنهم من قال: المراد وجود ال١٢ اماماً مدة الاسلام حتى يوم القيامة ، وان لم تتوالى ايامهم (فتح البارى فى شرح صحيح البخارى للعسقلانى ج ١٣ ص ١٨٣ وما بعدها طبعة سنة ١٣٠١هـ) .

وتسأل: لقد فهمنا ان الاثنى عشرية آمنوا بامامة على للنصوص التى دلت على امامته كتاباً وسنة ، وفهمنا ايضاً انهم آمنوا بامامة الحسن والحسين لقول جددهم الرسول (ص): ولداى هذان امامان قاما ام قعدا . . اما ايمانهم بامامة التسعة من ذرية الحسين فلم نعرف له مصدراً ؟

الجواب: بعد ان ثبت النص على امامة على والحسن والحسين وعصمتهم ثبت عند الاثنى عشرية ايضاً ان الحسين (ع) نص على ولده زين العابدين ، وهكذا نص الامام السابق على الامام اللاحق حتى الامام الثانى عشر ، وعليه ينتهى النص الى الرسول الاعظم (ص) بالنظر الى انه هو الذى نص على الائمة الاول .

هذا ما ثبت عند الشيعة الامامية عن نبينهم الكريم ، واذا سألنا أى عالم

من علماء السنة، وقلنا له: هل يجوز لاحد ان يخالف نصا يعتقد صدوره عن النبي
لشيء الا لانه لم يثبت عند غيره؟ وانه هل يحرم العمل بالنص الا اذا ثبت
عند جميع الفرق والطوائف، اذا وجهنا اليه هذا السؤال اجاب بالتردد:
كلا، والف كلا.. واذن علام الطعن والانتقاد.

وقد روى السيد عفيفي في كتابه «حياة الامام ابي حنيفة» روى عن السيوطي
عن علماء السنة: ان النبي (ص) بشر بالامام مالك في حديث: يوشك ان يضرب
الناس اكباد الابل يطلبون العلم فلا يجدون اعلم من عالم بالمدينة.. وبشر
بالامام الشافعي في حديث: لاتسبوا قريشا فان عالمها يملأ الارض علماً..
وبشر بالامام ابي حنيفة في حديث لو كان العلم معلقاً عند الثريا لتناوله رجال
من فارس. وجاء في تفسير روح البيان ان نصف الثمانية المقصودين بقوله
تعالى «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية» هم ابو حنيفة ومالك والشافعي
واحمد.

فهل يجوز للسني ان يؤمن ويعتقد بان النبي نص على امامة المذاهب
السنية؛ وان الله سبحانه نص على انهم من حملة العرش يوم القيامة؛ هل
يجوز هذا للسني؛ ولا يجوز للشيعة ان يعتقد بامامة الائمة الاطهار؟ و
ان النبي (ص) نص على بعضهم مباشرة؛ وعلى البعض الاخر بالواسطة؟
وخير ما نختم به هذا الفصل قول ابي حيان الاندلسي في تفسيره
البحر المحيط عند قوله تعالى: «ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات
سيجعل الرحمن لهم ودا - ٩٦ مريم». قال الاندلسي: «ذكر النقاش ان هذه
الاية نزلت في علي بن ابي طالب.. ومن غريب الكلام ما انشدنا الامام

اللفوى رضا الدين ابو عبدالله محمد بن على الانصارى لزينا ابن اسحق
النصرانى الرسغى :

عدى و تيم لا احاول ذكرهم	بسوء و لكنى محب لهاشم
و ما تعترينى فى على و رهطه	اذا ذكروا فى الله لومة لائم
يقولون ما بال النصرارى تحبهم؟	واهل النهى من اعراب واعاجم؟
فقلت لهم انى لاحسب حبهم	سرى فى قلوب الخلق حتى البهائم



الولاية علم

الولاية موضوع ديني ، ذكرها علماء الكلام في باب العقائد بعنوان الامامة ، ولكنها تصلح بمباحثها الهامة لان تكون علما بذاته من علوم الدين ، وتكاد تكون عند الامامية كذلك ، حيث وضعوا فيها العديد من الكتب ، منها المطول ؛ ومنها المختصر ، ومنها ما بين هذين .. والف بعض علماء السنة في الامامة كالماوردي صاحب الاحكام السلطانية ، و ابن قتيبة صاحب الامامة والسياسة ، ولكن مؤلفاتهم في هذا الموضوع تختلف عن كتب الامامية في الكثير من مباحثها واهدافها ، بل بعض فصولها لا يمت الى الامامة بسبب .

وسواء أكانت الولاية علما مستقلا ، ام بابا من ابوابها فانها تثير هذه التساؤلات :

ما هو معناها ؟ وما هي اقسامها ؟ ولمن تجب ؟ وهل هي من اصول الدين او من فروعها ، او لمن هذه ولاتلك ؛ وانما هي من لوازم التقوى وشعار المخلصين .. وفيما يلي نحاول الاجابة عن هذه التساؤلات .

وفي رأينا انه لا ينبغي لاحد ان يكتب في الولاية ، ويذيع كتابته على الملا الاشكل يبشروا ينفر ، ويقرب ولا يبعد ، فان الخصم يتخذ من قول

الامامى ، ايا كان ، حجة على جميع الامامية ، ووسيلة للطعن فى عقيدتهم.. حتى ولو كان القائل او الكاتب غير معترف به عند علمائهم بالمعنى الدقيق للعلم والفضل ..

ان موضوع الولاية شائك للغاية ، وقل من يتنبه لحل المشكلات و اجوبتها السليمة ، ولقد قرأت لبعض المؤلفين او المتطفلين كتابا لا يفرق فيه بين حديث الولاية ، وحديث الفضائل ، فيستدل على امامة امير المؤمنين بحديث « من سب عليا فقد سبني ، ومن سبني فقد سب الله » مع العلم بان من سب مؤمنا لا يمانه فقد سب الله ايا كان هذا المؤمن .

ونحن لانشك فى ان بعض الذين كتبوا فى الامامة على تحصيل عال ، و علم واسع بالاصول والفقه .. ولكن الولاية شىء ، والفقه واصوله شىء آخر ، ولا ضرر ابدا على الفقيه ان يقول : من انكر الولاية ، واقر بالشهادتين له فى هذه الدنيا ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم ، ولكن هل يحق له ان يقول : تعتبر الولاية فى قبول العبادة ، والثواب عليهما مع العلم بان الحديث عن الثواب والعقاب من البحوث الكلامية ، لامن المسائل الفقهية . بالاضافة الى ان الولاية على هذا لا تكون اصلا ولا فرعا ، بل من لوازم التقوى ، وشعار المخلصين .

وسمعت مرجعا محترما يقول : واى مانع ان يكون هذا الشعار من اقسام الولاية ، وان لم يتصف بالاصل او بالفرع ؟ .. اجل ، لامانع من جهة العقل ، ولكن هذا الشعار لا يتبادر من كلمة الولاية ، بل هو بعيد عنها كل البعد ، فكيف يكون من اقسامها ؟ .

معنى الولاية:

قد تستعمل كلمة الولاية ومشتقاتها في أكثر من معنى ، ولكن المقام الاول لهذه المادة هو السلطة والقيام بالامر ، وهذا المعنى وحده هو الذى يتبادر الى الافهام عند الاطلاق ؛ وغيره يحتاج الى قرينة ؛ فاذا قيل : من يتولى امر هؤلاء القصر سبق الى التصور ؛ من يقوم بامرهم ؛ ويدير شئونهم ؛ واذا قيل : هذا ولي العهد فهم منه انه يخلف الملك فى السلطة والقيام بالامر .

وللبس وغموض فى ذلك ، ولكن السنة ارادوا التخلص بكل وسيلة من نصوص الولاية على اهل البيت لالشيء الا حرصا على خلافة ابي بكر ومن بعده ؛ وصيانة لها من الطعن والفضيحة ، فحملوا نصوص الولاية على غير معناها الظاهر او الاظهر تمحلا وجزافا ، و لو نظروا الى الولاية بتجرد و صرف النظر عن خلافة ابي بكر لقالوا بمقالة الشيعة ؛ وما كان للخلاف بين الطائفتين عين ولا اثر ويأتى التوضيح والتفصيل .

اقسام الولاية:

تنقسم الولاية باعتبارات شتى الى اقسام ؛ فهى من حيث التشريع و التكوين تنقسم الى تشريعية وتكوينية ، وهما الخالق الكون الذى يقول للشيء : «كن فيكون» . ونسبة الخلق والتكوين الى غيره تعالى شركا لا يغتفر ، و اى تشريع خالف او يخالف كتاب الله ، وسنة نبيه فهو بدعة و ضلالة .

التفويض فى تشريع الاحكام:

وتسأل : اجل ؛ ان التشريع بيد الله تعالى ، ما فى ذلك ريب ؛ ولكن

يجوز ان يفوض سبحانه و تعالى امر التشريع الى المعصوم ؛ ولوفى بعض المسائل بالنظر الى كماله فى جميع الصفات ؛ وانه مسدد ومؤيد من الله ، بل جاء فى بعض الروايات : ان الله سبحانه فرض الصلاة ركعتين ركعتين من غير فرق بين الصبح وغيرها ، فاضاف النبى (ص) الى كل من الظهر و العصر والعشاء ركعتين ؛ والى المغرب واحدة ؛ وايضا فى رواية اخرى : ان النبى (ص) سن اشياء كثيرة غير ذلك ؛ فاجاز الله تعالى كل ما اضاف و سن نبه الكريم .

الجواب :

هذا جائز عقلا ؛ ولكنه لا يثبت شرعا الا بنص قطعى متناوسندا ؛ و لانعلم بثبوت هذا النص ، اما قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا - ٧ - الحشر » فالمراد به البلاغ عن الله ؛ لامن عند الرسول : « وما على الرسول الا البلاغ المبين - ٥٤ - النور » . هذا ؛ الى ان رواية الاضافة الى الصلاة محل نظر .. فنحن لا نتصور ان يفرض الله يسيرا على عباده ، والنبى (ص) يزيد عليه الزاما .. ثم ماهو القصد من جعل - المغرب ثلاثا والعشاء اربعابعدان كانا سواء فهل الغرض فتح باب الاعتراض للمشككين والمتحذلقين ؟ .

هذا اولا ، وثانيا قال تعالى : « ان الحكم الا الله يقص الحق وهو خير الفاصلين - ٥٧ - الانعام » . وقال الامام الصادق (ع) : اما الحلال و الحرام فقد والله انزله على نبيه بكامله ؛ وما يزداد الامام فى حلال و حرام . وكل من الاية والرواية تنافى بظاهرها مع رواية التفويض :

ثالثاً : أية جدوى من الاعتقاد بان الله سبحانه فوض امر التشريع الى المعصوم مادام قوله وفعله وتقريره حجة على كل حال ؟ .

الولاية المحمدية لا التكوينية:

وتسأل : نحن نؤمن بان التكوين بشتى انواعه والوانه هو لله وحده ، وان نسبة أى لون منه الى غيره شرك ، و لكن سمعنا عن قائل يقول : ان الله سبحانه خص بشكل او بآخر المعصومين بولاية التكوين على الاشياء وان فى قدرتهم ان يخضعوها لارادتهم ان شاءوا ، فتخضع لهم تماماً كما تخضع لارادة خالقها وباريها ، وان كانوا لا يفعلون ذلك و لا يشاءون ، ولكن الله خصهم بهذا الفضل وهو بيده يؤتية من يشاء ، والله واسع عليم . فما رأيك فى ذلك ؟

الجواب :

كل شىء ممكن باذن الله حتى اطباق السماء على الارض بكلمة يقولها عبد من عباده تعالى ؟ ولكن العبرة بالوقوع لا بالامكان ، وبالاثبات لا بالثبوت .. وليس من شك ان طريق الاثبات هنا منحصر بالنص القطعى متنا وسندا ، فاين هو؟ وعلى فرض قيام هذا النص عند البعض فهو حجة عليه وحده ، لا على غيره ؛ لان وجوب الايمان بولاية التكوين ليس من ضرورات الدين ، ولا المذهب ؛ فالواجب على الامامى الاثنى عشرى ان يؤمن ويعتقد بان كل امام من الاول الى الثانى عشر معصوم عن الخطأ و _ الخطيئة ، وانه يحيط علماً بكتاب الله ، و سنة نبيه احاطة كاملة شاملة تماماً كعلم الله ورسوله ، بهذين الاصلين ؛ وان الله سبحانه قد اصطفاه للامامة

من بين خلقه ليكون رئيساً وحجة عليهم كما اصطفى جده للنبوّة؛ وما زاد على ذلك فلا يجب الاعتقاد به الاعلى من قام لديه الدليل القاطع متنا و سندا .

وبكلام آخر ان الولاية الثابتة للامام قطعاً ، وبضرورة المذهب هي الولاية المحمدية ؛ وغيرها يفتقر الى دليل قطعي لا يتطرق اليه الشك . ونعني بالولاية المحمدية ان كل حق ثبت لرسول الله (ص) على المسلمين فهو بذاته ثابت للامام المعصوم ؛ لانه الممثل الشرعي لرسول الله (ص) في جميع الشؤون التي تقبل النيابة والتمثيل .

و كفى المعصوم عظمة ان يكون منزلها عن كل ما يشين ، وهالماً بدين الله كما نزل على خاتم النبيين ؛ وان يكون قوله وفعله و تقريره حجة و دليلاً على الحق تماماً ككتاب الله وسنة رسول الله ؛ وهو بهذه الصفات الجلى يحلق الى القمة التي لاشيء فوقها الا خالق كل شيء ؛ وهو الواحد القهار .

اما كيف احاط المعصوم علماً بدين الله واسرار من افه الى يائه؟ وهل كان ذلك برواية معصوم عن آخر ؛ او قذفاً في القلب ؛ او نقراً في السمع ؛ او بدعاء مستجاب .. كل ذلك جائز عقلاً و شرعاً.. ولكن نحن لانعلم التعيين والتفصيل ، ولا يجب علينا ان نبحث ؟ كيف؟ وبأى طريق ؟ وانما يجب علينا ان نعتقد بانه يعلم الدين بكامله ؛ وانه دليله وبرهانه .
وتسأل : هل المعصوم يعلم الغيب؟ .

الجواب : قال الله مخاطباً نبيه الكريم : «ومن اهل المدينة مردوا

على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم - ١٠١ البقرة » وقال النبي :
« لو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير - ١٨٨ - الاعراف » وقال الامام :
« ليس بعلم غيب - اى علمه - وانما هو تعلم من ذى علم .. علمه الله فعلمنيه »
وقال علماء الشيعة مجمعين : كل خبر خالف كتاب الله يجب طرحه ؛ وقال بعض
الناس : كل ان الامام يعلم الغيب وان قال الله والرسول والامام والعلماء اجمعين
لان هناك خبر ايقول : انه يعلم ما كان وما يكون الى يوم القيامة مع العلم بان هناك
آيات واخباراً كثيرة تقول : لا يعلم الغيب الا الله .. ثم ما هى الثمرة العملية
التي تترتب على ذلك ؟ .. ان الله وانا اليه راجعون .

وبعد ؛ فان الذى اعلنه من الاعتقاد بالمعصوم فى كتابنا هذا وغيره
مما كتبنا واذعنا هو الخط الاساسى لمذهب الاثنى عشرية ، وبه نقطع
الطريق على الذين يختلفون الافتراءات والاكاذيب لمجرد الطعن والنيل
من الموالين لال محمد (ص)

ولقد تتبعت ادلة الولاية ؛ وقرأت الكثير مما قاله الموالون وغير
الموالين ، ودافعت عنها وكافحت بلسانى وقلمى ؛ وما زلت الى آخر يوم
وما صعب على شىء الاوقوفى فى وجه العدو ؛ وهوى تسليح و يتشبث بقول من
يقول : الامام يعلم ما كان وما يكون ؛ وانه لو شاء اسقط السماء على الارض ؛
ورفع الارض الى السماء .. ولكن هذا اللون قليل : ولله الحمد ، ولا يمثل
الانفسه .

الولاية الطبيعية :

وايضاً تنقسم الولاية من حيث النوااميس الطبيعية ، والمبادئ الشرعية -

الى نوعين: طبيعية، وشرعية ، وافراد كل من النوعين لاتناقض افراد النوع الاخر، بل يستحيل وقوع التنافي بينهما، لان خالق الطبيعة هو واضع الشريعة الحقبة بالذات.. والولاية الشرعية - بشتى اقسامها - تدخل فى علم الفقه ، اما الولاية الطبيعية فهى اصطلاح من عندنا . ونريد به ان الناقص الفاقد لاية صفة من صفات الكمال يقتقر بطبعه ووضعه الى الكامل الواجد لتلك الصفة ، فمممكن الوجود - مثلاً - مفتقر الى واجب الوجود فى اصل وجوده ، وفى بقائه واستمراره ، والعاجز عن تدبير شئونه كالصغير والمجنون مفتقر الى قوى امين يدبرهاله ، والاعمى يحتاج الى بصير يقوده والمريض الى طبيب يعالجه، والجاهل الى عالم يهديه ويرشده .

وهكذا كل واجد لصفة هو لى على من فقدها.. وعلى هذا الفاقدان يسمع ويطيع للكامل الواجد بحكم العقل والعدل فيما يتصل بتلك الصفة ، ولكن على اساس مصلحة الفاقد لامصلحة الواجد واستغلاله.. فما من سلطة فى الارض ولا فى السماء الا وهى مقيدة بالمصلحة او بعدم المفسدة - على الاقل - وأى قوى وواجد اذا خان وافسد وجب رفضه وابعاده كائنا من كان .

وقد يكون الاعمى استاذاً فى العلم لقائده والمريض اماماً فى الدين لطبيبه ولكن قول البصير حجة على الاعمى فى معرفة الطريق وقول الطبيب حجة على الامام فى معرفة الدواء . . وايضا قول من لا يحتمل الخطأ فى علمه حجة على المجتهد الذى يحتمل فى علمه الخطأ وهذا حجة على غير المجتهد ولو تساوى اثنان فى الصفات لم يكن للولاية من موضوع الامع الارادة والرضا كاتخاذ الحاكم والنائب واختيار الوكيل ونحوه ولو تولى بالقوة احد المتساويين شأناً

من شئون المساوى الاخر تكون التولية ظلما و عدوانا وافحش الظلم ان
الناقص على الكامل والجاهل يتسلط على العالم.

ولان هذه القاعدة - اى ولاية الواجد على الفاقد - ضرورة للحياة و
نظامها فقد تبنتها وعملت بها جميع الشرائع قديما وحديثا شرقيها وغربيها
كما اعتبرت قول الامناء من اهل الخبرة والمعرفة حجة قاطعة فيما يعود الى
مهمتهم واختصاصهم .

وبما ان محمداً (ص) هو امثل واكمل من كان ويكون فى جميع
صفات الكمال والجلال تكون ولايته طبيعية عقلية كما هى سماوية الهية
ومعنى ولاية النبى - كما نفهم ونعلم - ان له السلطة الدينية والزمنية على الخلق
وان قوله وفعله وتقريره حجة ودليل على الحق والعدل ولا يختلف فى ذلك
اثنان من المسلمين وانما الاختلاف بين السنة والشيعة فى ان الرسول الاعظم
هل اوصى بهذه الولاية لاحد من بعده او انه انتقل الى ربه دون ان ينص على
من يخلفه فى هاتين السلطتين واحداهما . وفيما يلى التفصيل :

هل اوصى النبى (ص) ؟ .

قال السنة ذهب النبى (ص) الى ربه دون ان يوصى بالخلافة لاحد من
بعده وانه ترك امرها شورى بين المسلمين ورد الشيعة هذا القول بما يتلخص :
١ - ما لدليل على ان النبى (ص) اناط الخلافة من بعده بارادة المسلمين
واختيارهم . وهل ادعى احد من السنة قديما او حديثا بانه (ص) اناط الخلافة
من بعده بارادة المسلمين واختيارهم . وهل ادعى احد من السنة قديما او حديثا
بانه (ص) نص على ان الخلافة شورى بين اهل الحل والعقد . والذى نعرفه

ان البعض منهم ادعى النص على خلافة ابي بكر بتقديمه للصلاة . . مع العلم بان هذا المدعى يجيز الصلاة خلف البر والفاجر ويؤمن ايضا بان اكثر الذين يصلحون للامامة في الصلاة لا يصلحون للحكم والقيادة . وبالتالي كيف جاز للبسنة ان ينسبوا هذه الشورى لنبي الرحمة وهم يعلمون بانه سكت عنها وعن الخلافة، ولم يشر اليها من قريب او بعيد.. ان سنة الرسول الاعظم (ص) عبارة عن قوله وفعله وتقريره فهل يعد سكوته عن شيء علم يحدث بعد، مع علمه بانه سيحدث لامحالة هل يعد هذا السكوت تقريراً منه لما سيكون على كل حال وكيف اتفق وبلا قيد او شرط ؟

٢ - روى السنة عن النبي (ص) بانه كان يعلم تناحر امته من بعده على الحكم وانهم يفترقون على ثلاث وسبعين فرقة وان الكثير منهم يرتد عن دينه ، و ان الخلافة بعد ثلاثين تكون ملكا عرضا ، فكيف ساغ بعد هذا كله ان يسكت عن الخلافة . وبالصح كيف يصدق عاقل بانه (ص) سكت و تجاهل امر امته ، ولم ينص على امام يجمع شملها ، ويوحد كلمتها . ؟ وقد وصفه الله بقوله: «عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم ١٢٨ التوبة» وهل كان ابوبكر اكثر حرصا على مصالح الامة من الرسول ، واشد رأفة منه ورحمة بالمؤمنين حين اوصى لعمر بالخلافة؟ ولماذا استن ابوبكر هذه السنة التي مهدت السبيل ليزيد بن معاوية وامثال يزيدان يتحكموا برقاب العباد، ويفسدوا في البلاد؟.

هذان لخيص سريع لقول السنة والرد عليهم .. وهناك سر عميق يكمن وراء موقف السنة من النص على الخلافة والخليفة ؛ وانكارهم او تأويلهم

له ، وهو التعصب الاعمى لخلافة ابي بكر، وصياتهما من النقد والطعن، ويأتى البيان والتوضيح فى الفصل الا تى .

وقد وضع الشيعة العديد من الكتب فى نصوص الخلافة و الولاية التى رواها السنة انفسهم فى صحاحهم وسننهم ، واكثرها والكثير منها يدل بصرامة على ان على بن ابي طالب هو الذى يجب ان يخلف الرسول (ص) فى السلطة الدينية والزمنية ، وان الولاية المحمدية حق الهى مقدس للصفاة من اهل البيت ، وان طاعتهم واجبة ، ومناقشتهم محرمة .

وقد تناقل علماء الشيعة هذه النصوص جيلا عن جيل مدى مئات السنين ، واعادوا التاليف فيها مرات ، وما زالوا ، ومحصولها تمحيصا علميا ودقيقا ، فتمتوا فى نقلها عن السنة ، ووضحوا دلالتها قبل ان يذيعوها على الملأ ويناطروا بها من انكر وعاند .. واتمنى لو اتيح لنصوص الولاية عالم منصف لاسنى ولاشيعى يبحثها بحثا موضوعيا ، ويصدر حكمه بما فهم منها وعلم، ومن الكتب التى تحتوى على هذه النصوص كتاب الشافى للمرتضى ، ودلائل الصدق للمظفر ، والغدير للامينى ، والمراجعات لشرف الدين ، وفوائد الخمسة من الصحاح الستة للفيروز آبادى وغيرها ، ولا جديد لدينا نعطفه على ما فى هذه الكتب ، و اية جدوى فى النقل عنها مادامت فى متناول كل راغب وطالب ؟ . وعلى سبيل المثال نشير الى نصوص ثلاثة :

١ - بعد نزول الوحى على رسول الله (ص) امره تعالى ان يبدأ بدعوته اول ما يبدأ بارحامه واقاربه ؛ وخاطبه بقوله : « وانذر عشيرتك الاقربين

فلبى النبى (ص) واولم لعشيرته ، ودعاهم الى الاسلام ، وقال لهم فيما قال مشير الى على : « هذا اخى ووصيى وخليفتى فيكم ، فاسمعوا له واطيعوا »
انظر من الكتب القديمة للسنة الجزء الاول من مسند احمد والجزء الثانى من تاريخ الطبرى طبعة قديمة والجزء الثانى من الكامل لابن الاثير طبعة قديمة
ايضا ، ومن الكتب الجديدة حياة محمد ، لمحمد حسين هيكل الطبعة الاولى
وتاريخ الجمعيات لمحمد عبدالله عنان.

٢ - خطب النبى (ص) المسلمين يوم غدير خم ، و افتتح خطابه بقوله : الست اولى منكم بانفسكم؟ ، ثم قال : من كنت مولاه فعلى مولاه .
والمتبادر الى الافهام من كلمة المولى هو الذى يتولى الامر - ويملك السلطة كما اسلفنا - ومع التسليم جدلا بان للمولى الفمعنى ومعنى فان المقصود منه هنا خصوص الخلافة والولاية بدلالة « الست اولى الخ : وقرينة الايات والاحاديث الواردة فى حق على (ع) وامامته».

واثبت الامينى فى كتاب الغدير : ان هذا الحديث رواه ١١٠ من الصحابة ، و ٨٤ من التابعين .

٣ - قال الرسول الاعظم : «انى قد تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدى : الثقلين واحد هما اكبر من الاخر كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض ، و عترتى اهل بيتى ، الا وانهم الم يفترقا حتى يردا على الحوض» .

وهذا الحديث يرادف فى معناه معنى قوله تعالى : «وما آتاكم الرسول

فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب -٧ الحشر». لقد ساوت هذه الآية بين القرآن والرسول في وجوب التمسك والاتباع، ومثلها تماما حديث الثقلين، ساوى بين القرآن والعتره، و المساويان لثالث مساويان، وعليه فإى حق ثبت للرسول فهو بعينه ثابت للعتره شريطة ان يقبل النقل والانتقال كالسلطة الدينية والزمنية، وفي فصل «من هم اهل البيت؟» اشرنا الى سند الحديث والمراد بالعتره.

وتسأل: ان خلافة الرسول (ص) منصب هام و خطير للغاية، لان صاحبه يجمع فيه بين السلطتين: الدينية، والزمنية، فينبغى، وهذى هى الحال، ان يكون النص عليه بالاسم لا بالوصف، وبالتصريح لا بالتلويح.. وقد رأينا اكثر النصوص التى استدلت بها الشيعة على خلافة الامام و ولايته من النوع الثانى، مثل من كنت مولاه فعلى مولاه.. وانتولى كل مؤمن بعدى.. وعلى مع الحق، والحق مع على الخ.. فلم اذا اكتفى النبى (ص) بالوصف عن الاسم، وبدلالة اللزوم عن المطابقة، وهى اصرح واوضح، وفتح باب النقاش والتأويل؟

الجواب:

اولا: لافرق من حيث الحججة والالزام بين دلالة اللزوم والمطابقة، كما هو الشأن فى سائر النصوص، سواء أكان موضوع النص اصلا من اصول الدين، ام فرعاً من فروعه.. ومن اجل هذا اكتفى ابو بكر حين نص على عمر بقوله: «انى امرت عليكم عمر بن الخطاب». قال المرحوم الشيخ محمد رضا المظفر فى كتاب السقيفة: «ان الامارة تكون فى الجيش

وفي كل شيء.. والفرق بين نص النبي-على الامام - ونص ابي بكر-على عمر- ان ابا بكر لم يحدث بعده ما يوجب التأويل لانه قد عمل به ، اما نص النبي فقد اول لانه لم يعمل به .

ثانيا : ان الحكمة والمصلحة قد تستدعي العدول من التصريح الى التلويح ، ومن الاسم الى الوصف مع العلم بان النتيجة واحدة ، والحكمة هنا ان عليا كان له في الصحابة اعداء وحساد لفضله من جهة « وقديما كان في الناس الحسد » ولانه قد قتل في-بدر واحد-الكثير ممن كان يمت الى بعض الصحابة بنسب او سبب من جهة ثانية.. وعليه لو صرح النبي (ص) باسم علي لانشق المسلمون ، معه وعليه ، واختلفوا فيه بعدما تفقوا عليه ، وذهبت هيبة الاسلام ، وضعفت شوكته .

ويدل على ذلك امران : احدهما ان النبي (ص) قد صرح بخلافه على في النص الاول يوم ائذ عشرينه ، وقال: هذا خليفتي فيكم، فاسمعوا له واطيعوا . (١)

حيث لاحساد ولا اعداء لعلي (ع) آنذاك ، لانه كان في مستقبل العمر ، لم يمارس حربا ، ولم يقتل مشركا ، ولم يظهر له بعد من الفضل ما ظهر له يوم -بدر واحد وخيبر والاحزاب - وثاني الامرين: الذي يدل على شقاق الصحابة لو صرح النبي باسم علي ، هو شقاقهم واختلافهم عند النبي وفي بيته و مرضه حين اراد أن يكتب لهم وصية لن يضلوا بعدها ابدا ، وقول عمر : ما شأنه ؟ أي هجر ؟ . ويأتي البيان في الفصل التالي .

١ - تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٢ مطبعة الامتقامة بالقاهرة سنة ١٣٥٧ هـ .
هـ . عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة .

وبعد فان المصدر الاول والاخير لوجود التشيع وظهوره فى الاسلام هو نصوص القرآن و السنة فقط لا غير على ولاية اهل البيت ، لا الاغراض الشخصية ، ولا المحسنات العقلية ، ولولا هذه النصوص لقال الشيعة . بمقالة السنة .. اما الفضل فى بقاء التشيع واستمراره فله اسباب لاسبب واحد؛ ومنها او من اهمها رواية علماء السنة انفسهم لنصوص الولاية، وحفظها وتدوينها فى صحاحهم وسننهم ومسانيدهم ، فلقد كان لهذا التدوين ، وتلك الرواية ابلغ الاثر فى صمود مذهب التشيع لاهل البيت ؛ وثبتيته ونموه بقلوب اهله وابنائهم ، وانتشاره فى شرق الارض وغربها .. واذ هب الى ابعده من ذلك جازما بانه لولا اعتراف السنة بنصوص الولاية – على رغم التأويلات والتحملات – لبلغ التناحر بين السنة والشيعة غايته ونهايته .

وهكذا نرى ان علماء السنة قد ساهموا مساهمة فعالة فى التقريب بين الطائفتين الاسلاميتين من جهة ، وفى رسوخ التشيع ونموه وانتشاره من جهة ثانية ، ولكن من حيث لا يريدون ؛ او من حيث ارادوا فى واقعهم العكس .. واكرر جازما ومعبرا عن رأى الشيعة قاطبة بانهم يعتمدون لايمانهم بولاية اهل البيت على النص القطعى متنا وسندا ، وان علماءهم اذا أشاروا الى حكم العقل فى هذا الباب ، وعند المناظرة فانما يشيرون اليه كمؤيد ، لا كدليل مستقل ، ولولا الخصومات والحملات لم يأتوا على ذكره تصريحاً ولا تلويحاً .

الدكتاورية والديمقراطية:

و رب قائل : لو سرفنا النظر عن نص الكتاب والسنة على خلافة على وامامته ، وقارنا بين قول الشيعة والسنة – لوجدنا قول السنة اقرب

الى النفس وملاءمة الحضارة» فى هذا العصر- لان قول الشيعة يوجب على الامة كافة ان تخضع لحكم الفرد ودكتاتوريته؛ اما قول السنة فانه يترك الامة وشأنها تنتخب وتختار من نراه اهل للرياسة عليها؛ وهذى هى الديمقراطية المتبعة اليوم فى البلاد المتحضرة .

الجواب :

اولا : لاسبيل الى اتفاق عامة الناس على رأى واحد فى أى موضوع كان .
ثانياً : ما من انتخاب جرى فى العالم كله الا ودنسته الرشوة والجهل ، والقوة والاغراض الشخصية ؛ ومن هنا قال سبحانه فى اكثر من آية : « اكثرهم لا يعقلون » .

ثالثاً : لو سلمنا - جدلاً - بنزاهة الانتخاب و عدالته فان النتيجة الحتمية له هى حكم الاكثرية ، وارغام الاقلية على الخضوع لها ، ومعنى ذلك ان الاقلية لاشأن لها ولا رأى .. هذا الى ان الشواهد التاريخية قد اثبتت بالارقام ان الديمقراطية العصرية تبتدىء بالانتخاب ، وتنتهى باستبداد الاقلية بالاكثرية ، ومن هنا كانت الحرية للجميع ، والمساواة بين الجميع فى هذا العصر ، بل وغيره من العصور - الفاظاً بلا معنى الا فى الذهن و التصور .. ويستحيل ان يتحقق للعدالة والمساواة اى معنى الا اذا حكم وسيطر المعصوم عن الخطا والخطيئة . . وهذا هو قول الشيعة بالذات .. وقد يكون مجرد حلم من الاحلام .. ولكنه حلم الحق والناس اجمعين .

اصل اوفرع؟

وتسأل : هل الولاية عند الشيعة اصل اوفرع ؟ . وعلى الاول هل

هى من اصول الدين او المذهب ؟ .

الجواب :

الولاية اصل، وليست بفرع، لان الولاية عملية قلبية داخلية، والفرع موضوعه الافعال الخارجية .. هذا ، الى ان الفرع يثبت بالظن من خبر الواحد ، وظواهر الكتاب والسنة ، و الولاية لا تثبت الا بالقطع و اليقين كغيرها من الاصول .

واكثر علماء الامامية على انها من اصول الدين . وقال قائل منهم :
هى من اصول المذهب . و ذهب البعض الى انها شرط لقبول العبادة و الثواب عليها، وليست شرطاً لصحة العبادة وكفايتها .. ويلاحظ بان اهل العرف لا يفرقون بين صحة العمل وقبوله ، فاذا قيل : هذا العمل مقبول فهموا انه صحيح ، واذا قيل : هو صحيح فهموا انه مقبول .

ويلاحظ على القول الثانى بان مصدر الدين و المذهب الاسلامى واحد ، وهو الكتاب الكريم و السنة النبوية ، فأى شىء له اساس فيهما فهو من الدين فى الصميم ، سواء أسمىناه دينام عقيدة ، و الذى لا اساس له فى الكتاب و السنة لا واقعا ولا ظاهرا يبرر الاجتهاد فهو بدعة وضلالة لا تصح نسبته الى الاسلام بحال .

وعلى هذا فان كانت الولاية حقا فى علم الله فهى من اصول الدين واقعا وظاهرا ، وان لم تكن كذلك فهى ايضا اصل من اصول الدين ، ولكن ظاهر الا واقعا كغيرها من الامور الدينية ، اذ المفروض ان القائلين بالولاية يعتمدون النص ، واذن فهى من الاصول على كل ، اما واقعا وظاهرا ، واما

ظاهراً فقط ، اجل ، يجوز أن نسميها باصل المذهب بالنظر الى انها ثبتت عند اهل هذا المذهب دون غيره من المذاهب ولكن التسمية لانخرجها من اصول الدين .

وتسأل: هل الشيعة يكفرون من انكر الولاية لائمهم بالمعنى الذى يؤمنون به ويدننون ؟

الجواب :

كلا؛ كيف وقد اجمعوا قولاً واحداً على ان من نطق بالشهادتين له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم الا ان يكون ناصبياً او مغالياً ، ومن ادلتهم قول الامام (ع) هلك فى رجلان: محب غال، ومبغض قال .

سؤال ثان: اوجت به الاجابة عن السؤال الاول ، وهو اذا كان هذا حقاً وصداً ، لا تقيمة ومجاملة ، فكيف تكون الولاية من اصول الدين ، ويكون الاقرار بها واجبا تماماً كوجوب الاقرار بالتوحيد والنبوة . واية جدوى من القول بان الايمان بالولاء واجب كالتوحيد اذا كان لمنكر هذا الولاء ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم ؟

والجواب عن هذا السؤال يعرف مما ذكرناه فى الفصل السابق بعنوان ما يجب وما لا يجب ، وربما نسيه القارىء ، اولم يمر به ، ونلخصه له بان على كل بالغ عاقل ان يبحث وينظر لتحصيل العلم بالاصول الاربعة : التوحيد ، والنبوة ، والامامة - على قول الشيعة - والمعاد ، وان القادر المقصر فى البحث والنظر غير معذور امام الله الا اذا آمن جازماً ، عن تقليد يتفق مع الواقع ، وان الغافل القاصر معذور ، لان حاله حال البهائم والمجانين من غير فرق

فى ذلك بين جميع الاصول الاربعة .

وقلنا ايضا : ان من نطق بالشهادتين يعامل فى الدنيا معاملة المسلم حتى ولو كان شاكاً فى الواقع بالتوحيد والنبوة فضلا عن الشك بالولاية والامامة على شريطة ان لا يظهر هذا الشك، مع انه عند الله من الكافرين لان من شك بالله او بنبوة محمد كافر كما، تقدم عن الامام الصادق (ع) . . والفرق بين التوحيد والنبوة من جهة ، وبين الولاية من جهة هو ان اعلان الجحود او الشك فى الله ورسوله لا يجتمع بحال مع اعلان الايمان بالشهادتين - حيث يستدعى اجتماع النقيضين، اما جحود الولاية فضلا عن الشك فيها فانه يجتمع مع اعلان الشهادتين ومن المتسالم عليه ان الاحكام الشرعية وآثارها تلحق هذا الاعلان، وتترتب عليه ترابدينيا بصرف النظر عن الولاية، وعن الثواب والعقاب . .

وعليه فلامنافاة بين قول الشيعة: ان الايمان بالولاية من اصول الدين ، وقولهم : ان منكرها ليس بكافر . . ان اقوال الشيعة فى كل شىء ينسجم بعضها مع بعض، ولاتنافر بينهما على الاطلاق، وهى بكاملها تنسجم مع عقيدتهم وافعالهم، وانما التناقض والتنافر بين اقوال السنة انفسهم، حيث قالوا ان الامامة من الفروع، لامن الاصول، ثم حكموا من حيث يشعرون ، او لا يشعرون بان من انكر خلافة ابي بكر وعمر، فهو كافر، قال ابن حجر فى آخر صواعقه باب التخيير والخلافة ، ما نصه بالحرف الواحد : ان ابا حنيفة وغيره من علماء السنة اختلفوا بان من انكر خلافة ابي بكر وعمر فهو كافر . . ونقل القزوينى فى كتاب الامامة الكبرى عن ابن حجر فى صواعقه هذا الحديث عن النبى (ص) « يكون فى آخر امتى الرافضة ينتحلون حبا هلى بيتى . . من ادركهم منكم

فليقتلهم فانهم مشركون».

فان كانت الامامة من الفروع حقاً فانكار خلافة الشيخين لا يوجب التكفير حتى ولو كانت بامر من الله ورسوله ، ويأتى الكلام عنها ، وان كانت الامامة من الاصول فلماذا ينكرون ذلك على الشيعة؟ . وليس لواحد من السنة وغير السنة ان يدعى ويقول: اجل، ان خلافة الشيخين فرع، ولكنها من ضرورات الدين، وكل من انكر ضرورة دينية فهو كافر .. ليس لاحد ان يدعى ذلك ، لان الشرط الاساسى للضرورة الدينية ان يجمع عليها كافة المسلمين فى كل زمان ومكان، والشيعة ينكرونها ، وسبقهم الى انكارها كثير من الصحابة ، و يأتى البيان . هذا جواب ابي حنيفة وغيره من علماء السنة الذين افتوا بكفر من انكر خلافة الشيخين ، اما حديث قتل الراضية فانه يرمز الى شىء عميق الدلالة لا يدركه الا المتعصبون من اهل السنة؛ وبعد، فان السنه او الكثير منهم يقعون فى افحش التناقضات من حيث لا يدرون ويرمون بها الابرياء عن قصد او غير قصد .

حول التسنن والتشيع

ولاية اهل البيت وخلافة ابي بكر:

كنت، وانا في مقتبل العمر أفسد لكما يتساءل الساذج البريء : لماذا انقسم المسلمون الى سنة وشيعة، وكتابهم واحد ، ونبيهم واحد ، وقبلتهم واحدة ؟.

ثم لاحظت - اكثر من مرة - حين يجتمع بعض السنة مع آخرين من الشيعة: ويأتى ذكر الاختلاف يتفقون جميعا على ان سبب الانقسام بين المسلمين قديما وحديثا يرجع الى سياسة الحكم الجائر، ومبدأ «فرق تسد» وصادف ان قرأت ذلك فى بعض الصحف والكتب الحديثة، فصدقت من غير تحقيق وتمحيص، بل من حيث لا احس واشعر.. كان ذلك قبل خمسين سنة او اكثر .

واستقرت هذه الفكرة فى رأسى سنوات ، وكتبتها واذعتها فى بعض ما كتبت واذعت.. وحين اضطررت الى اعداء الحق واهله الى الدفاع عنه وعنهم اخذت أبحث وأنقب عن مصدر التشيع والبذرة الاولى لهذا المذهب؛ فوجدتها

فى النص الصحيح عن رسول الله (ص) كما وجدها المنصفون من السنة انفسهم ومنهم الاستاذ؛ محمد عبدالله عنان فى كتابه تاريخ الجمعيات السرية حيث قال: من الخطأ أن يقال: ان الشيعة انما ظهر والاول مرة عند انشقاق الخوارج؛ بل كان بدء الشيعة وظهورهم فى عصر الرسول (ص) حين امره الله بانذار عشرين ته فى الاية ٢١٤ من الشعراء : «وانذر عشرينك الاقربين» ، ولبنى النبى فجمع عشرين ته فى بيته؛ وقال لهم مشيراً الى -على- هذا اخى ووصى وخليفتى فيكم فاسمعوا له واطيعوا» .

بحنت ونقبت عن مصدر التشيع، وقرأت نصوص الولاية بكاملها مرات وايضاً قرأت اعتراضات السنة عليها وعلى الشيعة مرات ومرات؛ وتتلخص هذه الاعتراضات بان بعض نصوص الولاية ضعيف السند؛ وبعضها يدل على الولاية بمعنى السلطة وتولى الامر، بل بمعنى المودة والنصرة ، و بعضها يدل على ان علياً يتولى الخلافة فى المآل ، لافى الحال ، اى بعد خلافة ابي بكر وعمر وعثمان، لا بعد وفاة النبى بلافاصل .. قرأت هذا فعدلت عن فكرة السياسة و «فرق تسد» و آمنت بان السبب للاختلاف بين السنة والشيعة يرجع الى الاختلاف فى فهم نصوص الولاية سنداً ومثناً ، وكتبت ذلك واذعته ايضاً فى بعض ما كتبت واذعت ،

وتشاء الاقدار ان اعود الى حديث الولاية، وانا فى -قم-؛ او يعود هذا الحديث الى، ويفرض نفسه على، فرحبت به، لان حديث الولاية احسن الحديث بل افضل الاعمال، وهذا من فضل ربى، وبعد التتبع والتأمل تبين لى ان السبب الاول للاختلاف بين السنة والشيعة بعد بكثير من السياسة ؛ ومن الاختلاف

فى النصوص سنداً وممتناً . كلا ، ان السبب الحقيقى يكمن فى تصميم السنة وحرصهم على خلافة ابى بكر ، والدفاع عنها بكل سبيل حقا كانت ام باطلا . . واذن ، الاختلاف بين السنة والشيعة حول هذه النصوص جاء فرعاً ، لاصلا وتبعاً ؛ لا اساسا .

اما السبب الموجب لحرص السنة على خلافة ابى بكر فهو - كما نرجح ان السنة او اكثرهم يؤمنون بالامر الواقع ؛ ويعترفون به ايا كان ، على عكس الشيعة الذين يدينون بالعقل والشرع ، وبهما يقيسون الحوادث والوقائع ، ولوتولى على الخلافة بعد الرسول مباشرة لكنت نصوص الولاية بكاملها عند السنة صدقا وعدلا . ممتنا وسنداً . . ونحن لا نتزيد فى اقوال السنة ولا ننسب اليهم ما ليس لهم به من علم ، كما نسب اليها البعض منهم ما نسب كذبا وافتراء . . كلا ؛ لانقابل الكذب بالكذب ؛ بل نلزم بالاقوال والافعال . . وفيما يلى نعرض طرفا من اقوال السنة التى تدل صراحة على انهم يدينون بمبدأ الاعتراف بالواقع مهما كان ويكون ، ثم نعرض بعض ما يدل من اقوالهم على ان خلافة ابى بكر اتت من طريق يرفضه الاسلام ، ويبرأ منه .

السنة ومبدأ الاعتراف بالواقع :

قلنا : ان السنة تبنيوا خلافة ابى بكر عملا بمبدأ الاعتراف بالواقع ، واليك الدليل :

١ - بايع نفر قليل ابابكر بالخلافة ، وساعدته الظروف والاضاع ، فتمت السلطة له دون غيره من الصحابة ، واصبح هو الامر الناهى باسم خليفة رسول الله (ص) ، فاستدل السنة بخلافة ابى بكر : لا بآية ولا رواية ، ولا باجماع

او عقل استدلووا وابتدعوا اصلاعاما ووهاما، هو أن الخلافة الاسلامية الكبرى
تتعد شرعا، وتصح عقلا وعرفا ببيعة نفر قليل من المسلمين ؛ وكان الاجدر
ان يستدلووا على فساد خلافة ابي بكر وبطلانها ببيعة النفر القليل ، كما هو
منطق الحق والعدل .

قال الماوردي في اول كتاب الاحكام السلطانية: «اقل ما تنعقد به الامامة
خمسة انفار، لان بيعة ابي بكر. انعقدت بعمر، وابي عبيدة واسيد بن حضير،
وبشر بن سعد، وسالم مولى حذيفة . . ولان عمر جعل الشورى فى ستة ليعقد
البيعة لاحدهم برضا الخمسة هذا قول اكثر الفقهاء والمتكلمين من اهل البصرة
وقال آخرون من علماء الكوفة تنعقد بثلاثة يتولاها احدهم برضا الاثنين ،
وقالت طائفة اخرى تنعقد البيعة بواحد».

وجاء فى كتاب المواقف وشرحها باب الامامة : «الواحد والاثنان من
اهل الحل والعقد كاف فى ثبوت الامامة ووجوب اتباع الامام على اهل الاسلام ،
لان الصحابة اکتفوا فى عقد الامامة بعقد عمر لابی بكر وعقد عبدالرحمن بن
عوف لعثمان» .

أليس معنى هذا ان بيعة عمر لابی بكر هى حق وعدل وان خالفت كتاب الله
وسنة نبيه.. لا لشيء الا لان ابا بكر صار خليفة بالفعل وان بيعة ابن عوف لاريد
فيها لان عثمان صار خليفة ؟

ومعنى هذا ايضا ان عمر؛ او أى انسان لو بايع عليا وتمت له الخلافة -
لكان اولى بها من جميع الصحابة بما فيهم ابو بكر ، ولكانت جميع النصوص
على خلافته وولاية المعصومين من اولاده قطعية السند والدلالة . . حتى ولو

بايع بابكر الانس والجبان ، بل ونص على خلافته النبي والقرآن مادامت
 الخلافة لم تتم له.. هذا مبدأ السنة واكثرهم يقيسون الحق بما وقع؛ ولا يقيسون
 ما وقع بالحق بالحق امامبدأ الشيعة فالنص اولا وهو الضابط لما يقع ويحدث.
 وقد تنبه بعض السنة لهذا الخطأ فبرره بما هو افحش، ووضع هذا الحديث
 «من أطاع الامير فقد اطاعنى ومن يعصى الامير فقد عصانى فان امر بتقوى الله
 وعدل فان له بذلك اجر أو ان قال بغيره - اى غير العدل - فان عليه منه» اى
 وبالعلى نفسه لاعلى احدلانه من نفسه والنتيجة لذلك وجوب طاعته على
 كل حال.. جاء هذا الخبر فى البخارى ج ١١ باب السمع والطاعة للامام .

٢ - وقعت الحرب بين على ومعاوية وشاعت الاقدار والظروف ان
 يحكم معاوية كما حكم الاول والثانى والثالث فتبنى السنة حكم ابن ابى سفيان
 واعترفوا به ودافعوا عنه لالشيء الا لانه قد حكم بالفعل.. وكان قد تواتر عن
 النبي(ص): ان عمارا تقتله الفئة الباغية يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار
 تواتر هذا الحديث حتى اصبح كآية قرآنية بخاصة بعدما دونه البخارى فى
 صحيحه كتاب الصلاة باب التعاون فى بناء المساجد ج ٤ ص ١٠٧ طبعة
 ١٣٥٢ هـ .

ومع هذا رفض السنة ، وابوا ان ينعتوا معاوية وحكمه بالبغى كما
 نعته من لا ينطق عن الهوى ، رفضوا ذلك ، وهم على يقين من قول الرسول
 بان عمارا يقتله الطاغية الباغية .. وعلى الرغم من ذلك قال السنة : كلا،
 ان معاوية اطغى ولابغى ، وانه معذور، بل ومأجور بقتل عمار وبسب على
 على المنابر ، وحمل الناس على ذلك حتى يهرم الكبير ويشيب الصغير لانه-

اي معاوية - اجتهد فاختطاً ، وللمجتهد المخطيء اجر .. و مهما شككت
فاني لا اشك ابدا في ان معاوية لو فشل في حربه مع الامام ، ولم يستتب له
الحكم لنعمته السنة بالطاغية الباغية لنفس الحديث المتواتر : « يعمار
تقتلك الفئة الباغية » . ولكن معاوية صار حاكما بالفعل ، واذن يجب طرح
النص وان تواتر .

وهذا هو بالذات حال النص على خلافة الامام وولايته ، رفضه السنة ،
لان الاوضاع الفاسدة الجائرة اسعفت ابا بكر ، وعاكست عليا ، ولو اسعفته
الظروف ؛ وعاكست ابا بكر لكان النص صريحا وقاطعا بولاية علي و
امامته .

أليس معنى هذا ان مقياس الحق عند السنة او اكثرهم هو ما وقع ،
لا النص من الله ورسول الله ؟ .

الاسلام وخلافة ابي بكر :

هل خلافة ابي بكر صحيحة ، ام باطلة في مقياس الاسلام واحكامه ؟ .
وليس من شك اذا بطلت خلافة ابي بكر بطلت خلافة عمر وعثمان بطريق
اولي ، لانها رشفة من خلافة الاول ، وبالتالي ينهار مذهب التمسك من الاساس ،
او اعظم ركن من اركانه الذي من اجله اعرضوا عن نصوص الولاية ، وقسموا
المسلمين بهذا الاعراض الى شيعة وسنة .

واذا تكلمنا نحن عن خلافة ابي بكر انهمونا بالتعصب والانحياز ،
لذلك ندع الكلام عنها للسنة انفسهم ، قال الشيخ علي عبد الرازق ، وهو
من علماء الازهر ، في كتاب « الاسلام واصول الحكم » ص ١٨٣ طبعة ثانية

سنة ١٩٤٤ ، قال مانصه بالحرف الواحد :

« اذا انت رأيت كيف تمت البيعة لابي بكر ، واستقام له الامر تبين لك انها كانت بيعة سياسية ملكية عليها طابع الدولة المحدثه ، وانها قامت كما تقوم الحكومات على اساس القوة والسيف ».. وقال فى ص ١٩٤ : « لعل بعض من حاربهم ابوبكر ، باسم الردة لم يرفضوا الزكاة ، بل رفضوا الانذان لحكومتهم ؛ كما رفض غيرهم من جلة القوم كعلی بن ابی طالب ؛ وسعد بن ابی عبادہ - الى ان قال - فقد اعلن مالك بن نويرة فى صراحة واضحة الى خالد بن الوليد - انه لا يزال على الاسلام ، ولكنه لا يؤدى الزكاة الى ابى بكر » .

ومعنى هذا ان خلافة ابى بكر لا اساس لها من الدين .. كيف ومصدرها القوة والسيف ؟ . وای شیء اعظم جرما وظلما من التحكم برقاب الناس قهرا عنهم ؟ . ومن هنا اضطر جماعة من علماء السنة (١) الى القول بان الامامة تنعقد بالقوة والغلبة .. وهذا شاهد آخر على ان السنة يؤمنون بمبدأ الاعتراف بالامر الواقع ، حتى ولو كان مصدره السياف ؟ ونعطف هذا الشاهد على ما قدمنا فى الفقرة السابقة .

وقال عبدالكريم الخطيب (من السنة) فى كتاب الخلافة و الامامة ص ٢٧٢ طبعة ١٩٤٣ ، قال مانصه بالحرف :

« لقد عرفنا ان الذين بايعوا ابابكر لم يتجاوزوا اهل المدينة ، و

١ منهم ابن خلدون فى مقدمته ، والقاضى ابن جماعة الدمشقى فى مناقب
عنه صاحب حضارة الاسلام «جرونيباوم»

ربما كان بعض اهل مكة .. اما المسلمون جميعا فى الجزيرة العربية كلها فلم يشاركوا فى البيعة ، ولم يشهدوها ولم يروا رأيهم فيها ، وانما ورد عليهم الخبر بموت النبى مع الخبر باستخلاف ابى بكر . فهل هذه البيعة او هذا الاسلوب فى اختيار الحاكم يعتبر معبرا عن ارادة الامة حقاً ؟ وهل يرتفع هذا الاسلوب الى انظمة الاساليب الديمقراطية فى اختيار الحكام ؟ . لقد فتح هذا الاسلوب ابواب اللجدل فيه ، والخلاف عليه . اى ان بيعة ابى بكر بالشكل الذى حدثت فيه اوجبت اختلاف المسلمين وتعدد فرقهم ومذاهبهم .

وقال فى ص ٢٧٣ : « من اى نوع هو عقد بيعة الخليفة ؟ . او عقد بيع ام عقد وكالة ؟ . ان عقد البيع بعد ان تتم الصفقة يصبح كل من المتبايعين بمعزل عن الآخر ، يتصرف فيما صار فى يده مطلقا لاسلطان للثانى عليه ، ولا شأن له معه ، فهل يصبح الذين بايعوا الخليفة لاصلة لهم به بعد البيعة ، ويصبح الخليفة مالكا للخلافة لاحساب عليه لاحد ؟ . هذا بالنسبة الى عقد البيعة ، اما عقد الوكالة فاين هو ؟ ومن هم الوكلاء والمسؤولون عنه ؟ اهم اهل الحل والعقد ؟ . ومن هم اهل الحل والعقد ؟ . وماهى صفتهم ومن الذى القى عليهم هذه المسؤولية ؛ ومنحهم اياها ؟ . » .

ثم قال فى ص ٢٨٦ وما بعدها : « هل تمت البيعة لابي بكر بالانتخاب العام .. ومن هنا نرى ان البيعة تنطوى على قصور فى مجال التعرف على رأى العام كما تنطوى على غبن واضح لحق الافراد السياسيين الذى تقتضيه المساواة التى اقامها الاسلام مبدأ واضحا صريحا بين المسلمين جميعا . » .

وهاجم احمدامين المصرى الشيعة فى كتاب فجر الاسلام وضحاها
هجومًا عنيفًا ، وبعد مضى عشرين عاما او اكثر أصيب بنظره فاملى كتابا ،
اسماه يوم الاسلام ، وطبع سنة ١٩٥٨ قبل وفاته بقليل واعترف فيه بما كان
قد انكره على الشيعة .

من ذلك قوله فى ص ٤١ : « اراد رسول الله (ص) فى مرضه الذى
مات فيه ان يعين من يلى الامر بعده ، وقال : هلم اكتب لكم كتابا لاتفشلوا بعده
وكان فى البيت رجال منهم عمر ، فقال عمر : ان رسول الله قد غلب عليه
الوجع » (١) .

وقال احمدامين المصرى فى الكتاب المذكور فى ص ٥٣ : « اختلف
الصحابة على من يتولى الخلافة ، وكان هذا ضعف لياقة منهم ، اذا اختلفوا
قبل ان يدفن الرسول » .

وقال فى ص ٥٢ : « كان مجال الخلاف الاول فى بيت النبى ، و
الثانى فى السقيفة ، واخير اتم الامر لابي بكر على مضض » .

وقال فى ص ٥٤ : « بايع عمر ابابكر ، ثم بايعه الناس ، وكان فى هذا
مخالفة لركن الشورى ، ، ولذلك قال عمر : انها غلطة وفى الله المسلمين
شرها ، وكذلك كانت غلطة بيعة ابي بكر لعمر » .

واذا لم تقم خلافة ابي بكر على الاجماع ، ولا على النص ، ولا على

١ - فى صحيح البخارى ج ٦ ص ٩ طبعة ١٣١٤ هـ : « ماشأته - اى
النبى - هاجر » ، ومثله فى صحيح مسلم كتاب الوصية . ولكن البعض تصرف بكلمة
هجر لانها تفيد الهذيان ، ومقام الرسول اعظم .

البيعة والركالة ، ولا بالانتخاب الديمقراطي كما قال الاستاذ عبدالكريم الخطيب ، بل قامت على القوة والسيف كما قال الشيخ على عبد الرازق ، و انها كانت غلطة كما قال عمر واحمد امين صاحب فجر الاسلام وضحاه ، اذا كانت هذه خلافة ابي بكر في حقيقتها وواقعها فاين مكان الرشد فيها؟ و في خلافة عمر وعثمان ؟ . وهل يزيد الفرع على الاصل ؟ .

وبالتالى ، هل يبقى لمذهب التسنن من ركن يعتمد عليه ؟ . لقد انكر السنة النص على خلافة الامام.. لالشيء الا حرصا على خلافة ابي بكر فاقتصر الله ، جلّت حكمته ، لعل في الدنيا قبل الاخرة ، وسخر من السنة انفسهم من يهدم هذه الخلافة من اساسها ، ويثبت بالحس وينشر على الملاء والاجيال ان خلافة ابي بكر انت من طريق لا يقره دين ولا عقل ، ولا عرف ، اوقانون .

لماذا لم يحتج الامام بالنص ؟

وتسأل : اذا كان هناك نص جلى على امامة الامام (ع) فلماذا لم يحتج به على من ابعده عن الخلافة ؟ . ولو من باب القاء الحجة - على الاقل -

الجواب :

ان العالم لا يجزم نفيا ولا اثباتا الا بدليل قاطع .. و لا وجود لهذا الدليل على ان الامام لم يحتج .. أجل ما سجل التاريخ ، ولا نقل الرواة ذلك عنه ؛ ولكن ليس كل ما قاله على و فعله قد حفظه التاريخ ، ورواه الرواة بخاصة تاريخ العصر الاموى الذى كان فيه سب على ديننا تدين به

الدولة واعوانها ، ومثله او اسوأ منه العصر العباسى .

ولوسلمنا - جدلا- بان الامام سكت و لم يحتج فليس من الحق فى شىء ان نفس سكوت الامام بوجود النص او عدم وجوده الا فى ضوء ما حدث وأحاط بالامام من الظروف و الملابسات آنذاك . . ولا يكون سكوت الامام دليلا على عدم النص الا اذا وجد المقتضى ، وارتفعت جميع الموانع بحيث لواحتج الامام لبايعه عمرو ابوبكر و سائر الصحابة ، اما اذا كان الاحتجاج بالنص وعدمه سواء بل يتولد منه مفسد ايضا فلا يدل السكوت ، -والحال هذه- على عدم وجود النص. واذ انظرنا الى تلك الظروف والاوزاع بعين الواقع والانصاف - وجدنا ان قريش كانوا مصممين على معارضة الامام فى الخلافة على كل حال ، وابعاده عنها بكل سلاح حقدا وحسدا .

وقد ظهرت بادرة العداء لعلى من قريش اول ما ظهرت حين اراد النبى (ص) - وهو على فراش الموت ان يكتب لامته كتابا يعين فيه من يلى الامر بعده ، كما قال احمد امين المصرى فى كتاب يوم الاسلام ، فمنعته قريش ، وقالت كلمة يهتز لها العرش ، وهى «أ..هجر»... كما فى الصحيحين: مسلم- والبخارى - وهذه الكلمة بذاتها قرينة قاطعة على ان عمر ما نطق بها الا لعلمه و يقينه بان النبى (ص) اراد ان يسجل فى الكتاب الخلافة من بعده لعلى .. والافما هو الموجب لمنع الرسول عن الوصية ، ووصفه بالهجر؟ وهل كان عمر يمنع عنها ، و يقول عنه ما قال لو ظنوا احتمل ان النبى اراد ان يوصى بشىء غير الخلافة، او اراد ان

يوصى بالخلافة اليه ؛ اوالى ابي بكر؟. ولأستبعد اطلاقا ان النبي (ص) لوأصر على الكتاب، وسجل فيه الخلافة لعلى من بعده لاصر اقطاب قريش بدورهم على ان النبي كان يهجر ؛ واثبتوا - والعياذ بالله - هذيانه .. ولا بطل السنة بعد ذلك كل وصية يوصى بها فى مرض الموت .

ولولا هذا المحذور لاصر النبي على الكتاب ، وسجل . فيه ما اراد .. وايضا لولا المحاذير التى سنذكرها بعد لحظة لاحتج الامام بالنص على خلافته ؛ فمن قال : لما ذا لم يحتج على النص ؟. قلنا فى جوابه : ولما ذا لم يصر النبي على الكتاب ويسجل فيه ما اراد ؟. والجواب الجواب .

هذه اول بادرة من قريش ظهرت فى عدائهم لعلى بعد ان رأوا امارات الموت على رسول الله (ص) ؛ اما البادرة الثانية فقد ظهرت من قريش فى عداء على، حين اسرعوا الى سقيفة بنى ساعدة قبل ان يجرد النبي من ثيابه ، ويبرد جسده الشريف ، اسرعوا الى السقيفة ، واختلفوا على من يلى الامر ، وتجاهلوا عليا عن عمد ، وهم اعرف الناس بمكانه .. ولا سرا لا الحقد والبغضاء ، والا التصميم والعزم على ابعاد على عن كل ما يمت الى الخلافة بصلة .. اما الاعتذار بان عليا كان فى شغل شاغل لتجهيز النبي (ص) فهو اوهن من بيت العنكبوت ، لان التجهيز مهما طال امده فلا يستغرق اكثر من بضع ساعات .

فالبادرة الاولى من عداء قريش لعلى كانت ، والنبي فى ساعاته الاخيرة ، و جاءت الثانية قبل ان يوارى الجسد الشريف ، اما الثالثة من عداء قريش لعلى فقد جاءت بعد الدفن بقليل ، وهى اغتصاب فدىك ،

وافترء حديث : «نحن معاشر الانبياء لانورث » . فعلاواكل هذا ، واكثر من هذا و مع ذلك لم يرضوا من على بالسكوت والحياد، بل هجموا عليه ليكرهوه على الخضوع والاستسلام لابي بكر.. و كان من امر هذه الفارة على بيت فاطمة بضعة الرسول الاعظم (ص) ماكان .

واذا لم يتركوا فذلكا على ، ولم يقنعوا منه بالسكوت والحياد ، فهل يتركون له الحكم والخلافة ، ويقولون لهمديدك حتى نبايع بمجرد ان يتفوه بالنص ؟. و اذا منعوا النبي (ص) ان يكتب وصيته ، و هو في مرض الموت ، ونعتوه بالهجر كما في صحيح البخارى ومسلم ، فهل يسمعون لعلى ويطيعون اذا احتج عليهم بالنص او يضعون حديثا فى نسخ ما يحتج به الامام على غرار حديث : « نحن معاشر الانبياء لانورث » الذى اتفق السنة على صحته ، لاشيىء الا لان راويه خليفة ، و لو روى حديث النسخ ابن الخطاب - مثلا - لاصبح وحيامنزلاتماما كحديث « نحن معاشر الانبياء » الذى ما رواه احد الا ابو بكر.. وقد وضع عمرو بن العاص بعد حين ارضاعاً لمعاوية حديث : « ان آل ابي طالب ليسوا الى باولياء » . ولكنه ترك واهمل؛ لان راويه لم يتول الخلافة ، و لو تولاه لا عترف بها السنة و بالحديث المفترى عملا بمبدأ الاعتراف بالامر الواقع الذى تقدم الكلام عنه.

لاستبعد شيئا من ذلك - ايها القارى - فكله جائز ومعقول بالنسبة الى قريش .. الم يمكنوا بالرسول الاعظم (ص) ويصمموا على قتله، واوشك ان يتم كل شىء لولا ان يحول الله بينهم وبين ما ارادوا بخروج النبي من مكة ، ومبيت الامام على فراشه ؟. ومن الذى فعل بكر بلاء ما فعل، واقام

مجزرة اهل بيت محمد، قريش او غيرهم؟. ولو ان عليا أصر على الامتناع عن بيعة ابي بكر لقتلوه وفعلوا به وباهل بيته ما فعلوا بالحسين ونسائه واطفاله .. واليك الدليل ؛ قال الامام (ع) فى الخطبة ٢١٥ من خطب نهج البلاغه :

«اللهم انى استعديك على قريش ومن اعانهم، فانهم قد قطعوا رحمتى، واكفأوا أنائى ، واجمعوا على منازعتى حقا كنت اولى به من غيرى ، و قالوا الا، ان فى الحق ان تأخذه (١) وفى الحق ان تمنعه ، فاصبر مغموما، اومت متأسفا ، فنظرت فاذا ليس لى رافد ولا ذاب ولا مساعد إلا اهل بيتى، فضننت بهم عن المنية . فاغضيت على القذى ، وجرعت ريقى على الشجى، وصبرت من كظم الغيظ على امر من العلقم ، وآلم للقلب من حزالشفاقر». فقول الامام (ع) : « فضننت بهم - اى بأهله - عن المنية» واضح الدلالة على انه لو أصر على المعارضة ، والتمسك بحقه لاصابه ما اصاب ولده الحسين (ع) و انه انما سكنت حرصا على حياة اهله وعياله ، لا على نفسه ، لان عليا لا يبالى دخل الى الموت ، او خرج الموت اليه ، بل هو آانس بالموت من الطفل بشدى امه .

أما قوله (ع) : « فنظرت فاذا ليس لى رافد و لا ذاب و مساعد » فمعناه انه لو أعلن الحرب على خصومه ومعارضيه فى حقه لما وجد معه معينا ؛ و لادفاعا ، لان الناس منذ القديم ، و فى كل زمان و مكان -

(١) روى: ان تأخذه بالتاء ، وروى ان ناخذه بالتون ، وهو الاصح

بقرينة السياق .

يقفون مع المحق الضعيف بقلوبهم فقط وميولهم ؛ اما سيوفهم فمع القوى
محققا كان ام مبطلا.. وقد لخص الفرزدق هذه النظرية للحسين (ع)
حين سأله عن اهل الكوفة ، اخصها بقوله: «قلوبهم معك ، وسيوفهم عليك».
وهل يستطيع قلب معافى من الافات ان لا يكون مع على والحسين .

والخلاصة ان حقد قريش على الامام ، وحسدهم له ، واصرارهم
على حربه مهما كانت النتائج اذا أصر على حقه هو الذى منعه من الاحتجاج
بالنص ؛ كما ان خبث السرائر ؛ و سوء الضمائر هو الذى دعا الرسول
الاعظم (ص) ان يكف ويمتنع عن الكتاب بعد ان حاول واراد - و هو فى
مرض الموت - ان يعين لامته من يلى الامر من بعده .

لماذا سكّ القرآن عن اسم على بالذات :

وتسأل : لماذا لم ينص القرآن على الامام باسمه الصريح
الواضح ؟ .

الجواب :

ان الغرض الاول من النص هو بيان الحق ، وقيام الحجة على من
خالفه وعانده ، وليس من شك ان هذا الغرض يتحقق بذكر الوصف وغيره
من القرائن ، كما يتحقق بذكر الموصوف صراحة ، والفرق ان النص
الصريح الواضح حجة على العالم والجاهل لاشتراكهما فى تفهمه ومعرفته ،
اما النص بالوصف ، لا بالاسم فهو حجة على اهل العلم فقط - فى الغالب -
لانهم ادركوا به وبمورده ، وهم حجة على الجاهل حيث يجب عليهم ان
يبينوا المقصود من الوصف ، فان قصر العالم وقعت المسؤولية عليه وحده ، كما

هى الحال فى اكثر النصوص القرآنية والنبوية ، و منها آيات الصلاة و الزكاة ، فانها مجملة ، والتفصيل على اهل الذكر والعلم .

فكرة الامام المعصوم :

قال قائل من اهل السنة : ان فكرة الامام المعصوم سياسية بحت ، لا دينية ، وان مصدرها الاول هو خيال الشيعة ، فلقد تمنوا ان يتولى على الخلافة بعد الرسول (ص) ولما اخذها ابوبكر قالوا : ستكون لعلى من بعده ، فاخذها عمر ، فقال الشيعة : هى لعلى بعد عمر ، فاخذها عثمان .. و بعد ان ابعد على عن الخلافة ثلاث مرات اتته فى الرابعة ، وهى تلفظ النفس الاخير ، حيث وقف له معاوية وعائشة وطلحة والزبير ، ثم الخوارج .. حتى انتهت باستشهاده بعد امد قصير .

و لما استتب الامر لمعاوية اعدى اعداء العلويين قال الشيعة : سيمضى معاوية ، وتنتقل الخلافة الى الحسن (ع) ، ولكن الحسن استشهد قبل ان يمضى معاوية ، ولما مضى انتقلت الخلافة الى ولده يزيد .. وكان من امر الحسين (ع) ما كان ، ثم الذى جرى على عموم اهل البيت فى عهد الامويين والعباسيين .. فاصطدم شعور الشيعة بالخيبة ، ولم يبق لهم اى امل ، فعوضوا عن هذا الواقع الاليم بفكرة الامام المعصوم ، ليبتطلوا خلافة الاولين والآخرين الذين ظلموا اهل البيت ، وابعدهم عن مراتبهم التى رتبهم الله فيها ، ولو ان اهل البيت تمكنوا فى الارض ، وتقلدوا الخلافة لما كان لفكرة العصمة عين ولا اثر .

هكذا حاول بعض كتاب هذا العصر ان يشوه الحقيقة ، لا لشيء

الالينال من التشيع واهله .. واياكان الدافع فجوابه فيمايلي :

١ - ان فكرة العصمة لاتختص بالشيعة ، بل هي عند السنة بصورة اشد واعنف ، بل هي عندهم فوق العقل وتصوراته .. فلقدرووا في بعض كتبهم : « ان رجالات بالمدينة ، فاراد النبي (ص) ان يصلى عليه ، فنزل جبريل ، وقال :

« يا محمد لاتصل عليه ، فامتنع النبي ، فقال له ابوبكر : صل عليه فما علمت منه الاخير ، فنزل جبريل ثانية ، وقال : يا محمد صل عليه ، فان شهادة ابي بكر مقدمة على شهادتي » . (١) . ومعنى هذا ان علم ابي بكر بالرجل الذي مات بالمدينة هو فوق علم الله تعالى ، لان جبريل الامين لا ينطق الا بما من من علام الغيوب ،

وقال صاحب المنار عند تفسير : « و من الناس من يتخذ من دون الله اندادا - ١٦٥ البقرة : « ان الكرخي صرح قائلا بان الاصل قول ابي حنيفة ، فان وافقته نصوص الكتاب والسنة فذاك ، والاوجب تأويل نصوص القرآن والسنة النبوية على وفق قول ابي حنيفة » . وهذا الكرخي امام من ائمة الاحناف ، والسنة يستسقون ويستشفون بقبره ببغداد .. وحين كتبت الفقه على المذاهب الخمسة رأيت كل أوجل علماء السنة على هذا المبدأ الكرخي ، فاي عالم منهم يقلد اماما من الائمة الاربعة يجتهد بكل وسعه في تأويل الكتاب والسنة على مذهب الامام الذي يقلده .

١ - كتاب نزهة المجالس ج ٢ ص ١٨٤ ، وكتاب مصباح الظلام ج ٢ ص ٢٥
كما جاء في كتاب الغدير للاميني ج ٧ ص ٢٣٤ .

ابعد هذا يقال : ان فكرة العصمة مختصة بالشيعة وحدهم ؟ . وهل
فى عقيدة الاثنى عشرية ما يشبه هذا من قريب ، ام بعيد ؟ . ولقد جاء فى
كتبهم ان الائمة الاطهار من اهل بيت الرسول (ص) قالوا لشيعتهم : « لا-
تقبلوا علينا خلاف القرآن ؛ فان تحدثنا بموافقة القرآن ، و بموافقة
السنة ، افان الله وعن رسوله نتحدث ، فاذا اتاكم من يحدثكم بخلاف ذلك
فردوه ، ان لكلامنا حقيقة ، وان عليه لنورا ، ومالا نور عليه فذاك قول
الشیطان » .

وما قال الشيعة بعصمة اهل البيت الا لانهم لا يقولون ولا يفعلون الا-
بوحى الكتاب والسنة .

وقال الشاطبى فى الموافقات ج ٣ ص ٧٧ : « ان طائفة من السنة قالت
ان قول ابى بكر وعمر حجة ودليل » . وليس من شك ان كل من استدل بقول
انسان ، واتخذ منه حجة للحق فقد قال بعصمته ؛ اراد ذلك ؛ ام لم يرد..
هذا الى ان السنة اجمعوا قولاً واحداً على عصمة الامة لحدث « لا تجتمع
امتى على ضلالة » . واذن ، محمد (ص) هو المصدر الاول لفكرة العصمة
وليس الشيعة .

وندع الكرخى وغيره من السلف الدابر ، وننظر الى عالم كبير من
علماء السنة فى هذا العصر وعميد لكلية اصول الدين فى جامعة الازهر ،
وهو الشيخ عبدالحليم محمود ، فقد ألف كتاباً ضخماً ، اسماه التفكير
الفلسفى فى الاسلام ، قال فى ص ١٧١ : « لو كان هناك ما يشبه ولو من
بعيد رغبة الرسول فى ان يتولى على الامر من بعده لسارع ابو بكر وعمر الى

بيعته». اى ان عدم رغبة الشيخين فى ان يتولى على الخلافة دليل قاطع على ان رسول الله لم ينص بالخلافة على الامام . .

أليس هذا هو معنى العصمة بالذات ؟ . ولا أدري كيف يسوغ لهذا الشيخ ان يستدل با متناع الشيخين عن بيعة على ، ان يستدل على عدم رغبة الرسول فى خلافة على ، ولا يسوغ لغيرهم ان يستدل بمعارضة على لابي بكر وعمر على عدم رغبة الرسول فى خلافتهم ؟ .. اما حرص الشيخين على رغبة رسول الله (ص) فقد ظهرت بأجلى معانيها حين قال عمر عن خاتم النبيين: «ما شأنه ؟ أهجر؟» كه فى صحيح البخارى ومسلم ، ومع هذا فان السنة يعتقدون بعصمة عمر ، بل ويقدمون قوله على قول رسول الله ويحرمون متعة النساء والحج ، وقول - حى على خير العمل - فى الاذان لان عمر قال : «ثلاث كن على عهد رسول الله ، انا انهى عنهما واحرمهن ، و اعاقب عليهن : متعة النساء ، ومتعة الحج ، وحى على خير العمل» .. (انظر شرح التجريد للقوشبحى من علماء السنة ، آخر مبحث الامامة) .

وبعد ، فان الشيعة الاثنى عشرية يعتمدون لعقيدتهم على بديهة العقل ، وعلى كتاب الله وسنة نبيه القطعية سنداً ودلالة . انظر فصل اصول العقائد ما يجب بالشرط ، ويجب بشرط من هذا الكتاب) . وقد استدل الشيعة على اصل فكرة العصمة بقوله تعالى : « لا ينال عهدى الظالمين - ١٢٤ البقرة» . وعلى عصمة أئمتهم بأية التطهير ٣٣ ، وبحديث الثقلين الذى جعل اهل البيت وكتاب الله توأمين متساوين فى هداية الخلق الى الحق . وبحديث - على مع الحق ، والحق مع على ، و حديث على مع القرآن - و

القرآن مع على- والحديث الاول ثابت بالتواتر عند السنة قبل الشيعة ، وقد تتبع طرقه واحصاها في رسالة خاصة الشيخ قوام الدين القمي الوشوى ، و اسمها حديث الثقلين ، والحديث الثانى رواه الترمذى ج ٢ ص ٢٩٨ طبعة ١٢٩٢ هـ ، وروى الحديث الثالث ابن حجر فى صواعقه ص ٧٥ ، و صاحب مستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٢٤ طبعة ١٣٢٤ و غيره (انظر كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة).

على والعصمة:

على ان عصمة الامام على بن ابي طالب لا تحتاج الى النص، لانها ثابتة بالحس والوجدان من سيرته ، وتاريخ حياته ؛ ولذا آمن بها كثير من اهل الاديان والمذاهب- غير الاسلاميه- من حيث لا يريدون ولا يشعرون بل آمن بها كذلك العديد من الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر... و كل من درس حياة على يؤمن ايمانا جازما قاطعا بانه يختلف عن الناس فى عقله و عاطفته وجميع صفاته.. ابدأ لا يشبههم فى شىء ولا يشبهونه فى شىء الا فى الشكل... واذا لم يكن على من هذا البشر فليس من الضرورى ان يكون أله او نصف اله ، بل هو طبيعة ثالثة فوق الخلق، ودون الخالق ، او ان الله سبحانه خصه ومحمدا بمالم يخص به احداً من خلقه .

ومن شك فى شىء من هذا فليقرأ سيرة على ؛ او يقرأ بعض ما كتبه عن على علماء الغرب والشرق - من غير الشيعة... و اذكر هنا كلمة واحدة مما نشره الاستاذ احمد عباس صالح فى مجلة الكاتب المصرية عدد نيسان سنة ١٩٦٥ بعنوان «الصراع بين اليمين واليسار فى الاسلام» . والاستاذ

صالح من كبار الادباء فى هذا العصر، ورئيس تحرير المجلة المذكورة، قال :
« لولم يسر على سيرته المثالية أكانت تبقى تلك الجذوة - يريد
جذوة الحق كما يدل السياق - مشتعلة وكامنة فى النفوس ». أى ان عليا
بسيرته المثلى اشعل فى نفوس عارفيه وفارضى سيرته جذوة الحق .

ثم قال : « قادمعاوية جيش الشام ، وهو الرجل الذى يمثل النقيض
من على بن ابي طالب تماماً ، هو شخصية فريدة ، جمعت كل خصائص
الرجل الذى لا تشل حركته أية قيمة من القيم الدينية و الانسانية . .
انه ابن ابي سفيان الشهير ، و ابن تلك المرأة التى مضغت
كبد حمزة عم النبى حين سقط قتيلا .. ان فى نفس معاوية ارادة
الاتصار والغلب . . . ان فيه قسوة الاعصار ، و عبقرية القدر الغاشم . .
انه قطب السلب المطلق الذى يصطرع فى قلب الانسان كما يصطرع
فى قلب الكون ، والسلب فى الكون يتجه الى الشر ؛ والايجاب يتجه الى -
الخير ، وقد تصادم القطبان : السالب - اى معاوية - والموجب - اى على -
بقدر ما يتيح الامكانية البشرية ان تكون سلبا مطلقا ؛ او ايجابا مطلقا »
اى ان عليا فيه جميع امكانيات الخير والحق التى يمكن ان توجد فى -
الطبيعة البشرية ؛ كما ان معاوية فيه جميع امكانيات الشر والباطل التى
يمكن ان توجد فى الطبيعة البشرية ، وقد تصادما ؛ وكل على صفته ..

ثم قال الاستاذ صالح : « لقد تربى معاوية فى حجر ابي سفيان راس
القوى الرجعية فى مكة ؛ وتربى على فى حجر النبى بكل ما تحمله النبوة
من فداء وتضحية وايجابية للخير المطلق »

اثبت الاستاذ صالح للإمام صفات الانبياء و الخير المطلق ، و لا
عدائه صفات اللؤماء والشر المطلق ، وهل للعصمة من معنى وراء ذلك ؟
ولكن لو سألنا الاستاذ صالح عن عصمة اهل البيت الاطهار لانكرها وتشدد
فى انكاره .. وهكذا كل من قرأ سيرة الأئمة الابرار بقلب سليم يؤمن
بعصمتهم فى جنانه تماما كما يؤمن الشيعة وزيادة ايضا ؛ ولكنه ينكرها
بلسانه من حيث لا يحس ويشعر .

المهدى المنتظر عند الشيعة والسنة

قد يظن ان فكرة المهدى المنتظر من خصائص الشيعة . وانها مقصورة
عليهم وحدهم ... وهذا خطأ فقد شاعت هذه الفكرة قبل الاسلام فى -
اليهودية ؛ وشاعت ايضا فى النصرانية ؛ وغيرها من الاديان ، واطلق على -
المهدى المنتظر لقب والمنقذ والمحرر والمسيح والمخلص - بتشديد
اللام وكسرها - اما الاحاديث التى رواها السنة عن النبى فى المهدى المنتظر
فقد شغلت حيزا كبيرا من كتبهم ؛ ومنها الصحاح كالترمذى . وابن ماجة ؛
وابى داود ؛ ومنها مسند احمد ؛ ومستدرك الصحيحين ، وكنز العمال ؛ و
غير ذلك ؛ اما الكتب التى وضعها السنة فى اخبار المهدى بالخصوص
فكثيرة ، ولعلها لاتقل عن كتب الشيعة فى هذا الموضوع كما وكيفا .

اذن فكرة المهدى المنتظر ليست شيعية فقط ، ولا سنية فقط ، بل
هى اسلامية يدين بها كل مسلم ؛ بل يدين بها اليهود الذين ما زالوا فى
انتظار المسيح ، وايضا يعتقد كثير من النصارى برجعة المسيح ثانية الى
الارض ، وبعد ان اتفق الشيعة والسنة او اكثرهم على ظهور المهدى المنتظر

وعلى اسمه ونسبه ؛ و كنيته ولقبه ، وانه يملأ الارض قسطا وعدلا ، بعد هذا اختلفوا فيما بينهم : هل ولد ؛ اوسوف يولد ؟ قال الشيعة : انه ولد ، و انه موجود ، ولكنه مستور ، وقال السنة او اكثرهم : كلا ، انه يولد فى آخر الزمان ... وما هذا بالامر الهام ، مادام الاختلاف فى التقديم والتاخير لافى اصل الفكرة واصولها .

لما ذا الامام الغايب

اعترض السنة ؛ ومنهم الرازى والايجى والمتعصب ابن تيمية ، اعترضوا على الشيعة ؛ وقالوا : ما الفائدة من امام غائب ؛ لا يرى له اثر ولا خبر ؟ .

واجاب العلامة الحلى فى كتاب الالفين بان القصور جاء من الامة ، لامن الله ؛ ولامن الامام المستور ، و حفظ هذا الجواب كل من جاء بعد الحلى ؛ و كرره فى حلقات الدرس وغيرها ، كاية محكمة ، اورواية مسلمة دون ان يفكروا فيما يمكن ان يقال عن هذا الجواب ، ويرد عليه .
واجاب المحقق الطوسى فى التجريد بان مجرد وجود المعصوم لطف سواء أتصرف ام لم يتصرف ، وتبنى هذا الجواب الملاصدرا ، ولكن اوردته بأسلوبه الخاص فى كلام طويل ، ذكره فى شرحه لاصول الكافى كتاب الحجة ، ونحن بدورنا نلخص ونوضح ما فهمناه من كلامه بأسلوبنا الخاص بلا ادنى تصرف فى المعنى ، وهوان المعصوم حجة ، ما فى ذلك كريب ، ولكن للحجة وصفان : الوصف الاول :

ذاتى أى ثابت للذات بصرف النظر عن تبليغ الاحكام وبيانها للغير ؛ والزامه

بها، والوصف الثاني عرضي وإضافي، وهو تبليغ الأحكام للغير، والقاء الحجّة عليه، وبديهة أن نفى العرض لا يستدعي نفى الذات؛ بل العكس هو الصحيح، وأحسن مثال نوضح به مراد هذا الفيلسوف هو أن الحجّة كالماء المطلق؛ ظاهر بنفسه، ومظهر لغيره؛ وطهارته الذاتية باقية على ماهي، وإن انتفت طهارته العرضية أي لم يتطهر به المتنجسون . . وهكذا إذا لم تبلغ الأحكام للغير، فإنها تبقى قائمة بنفسها، بل هي باقية ببقاء الله، وبهذا نجد تفسير قول الإمام الصادق (ع) : «الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق» - (١)

هذا توضيح لما فهمناه من كلام صدر «المطلسم» والذي ختمه بقوله : «فافهم، ولا اراك تفهم، لانك لست من الطيارين ولا السيارين» اجل؛ يا استاذنا ولا من الغواصين في بحار التكوين .

وبعضهم اجاب بما رواه مسلم في آخر باب الامارة عن رسول الله (ص) انه قال: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية».

بتقرير ان لكل زمان اماماً تجب معرفته؛ وقال القزويني في كتاب الامامة الكبرى: جاء في هذا الحديث ج ٢ ص ٩٦ من مسند احمد بلفظ: «من مات بغير امام مات ميتة جاهلية» ومثله في حلية الاولياء ج ٣ ص ٢٢٤، وكنز العمال، كتاب أحكام البيعة؛ ومستدرك الحاكم .

هذا ملخص سريع لما اطلعنا عليه من الاجوبة؛ وسواء أكانت في واقعها رداً وتفنيداً لعراضات السنة، أم كانت بسطاً وشرحاً لعقيدة الشيعة بلا رد وتفنيد - فإننا نعطف عليها ما يلي :

(١) قد يكون المراد بالحجة في هذه الرواية - حكم الله سبحانه في كل واقعة من حيث هي، يصيبها من اصاب، ويخطئها من اخطأ كما يقول الشيعة .

ان الاصول الاولى للدين كالايمان بالتوحيد ونحوه - ينظر اليها من خلال العقل، ما في ذلك ريب، اما الايمان ببعض التفاصيل والغيبيات المتفرعة عن الايمان بالله وكتبه ورسله ، كالايمان بوجود الجن والملائكة فلا ينظر اليه من خلال العقل؛ او العرف والتقاليد، وانما ينظر اليه من خلال كتاب الله ، وسنة نبيه؛ قال تعالى: «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة» اول البقرة فالايمان بالغيب هو الوصف الاول للمتقين وتأتى بعده اقامة الصلاة مع العلم بانها عمود الدين . والغيب هو الذى لا يمكن التوصل الى معرفته الا بالوحي من السماء من كتاب الله وسنة الرسول : «وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو - ٥٩ الانعام» والايمان بوجود المهدي المنتظر ايمن بالغيب؛ وكل ايمن بالغيب يقاس بالوحي وحده؛ فان كان له مصدر منه فهو حق وهدى؛ سواء أكان له اثر كالايمن باليوم الآخر، أم لم يكن كالايمن بوجود سفينة نوح ، وناقصة صالح؛ واذا لم يكن له مصدر في كتاب الله وسنة نبيه فهو جهل وضلالة، وقد ثبت عند الشيعة النص عن المعصوم ان المهدي حي يرزق، فوجب ان يؤمنوا ويتعبدوا بهذا النص حتى ولو لم يثبت عند غيرهم، والا كانوا من الذين عناهم الله بقوله: «يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم» لان الشرط الاساسي لوجوب العمل بالنص هو أن يثبت عند الباحث عنه، والمطلع عليه ، لا عند غيره ، وليس من شك انه لو ثبت النص عند السنة على وجود المهدي الآن وقبله وبعده لقالوا بمقالة الشيعة، وان لم يكن للغائب اى اثر وخبر، وايضاً لو لم يثبت النص عند الشيعة لقالوا بمقالة السنة .

والاختلاف في ثبوت النص وعدمه كثير بين المسلمين، ومنه ما جاء في صحيحى مسلم البخارى كتاب العيدين - من ان ابا بكر دخل على رسول الله

فى بيت عائشةؓ، فوجد جارئين تغنيان فى محضر النبىؐ، فغضب ابوبكرؓ، وقال :
 مزماره الشيطان عند رسول الله (ص)؟ فقال النبىؐ: دعهما. فصدق السنة وآمنوا
 بان النبى كان يستمع لمزماره الشيطان على حد تعبير ابى بكرؓ، آمنوا
 ثقة بالبخارى ومسلمؓ، وانكر الشيعة ذلك، لانهم لا يثقون بالبخارى ومسلم
 لا، لانهما من السنة فان الشيعة لا ينظرون الى مذهب الراوى، بل الى صدقه
 فى النقل، وروايته عن الصادقينؓ، وقد ثبت عند الشيعة، وعند جماعة من السنة
 ايضا ان البخارى ومسلم يرويان الصحيح والضعيف: هذا من جهة، ومن جهة ثانية
 ان الشيعة ينزهون مقام النبوة عن الشيطان ومزماره.. ولكل رأيه ووجهته .
 واذن؛ فالمهم هو ثبوت النص عند من اطلع عليه بصرف النظر عن
 حقيقة الثابت بالنص و آثاره . . وعليه يكون اعتراض السنة على الشيعة
 بعدم الخبر والاثر للامام فى غير محله، والا جاز للشيعة ان يعترضوا على
 السنة لانهم آمنوا بان الرسول استمع لمزمار الشيطان .

وتسأل: ان هذا يصلح جوابا لاعتراض السنة وانتقادهم؛ ما فى ذلك
 ريب. بل يصلح ردًا لكل شبهة تقال حول الايمان بالمغيبات، ولكن نود ان
 نعرف ما للايمان بالامام من فوائد. فهل لك ان تبين شيئًا من ذلك .

الجواب :

ان الامة او الطائفة والجماعة لها مقومات تحقق وحدتها، وتجمع
 شتاتها، وتربط افرادها بعضهم ببعض، ويستحيل ان توجد الوحدة بين
 اثنين فضلا عن الامة او الطائفة الابجامع ورابط بينهما، والجامع الاول

بين المسلمين - على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم - شهادة ان لا اله الا الله و ان محمدا رسول الله ، اما المسلمون السنة فتجمعهم هذه الشهادة مع الايمان بان النبى (ص) انتقل الى ربه دون ان يوصى ، و يستخلف احدا ، اما الجامع بين المسلمين الشيعة فهو شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله مع الايمان والاقرار بالولاية للائمة الاطهار من اهل بيت الرسول ؛ و انه قد نص مباشرة على من كان منهم فى عهده ؛ و بالواسطة على من جاء من بعده - كما اسلفنا - واكد الشيعة على هذه الولاية توكيدهم على التوحيد والنبوة ؛ و اوجبوا البحث و النظر لمعرفة الامام المعصوم تماما كما اوجبوه لمعرفة الله ونبوة محمد (ص) ، و قد استدلوا على ذلك بنصوص كثيرة ، منها « لا يكون العبد مؤمنا حتى يعرف الله و رسوله ، والائمة كلهم ، وامام زمانه »

والمراد بامام الزمان المعصوم الغائب من اهل البيت ؛ اما الحكمة من وجوده - كما نرجح - فهى ان هذا الايمان هو الضامن والكفيل لعقيدة الولاية واستمرارها مدى الحياة ، لان الاعتقاد بوجود امام من آل الرسول فى جميع الازمنة ، وان الارض لو خليت منه لساخت باهلها - يشد عزم الموالى ؛ ويدفعه الى الحرص عليها ، والاستماتة فى سبيلها . ومنذ ايام قرأت لبعض حاملى شهادة الدكتوراة فى الفلسفة - كلمة تقول : « كيف استطاعت عقيدة التشيع ان تعيش فى قلوب قوم الى اليوم بالرغم مما احاط بهم من اضطهاد فكرى وسياسى ، بينما اندثرت فرق جديدة آراؤها بكل اعجاب وتقدير ، واعنى بهم المعتزلة » .

وقد غاب عن هذا المتعجب ان السبب لبقاء عقيدة التشيع وخلودها هو الايمان بولاية المعصومين من اهل البيت الاطهار: واحياء ذكرهم وآثارهم وسننهم ، والايمان بان الارض لا تغلوم من واحد منهم منزعه عن الخطاء والخطيئة .. ولو ان المعتزلة دانوا وآمنوا بهذا الولاء لآل محمد (ص) لبقوا وبقيت آراؤهم الى يوم يبعثون تماما كالشيعة والتشيع ؛ ولكنهم رفضوا ذلك ، فاندثروا واندثرت آراؤهم مع انها جديرة بكل اعجاب وتقدير على حد تعبير الدكتور المذكور، وكما سقط المعتزلة سقط الى الابد كثير غيرهم كالنواصب ومن اليهم من اهل المذاهب .

هذا، الى ان الايمان بوجود الرئيس - مستورا كان ام مشهورا - يخلق في نفوس اتباعه قوة معنوية تجعل منهم اسرة واحدة ، وقلبا واحدا على اختلاف لغاتهم وتعدد اوطانهم ؛ و لهذه الغاية حافظ المسلمون من قبل على منصب الخلافة بعد ان اضمحلت الدولة العباسية ، واضطر البويهيون وغيرهم من الحكام ان يبقوا لقب الخليفة لواحد من العباسيين، يخطبون باسمه في المساجد وعلى المنابر، ويقدمونه في الاحتفالات الدينية وغيرها و ما كان له اي اثر ولا خبر الا لحرص على وحدة المسلمين والاخوة الاسلامية . . وقد ضج كثير من المسلمين عند سقوط الدولة العثمانية ، وقامت قيامتهم خوفا على منصب الخلافة من الضياع والزوال ، ورثاها شوقي باكثر من قصيدة ، وقال فيما قال :

قل للخلافة قول باك شمسها بالامس لما أنت بدلوك

وقال من قصيدة ثانية :

الهند والهة و مصر حزينه تبكى عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس أمحامن الارض الخلافة ماح
وكلنا يعلم من هم الخلفاء العباسيون والأتراك العثمانيون ؟ . . .
ولكن الرئاء والبكاء كان على منصب الخلافة ، لانه اللواء الذى ينضوى
تحتة كل من نطق بالشهادتين ، وهذى هى بالذات الحكمة من الايمان بالامام
المنزه عن الخطا و الخطيئة وأن كان مستورا ، وهى حكمة بالغة تجمع
قلوب الموالين لال البيت على الاحساس المتحد.. وقد ادرك هذه الحكمة
الانكليز ، وهم من ارقى الامم ، فحافظوا على التاج البريطانى ؛ ووضعوا
رسمه على العلم والسلع ايضا للدلالة على انهم اسرة واحدة لاب واحد و
هو حامل التاج مع انه اسم لغير معنى ، و حاكم بلا امر ونهى . . ولا يصل
اليه احد من رعيتة واهل مملكته الا القليل النادر . . وهكذا ميكاد و
اليابان الذى ينظر اليه اليا بانيون كاله اوصافه . . فهل الانكليز واهل
اليابان عقلاء والشيعة مجانين ؟

حياة المهدي المنتظر:

وتسأل: يقول الشيعة: ان المهدي محمد بن الحسن (ع) حى يرزق،
وان حياته سوف تمتد الى آخر الزمان .. وليس من شك ان هذا جائز و ممكن
فى نظر العقل، ولكن العبرة بالوقوع؛ لا بالامكان ؟ .

واجاب عن هذا بعض من سلف، وليته لم يجب .. قال : وأى اشكال
فى ذلك؟ . فالخضر حى، والشيطان حى ! .. ولو سمع اوقراً احد المتشككين
هذا الجواب لصار شكه يقينا ، وتحمل المسؤولية نفس المجيب اذا لم

يكن من الغافلين الذاهلين . . ولا أدري كيف تجرأ على التمثيل أو الا
 استشهاد بالشيطان ! . وكان الأولى أن ينزه عنه مقام العصمة والامامة ؟
 والحق أن الجواب عن هذا السؤال لا نجده عند العقل من حيث
 الوقوع الذي إرادته السائل، وإن حاكم العقل بالامكان، ولكنه غير مراد
 للسائل . . ونجد الجواب جلياً واضحاً عند الدين ، و يستسيغة و يؤمن
 به كل من آمن بالله وكتابه وسنة نبيه ، على شريطة أن يثبت عنده النص
 الصحيح الصريح على ذلك؛ وقد ثبت هذا النص عند الشيعة دون السنة أو
 أكثرهم ، فأمّن به أولئك ، وانكره هؤلاء وما أكثر ما حدث ذلك . .
 ولكل رايه وعذره ؛ وما لاحد منهما أن يعترض على الآخر؛ لأن الشرط
 الاساسى للعمل بالنص هو أن يثبت عند من يطلع عليه ، لا عند غيره ،
 كما اسلفنا في جواب من قال : أية جدوى من الايمان بامام غائب ،
 لاثاره ولاخير .

ومما قلناه في كتاب المهدي المنتظر والعقل : أن كثيراً من الناس
 يخلطون بين الممتنع عادة، والممتنع عقلاً ، ويتعذر عليهم التمييز بينهما،
 فيظنون أن كل ما هو ممتنع عادة فهو ممتنع عقلاً .. فلقد أخبر القرآن
 بصراحة لا تقبل التأويل أن السيد المسيح كلم الناس ، وهو في المهدي، و
 أبرأ الأكمه والأبرص من غير علاج ، وأنزل مائدة من السماء بمجرّد
 الدعاء ، وأنه مازال حياً ، و سيبقى حياً الى الوف السنين أو الوف
 الاولوف ! .

وإن النار كانت برداً وسلاماً على إبراهيم ، وإن عصا موسى صارت

ثعبانا ، وان الحديد لان لداود ، وسبح معه الطير والجبال ، وان سليمان
استخدم الجان ، وعرف لغة النمل والطيور .

وهذه الخوارق ممتنعة عادة ، جائزة عقلا ؛ ولو كانت ممتنعة فى
نفسها لامتنع وقوعها على يد الانبياء وغيرهم .

ولانها جائزة فى العقل ، واخبر عنها الشرع وجب التصديق ، فكذلك
بقاء المهدي جائز عقلا واقع ديناً بشهادة الاحاديث الثابتة عن رسول الله و
اهل بيته المعصومين ، والايمان بوجوده حيا ليس باعظم من الايمان بتلك
الخوارق ، بل الجميع من باب واحد .

اشارة

ونختم الفصل بهذه الاشارة ، وهى ان فكرة العصمة وال ١٢ اماما
من قريش ، والمهدي المنتظر والمتعة كلها اسلامية ، لامذهبية سنية ، ولا
شيعة ، لاتفاق المسلمين عليها جميعا وانما الاختلاف فى الصغرى والتطبيق ،
فالسنة ينسبون العصمة للامة ، وبعضهم ينسبها للشيخين ايضا ابى بكر و
عمر كما اسلفنا ، والشيعة يثبتونها للائمة الاطهار من آل محمد (ص) ؛ و
السنة يعدون ال ١٢ اماما من غير اهل البيت ، والشيعة يوجبون الحصر
بهم ، والسنة يقولون : المتعة شرعت ، ثم نسخت ، و الشيعة يقولون : لم
يثبت النسخ . ولو ثبت عندهم لقالوا بمقالة السنة ، ولو لم يثبت عند السنة
لقالوا بمقالة الشيعة ، والسنة قالوا : لم يلد المهدي بعد ، وقال الشيعة ولد .
وهكذا فى كثير من المسائل .

فلسفة الحكماء

التعجب من المعاد هو العجب

انا واليوم الاخر:

ماشفقت بشيء شغفى بالقراءة عن حديث الحياة بعد الموت، والاستماع اليه، والى حل اسرار البعث والغازه واى انسان لا يتجه بكل حواسه، ويقبل بكيانه على الحديث عنه وعن مستقبله، وبالخصوص اذا كان عن احيائه بعد الفناء، وخلقه خلقا جديدا .. وايضا ما تخوفت من شيء تخوفى من القبر ووحشته، ثم موقفى للعرض والحساب بين يدى عالم الغيب و الشهادة .، اما جهنم فنعوذ بالله من لهبها و كلبها .

وكل الناس من ملوك وصعاليك ينتهون - لامحالة - الى قبر؛ طوله خمسة اشبار اوسمة فى عرض شبرين ونصف او ثلثة .. ولكن هل هذا للحد هو غاية -ياة الانسان، ونهاية عقله العجيب الغريب الذى يملك ما يملك من الطاقات، ويفعل ما فعل وسوف يفعل من المعجزات ؟ .هل هذا للحد هو جزاء الحق والعدل للصالح والطالح على السواء ؟ . وهل معنى الديمقراطية المساواة بين القاتل والمقتول ظلما وعدوانا ؛ وبين العالم و البجاهل ؟ . واذا كان الامر كذلك فإى فرق بين الانسان و الهوام و الديدان ؟ .

وخير للانسان الف مرة ان يعيش بلا عقل؛ ويمتلىء دماغه بالقذارة.
من ان يكون له عقل نير يرتفع به الى القمر والمريخ ، ثم ينتهى كما تنتهى
الحشرات والحيوانات .

واعجب من العجب ان يقول الانسان : انا ابن جلا ، ويرى نفسه من
الذوات والشخصيات ، ويطلب من الغير ان يحترمه ويعظمه ، وان يجزى
بالاحسان احسانا ، وبالسّيئات عفوا وغفرانا ، وهو فى نفس الوقت يعتقد
انه تماما كالنبات والحشرات ، وانه سيختفى الى الابد ...! واذن ، لماذا
تكريم الاموات ؛ والحفاوة بجنائزهم ورفاتهم ؟ و لماذا اقامة الحفلات
لتخليد الذكر؛ واحياء الآثاّر؟.

لقد آمنت باليوم الآخر اولا ما آمنت تقليدا وتلقينا ، و شب هذا
الايمان عن الطوق فى مدرسة النجف الاشرف ، و ببلغ اشده بعد أن
امتهنت التأليف ، و اذعت ما عرفت عن هذا اليوم فى كتاب «الآخرة و
العقل» وفى العديد من كتبى ، كالاسلام مع الحياة ، ومعالم الفلسفة الاسلامية ،
و فلسفة المبدأ والمعاد ، ثم عدت الى هذا الموضوع مرات ومرات فى
التفسير الكاشف لمناسبة آيات الساعة والحساب والجزاء .. والآن اعود
اليه فى هذا الكتاب ، ولأوقفات ولفتات جديدة لدى كى اعطفها على ما
اسلفت سوى تساؤلات تؤكد وتوضح الفكرة ودليلها - كما رأيت - ولذا
سأوجز الكلام ما استطعت .

وحديث المعاد يمكن تلخيصه بها تين الكلمتين : «قال من يحيى
العظام وهى رميم قل يحييها الذى انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم -

ويمكن ان يؤلف فيه مجلد ضخمة ، و نتيجة الاطناب و الایجاز واحدة ، و هي ان المعاد ممكن عقلا ، و ثابت شرعا ، فيجب الايمان و التصديق .

لماذا انكروا البعث ؟

قد يقال : ان البعث والحياة بعد الموت من اصعب الحقائق فهما ، واكثرها غموضا ، و ابعدها عن التصور والشعور ، لان ما من احد رأى ميتا عاد الى الحياة بعد أن فارقتها انسانا كان ام حيوانا ام نباتا .. واذن ، فأى عجب فى قول من قال : « أُنْذَاكُنَا عَظَامًا وَ رَفَاتًا نَالِ الْعَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا - ٤٩ الاسراء » أى عجب فى هذاكى يعجب منه سبحانه ، ويقول : « وان تعجب فعجب قولهم ائذا متنا و كُنَّا نرا باءنا لفى خلق جديد - ٥ الرعد » .

الجواب :

لقد اراد سبحانه بهذه الآية ان البعث فى ذاته سهل يسير على الافهام ، وان الغموض والتعقيد جاء من غفلة الجاحدين ، وسبات عقولهم عن الكون وانفسهم ، وانهم لو اتبهبوا وفكروا قليلا لفاسوا الآخرة على الدنيا ، وادركوا من النظرة الاولى ان الذى قدر على خلق الاشياء من لاشيىء فهو على جمع اجزائها بعد التفريق والشتات اقدر ، وعليه ايسر ، كما قال ، جل شأنه : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، و هو اهلون عليه - ٢٧ الروم » . وقد تكرر هذا المعنى بشتى الاساليب فى العديد من الآ-

يات ، وادجزه الامام (ع) بقوله :«عجبت لمن انكر النشأة الاخرى ،وهو يرى النشأة الاولى »! .. وعليه يكون العجب من البعث هو العجب ! ..
«ومن اصدق من الله قيلا- ١٢٢ النساء » .

ولكن المصايين بداء القيل والقال قدا بوا الان يشككوا ويضللوا
قال الشيخ الانصارى فى كتابه المعروف بالرسائل ، آخرباب الظن :
« الانصاف ان النظر والاستدلال بالبراهين العقلية - فيما يعود الى اصول
العقائد - للشخص المتفطن لا يفيد بنفسه الجزم ، لكثرة الشبهات فى-
النفس ، والمدونة فى الكتب ، حتى انهم ذكروا شبهات يصعب ان يجيب
عنها المحققون الصارفون اعمارهم فى فن الكلام ، فكيف بغيرهم ... و
الشیطان یغتمم الفرصة لالقاء الشبهات ، والتشكيك فى البديهيّات، وقد
شاهدنا جماعة صرفوا اعمارهم فيها ، ولم يحصلوا منها الا القليل » .

واوضح دليل على صدق هذا الاستاذ الكبير انك كلما اكثرت من
قراءة كلام الفلاسفة ، وتوغلت فيها ازدادت حيرة وارتابا .

وبعد ، فان من تتبع اقوال الجاحدين لا يجد عندهم شيئا من المنطق
الامجرد الزعم بان البعث بعد الموت مستحيل الوقوع ، لانهم مارأوا ذلك
بالعيان والوجدان !.. ومن أجل هذا كان رد القرآن الكريم فى جميع
آياته يهدف الى ابطال هذا الزعم وخطئه.. ونعطف نحن على تلك الايات،
اونزيدها توضيحا بان نفى الامكان واستبعاده لعدم الوقوع بالفعل - لا
يصلح دليلا ولا قرينة على النفى ، فبالامس القريب كان احفادنا ، وهم
الذين ألفوا الهاتف والطائرة والتلفزيون - مثلا - ولم يستبعدوا شيئا من

ذلك كما استبعدناه نحن من قبل، كان هؤلاء الصغار الى ايام قلائل يستبعدون ولا يتصورون ابدا صعود الانسان الى القمر ، ويرونه فوق قدرة العقل ، و مع هذا صعد الانسان الى القمر ، ووطأ باقدامه وتحدث الى اهل الارض من فوقه ؛ وسمعه العالم كله حتى الاطفال .. بل رأوه يمشى، وينتقل عليه من مكان الى مكان . . .

أبعد هذا نقيس امكان البعث بالمألوف والمعتاد ؟ . وما لنا وللزهرة والقمر .. لندع السماء وما فيها ، وننظر الى اشياء هذه الارض صغيرها وكبيرها من النملة وطاقتها الى الجبال والبحار ، ونفكر قليلا في عجائبها ، ولا بد ان ننتهي من هذا التفكير الى اننا لولم نر النملة بالعيان والوجدان - فضلا عن غيرها - لاعتقدنا جازمين بانها من الممتنعات ذاتا وعقلا ... و هكذا حال البعث بعد الموت ما يجده جاحد و استبعده مستبعد الا لانه ما رآه بعينه ، ولا لمس يده .. وعلى منطقته هذا ينبغي ان ينكر ايضا الكثير من طاquاته الروحية والجسمية ، لانها لا تزال مجهولة لديه .

لماذا وجد الانسان :

ماهى الحكمة الالهية من خلق هذا الانسان الصغير بجسمه و حجمه ، الكبير بعقله وآثاره ؟ لقد اودع الله سبحانه فى الانسان من - الاستعداد والطاقة مالم يودعه فى أى مخلوق آخر ، وبهذه الطاقة وهذا الاستعداد بحث الانسان عن نفسه ، وعماء الطبيعة ، وعن الطبيعة ، و سخر الكثير من اشائها ؛ ولا يزال ، وسوف يسخرها او يسخر منها مالا تتصوره العقول والاهام .. هل الغاية او الحكمة من خلق الانسان ووجوده

ان يقيم فى هذه الارض امدا قصيرا ، ثم يذهب بلا رجعة تماما كما يدخل بعض المطاعم مختارا او مضطرا ؛ ثم لا يعود اليه ؟ وهل يحتاج هذا الدخول والخروج الى كل الطاقات والاستعدادات التى زود الله بها الانسان ؟

ولاجواب لهذا السؤال اعند خالق الانسان ، فهو وحده الذى يعلم ماذا اراد من خلقه .. ان الاطباء وعلماء التشريح يعرفون اعضاء الجسم ووظائفها ووجه الترابط بينها، وتكييف كل عضو منها مع الآخر ، وعلماء الكيمياء يعرفون ما فى جسم الانسان من مواد وعناصر، وعلماء النفس يعرفون ما فيها من خصائص وغرائز حيوانية وانسانية، وعلماء التاريخ يعلمون ما فعل الانسان وما عجز عن فعله، وقد يعلم علماء الآثار عمر الانسان على هذه الارض .. اما الحكمة من خلق الانسان فلا يعلمها الا خالق الانسان وموجده .

وقال مؤلف معاصر : «لا يزال وراء النصوص الدينية المتعلقة بخلق الانسان من الاسرار ما لا نعلم ، كما ان علم الانسان بنفسه وبامكاناته الهائلة لا يزال محدودا الى الان، وربما استطاع الانسان ان يعرف عن الكون المادى اكثر مما استطاع ان يعرف عن اسرار نفسه» .

ونحن نقول مع هذا المؤلف : ان الانسان يعرف عن غيره اكثر مما يعرف عن نفسه ؛ وان هناك اسرار الخلق الانسان لم تفسر بعد ، ونقول ايضا : ان النصوص القرآنية لم تتحدث بالتفصيل : وتبين بصرامة ما هو القصد الاول من خلق الانسان ووجوده .. ولكن بوسعنا اذا امعنا النظر فى بعض الايات ان ندرك الحكمة من وجود الانسان، وانه وجد فى هذه الدنيا الفانية ليستعد ويهيىء نفسه للحياة ابقى واكمل ، فوجوده الاول وسيلة، ووجوده الثانى هو

الغاية .

قال تعالى: «ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين - ٣٦ البقرة» .
أى ان الانسان يتمتع في هذه الحياة، ويستثمر محاصيلها وخيراتها ، انه يبني بيتاً، او يفتح متجرأ ، او يفرس بستانا، ولكن ما هو بالمالك الحقيقي لشيء من ذلك، وانما هو حارس يسلم ما في يده للاولاد الوافدين من بعده ، ثم ينتظر الاحفاد دورهم في التسلم والتسليم.. وفي نهج البلاغة :«ماذا يصنع في الدنيا من خلق للآخرة».

وقال سبحانه:«ان الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار - ٣٩ غافر» .

أى ان نهاية الانسان هي الآخرة؛ والنهاية هي الغاية بالذات . وقال :
«أفحسبتم ان اخلقناكم عبثا وانكم اليها لانرجعون - ١١٥ المؤمنون» . أى لو كانت الحياة الدنيا هي الغاية من خلق الانسان ووجوده لكان خلقه عبثا لا معنى له.. واذن؛ فلا بد من وجود حياة ثانية للانسان تبقى ببقاء الله سبحانه. ومن هذه النصوص تبين معنا ان الحياة الاولى وسيلة لغيرها، وان الثانية غاية في نفسها .

وتسأل : وما تصنع بقوله تعالى : « انى جاءل في الارض خليفة - ١٦٥ الانعام؟ . فان ظاهر الآية يومىء الى ان الاستخلاف في الارض غاية لا وسيلة ؟ .

الجواب :

ان آيات القرآن الكريم يفسر بعضها بعضا، لانها جميعا من مصدر

واحد ، وهناك آيات كثيرة تدل بصراحة على ان الله سبحانه و جدا الانسان في دار الدنيا ليتهيأ فيها بالعمل الصالح لحياة اخرى ابعد اثر امن الاولى واعظم ، وفي هذه الحياة الاعلى ، يلقي الانسان الجزاء على ما قدم من اعمال في الحياة الادنى ..

قال تعالى : « هو الذى جعلكم خلائف فى الارض فمن كفر فعليه كفره - ٣٩ فاطر » . وقال : « يومئذ يصدر الناس اثنائا ليروا اعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - ٨ الزلزلة » وقال . « انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا - ٧ الكهف » أى ان الله سبحانه اوجد الانسان فى دار الدنيا ليعمل ، و تظهر اعماله التى يستحق بها الثواب . والعقاب فى الآخرة ، وعليه يكون عمله فى الدنيا غاية من جهة ووسيلة من جهة اخرى هو غاية بالنظر الى الامتحان و الابتلاء طريق بالنظر ووسيلة الى ان الابتلاء والامتحان الى النجاح او الرسوب فى الآخرة .

ولا مانع من الجمع بين هذا المعنى ، وبين قوله تعالى : « انى جاعل فى الارض خليفة » حيث قال المفسرون : معناه ان الله سبحانه استخلف الانسان على الارض ليعمرها ، وينتفع بخيراتها ؛ لا مانع ابداً من الجمع فالانسان يعمر ، وينتفع ، وفي نفس الوقت يعمل صالحا . اى ان وجود الانسان فى دار الدنيا عبارة عن عملية مزدوجة من العمل للدنيا ، والعمل للآخرة : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا - ٧٧ القصص » .

سؤال ثان : وماذا تصنع بقوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس

الايعبدون - ٥٦ الذاريات » فانه يدل بصراحة على ان الغاية من خلق الانسان هي ان يعبد الله فقط لاغير ؟

الجواب :

المراد بالعبادة هنا ؛ كل عمل يرضى الله سبحانه من اى نوع كان و يكون ، وليس من شك ان مرضاة الله ، جل شأنه ، هي السبيل الوحيد الى الحياة الطيبة الدائمة ، وعليه يكون المعنى ما خلقت الجن والانس الا ليعملوا صالحا ، وبهذا العمل الصالح يحيون حياة دائمة فى جنة قائمة .. وبكلمة ان قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس .. الخ يرادف قوله : « وما امروا الا يعبدوا الله مخلصين له الدين - ٥ البيمة » .

اى لتكون اعمالهم كلها خالصة لوجه الله سواء أكانت من نوع الركوع والسجود ، ام من نوع آخر .. ونتيجة الاخلاص فى الاعمال هي الخلود فى جنات تجرى من تحتها الانهار . اما الحديث القدسى : « خلقت الخلق لكى اعرف » فمعناه ايضا لكى يعملوا صالحا باخلاص ، لان من عرف الله حقا خاف من عذابه ، ومن خاف اتقى ، ومن اتقى فهو فى جنة المأوى .

لا توحيد ولا نبوة الا مع البعث :

قالت طائفة من المتفلسفين : ان المعاد ممتنع بالذات ، وان العقل يستقل استقلالاً تاما بعدم امكانه جسم او روحا فضلا عن وقوعه ، لان المعدوم لا يعاد ، وان من مات فات .. وتوقف آخرون عن الحكم نفيا واثباتا .

وابطل العلم الحديث زعم المانعين والمتعسفين بعد ما اثبت حدوث
المادة على اسس واقعية ، وانها تتحول الى طاقة . وان الطاقة ايضا تتحول
الى المادة .

ووقفت طائفة اخرى موقفا مضاداً من الطائفة الاولى ، وقالت بثقة
وحزم :

« ان العقل يحكم حكماً مستقلاً وباتاً بوقوع المعاد جسماً وروحاً
فضلاً عن امكانه .. وقالت فئة من الفئات : بل يحكم العقل باعادة الروح
فقط ، لانها جوهر مجرد لا يقبل الفناء .. وقد تكون هذه الفئة وتلك الطائفة
على حق .. ولكن دليلهما مبهم ومعقد ، وفهمه يحتاج الى عقل كبير كعقل
انيشتاين واديسون اللذين قلبا العالم كله رأساً على عقب ، ودفعاه الى الامام
مئات السنين .

اما نحن فنرفض هذا الافراط ، وذاك التفريط ، ونقف موقفاً متوسطاً
بين الاثنين ، ونقول : ان العقل السليم يحكم بإمكان المعاد حكماً مستقلاً
بصرف النظر عن العدل الالهي والنصوص الدينية ، وبحكم بوقوعه وانه
حتم لا مفر منه ، ولكن مع النظر الى ثبوت النص والعدل الالهي ، اما
ثبوت النص فواضح بعد ان تجاوز حد التواتر ، وبلغ الضرورة الدينية ،
واما العدل الالهي فهذا بيانه :

ان الله سبحانه منح عباده القدرة ، والعقل والارادة ، ثم كلفهم و
امرهم بالخير ، ونهاهم عن الشر ، وهم بالقدرة يفعلون او يتركون ، وبالعقل
يميزون بين هذا وذاك ، وبالارادة يختارون فعل الخير او فعل الشر .. هذا

هو شأنه جل وعلامع عباده .. وقد اطاعه منهم من اطاع ، وعصاه من عصى
فى هذه الحياة ثم مضى كل من الصالح والطالح الى حفرة ، دون ان يشاب
المطيع ؛ ويعاقب العاصى ، بل ان كثيرا من العصاة طغوا وبغوا ، و ملأوا
الارض ظلما وفسادا؛ ولم يحاسبهم محاسب ، ويسألهم سائل .

فان افترض انه لا بعث ولا حساب غدا فمعنى هذا ان الظالم والمظلوم ،
والمؤمن والجاحد عند الله سواء بل الجائر والمفسد خير وافضل عنده سبحانه
من العادل والمصلح ، والطاغية الباغية اكرم عليه ممن استشهد فى سبيل
الحق والانسانية . . وليس من شك ان هذا يتنافى مع عدل الله و حكمته و
قدرته ، بل ومع وجوده ايضا . . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . . وقد رأينا
كثيراً من المظلومين يصرخون من الاعماق قائلين : لو كان الله موجوداً
لما ابقى طاغية على وجه الارض . . وليس هذا القول الا انعكاسا عن غريزة
الايمان بوجود عادل قادر يقتص للمظلوم من الظالم ، ولكنهم تعجلوا
القصاص لحرقة الالم ، وذهلوا عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها ، فقالوا ما
قالوا ، وهم فى قرارة نفوسهم من المؤمنين .

ومما قلته فى التفسير الكاشف : ان اقوى الادلة على ثبوت البعث قوله
تعالى : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لانظلم اليوم ان الله سريع الحساب
١٧ غافر» . ان هذه الاية تحمل برهانها معها ، و تدل على نفسها بنفسها ..
« اليوم تجزى كل نفس بما كسبت» ولماذا ؟ . لانه لا ظلم عند الله ، بل هو
سريع الحساب . . والتحليل العلمى لهذه القضية انه لولا هذا اليوم الذى
تجزى فيه كل نفس بما كسبت لكان الله ظالما لاعادلا ، ووجوده نقمة لا -

رحمة ، وتكليفه عبثاً بالحكمة .. سبحانه وتعالى عما يصفون .. والنتيجة الحتمية لهذا المنطق ان كل من انكر البعث والحساب والجزاء فقد انكر وجود الله ، لاعدله فقط من حيث يريد ، او لا يريد .

هذا ، الى ان فكرة البعث تقضى على فكرة العدم التى تفرق الانسان فى الشعور بالتفاهة والضياع ، وتقتل فيه معنى وجوده وتسلب عليه اليأس و الكآبة .. الامر الذى يحطم حياته او يدفعه الى الاستغراق المجنون فى الفردية وانتهاج الملذات وبعد ، فلا توحيد ولا نبوة الامع بالبعث والحساب والجزاء ولا بعث ولا جزاء الامع التوحيد والنبوة ، فكل واحد من الاصول الثلاثة متمم للآخر ، وبالجميع يحكم العقل مباشرة او بالواسطة ، وبهذا وحده يطمئن القلب ، ويجعل للانسان معنى ، وللحياة حقيقة ، قال انيشتين : ان الشخص الذى يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيساً فحسب ولكنه غير مؤهل للحياة » وقال افلاطون : لو لم تكن للانسان حياة ثانية لكان الفرد اشرف منه .

وقال الفيلسوف الالماني « كنت » : على الانسان ان يكون فاضلاً فى اخلاقه و اعماله كى تتحقق له السعادة ولن تتحقق بحال الا اذا آمن باله حكيم خبير ، يعلم النوايا الطيبة ، و يجازى عليها ، و يكون الله وحده هو الكفيل والضامن لسعادة الطيبين .. ولما كانت الحياة الدنيا لا تحقق الجزاء الذى يفرضه القانون الاخلاقى فان الموت لا يمكن ان يكون نهاية حياة الانسان ، ولا بد ان تكون الروح خالدة لكى تستطيع مواصلة طموحها ، والاقتراب من غايتها ، وهذا لا يكون بطبيعة الحال الا فى حياة

اخرى .

وقال جماعة من الفلاسفة : ان الله سبحانه قادر عظيم و عليم حكيم
فيستحيل ان يوجد الادنى حيث يمكن وجود الاعلى واى عاقل يختار
النقص على الكمال ، والعدم على الخلود ؟ . وليس من شك ان خلق
الانسان لحياة باقية اولى واعلى من خلقه لحياة فانية .

المعاد الجسماني :

المعاد الجسماني ممكن عقلا، وثابت شرعا بصريح الكتاب والسنة
المتواترة ، واجماع المسلمين كافة في كل عصر ومصر حتى اصبح ضرورة
دينية ، والايمان به من اصول الدين الاساسية التي يجب البحث والنظر
لمعرفتها تماما كالتوحيد والنبوة ، و من انكر المعاد جسما و روحا ، او
جسما فقط فقد انكر الجنة والنار من حيث يريد او لا يريد ، لان اوصافهما
في النصوص مادية تبصر بالعين ، و تسمع بالاذن، وتذاق بالفم : وتلمس
باليد، كالغرف والاشجار؛ والكؤوس والانهار، والحدائق والولدان، والحدائق
والاعناب ، ولا موجب للتأويل بعد حكم العقل بالامكان، وليس من شك
ان انكار الجنة والنار رد صريح على ما ثبت بالضرورة عن الله و رسوله .

اما القول بان هذه الاوصاف كناية عن لذة الروح او ألمها، وان الحكمة
من هذه الكناية مجرد التبرغيب والترهيب، او مجرد التقريب الى الازهان ،
او هما معا، اما هذا القول فمبهم، ورد على الله ورسوله بطرح النصوص القطعية
متنا وسنداً . . . وفوق هذا فنحن لا نتصور راحة وتعبا ، ولذة وألما من غير
جسم؛ كما لا نتصور جسم ما يتبلل بالماء، لا لشيئ الا لان ظله قد ارتسم فيه

وايضاً لاتصور ان كوكباً عظيماً تسعه مر آة صغيرة لان صورته قد انعكست فيها..
ان الملائكة الروحية وآلامها ترتبط بالجسم ارتباطاً وثيقاً.. حتى الحب العذري
يعتمد على النظرات والابتسامات وعلى عذوبة الحديث واسلوب الحركات ..
وقد ثبت في العلم الحديث حركة بلا حياة ولا ندرى : هل ثبت فيه حياة بلا
حركة او حركة بلا جسم؟

اقول هذا وقد قرأت اقوال المتصوفة وبعض الفلاسفة عن نشوة الروح
ومرحها وبهجة العقل واشراقه حين يتحرران من ظلمة الجسم وكثافة المادة
قرأت الكثير من هذا النوع ولكنني ما فهمته ولاهضمته ولماذا؟ . هل لانه
كلام فارغ لا محصل له اولان فهمي بليد وآسن .

وقال صاحب الاسفار : ان السيف سيف بحدده لا بحديده». . ونقول له :
ولاحد للسيف من غير حديد . . وان قال : ان الحديد محمول لاحامل وقابل
لافاعل قلنا في جوابه: لائثر للفاعل الا بوجود المنفعل . . واذن فلا بد منهما
معاً وهذى هي الحال بالنسبة الى الروح والجسد فلا غنى لاحدهما عن الآخر
حيث لا توجد متطلباتها الا به ولا يشعر هو الا بها (١) .

. ومن اجل هذا آمنّا وآمن كل عارف باعادة الانسان روحاً وجسماً
تماماً كما كان في حياته الاولى ولاغربة فان قدرة الله لا يعجزها شئ ولا
نفقر الى اداة وآلة.. انه يقول لغير الكائن كن فيكون وللانسان الذي صار تراباً
وعظاماً الى سيرتك الاولى فيعود بجسمه وحجمه، ودمه ولحمه وبملامح
وجهه وخطوط اصابعه وعدد شعرات رأسه وبدنه التي تختلف في كل فرد

(١) صاحب الاسفار يوكد المعاد الجسماني، ويصر عليه، وذكر هذه الجملة

«السيف بحدده لا بحديده» تمهيداً لاثباته، وناقشناه بقصد التوضيح ودفعاً للالتباس .

عن الآخر منذ الانسان الاول الى الانسان الاخير كل هذه وغيرها تعود الى سابق عهدها كما كانت تماما وكمالا .

وتسأل : هناك ادلة تقول : الانسان بعد موته ، وقبل بعثه اما فى عذاب ، واما فى ثواب ، حسب عمله ، واذا كانت الروح لانحس بشقاء وهناء بدون الجسم - كما قلت - تكون هذه الادلة حكما بالاموضوع ، ولفظا بلا معنى ، لان جسم الانسان خلال هذه المدة تراب ويباب ، وابعدها يكون عن روحه ؟.

الجواب :

يجوز فى حكم العقل والعدل ايضا ان الروح بعد ان تفارق جسمها الطبيعى تتصل بجسم آخر مثله ، ويكون هذا الاتصال سببا لتعيمها او جعيمها تماما كالماء يبرد بالثلج ، و يسخن بالنار .

وروايات اهل البيت (ع) تدل على ذلك قال الامام الصادق (ع) : اذا قبض الله ارواح المؤمنين صيرها فى قالب كقالبها فى الدنيا فكلون و يشربون ويتعارفون قال الشيخ البهائى : وامثال هذه الاحاديث من طرق الخاصة كثيرة ؛ وروى العامة ما يقرب منها انظر الاربعين حديثا ص ١٩٠ وما بعدها لهذا الشيخ الجليل .

وليس لقائل ان يقول : ان هذه المادة الجديدة لم تأت بجناية ؛ ولم تدرما الغاية ؛ فكيف يتخذ الله من عذابها وسيلة لعذاب الروح التى جنت واخطأت ، لا يحق لاحد ان يقول هذا كما لا يحق له ان يقول : ما ذنب الحطب حتى يحرق ، والقمح حتى يطحن ، والحجر حتى يكسر ؛ لان كل ذلك وما

اليه غير قابل بطبعه للالام والعذاب.. وانما اتخذ وسيلة اليه .

وقال صاحب الاسفار فى ج ٢ من السفر الرابع طبعة ٣٧٩ هـ : ان النفس بعد ان تفارق البدن تدرك بقوتها الخيالية الجزئيات و الماديات ، ومن ذلك ما يحدث لبدن الميت فى قبره ، ونعيم النفس وجحيمها انما يكونان بمجرد تصورهما لما يعرض لبدنها المقبور ، وان سعة القبر عبارة عن انشراح الصدر ، وضيقه عبارة عن ضيقه . ثم قال صاحب الاسفار فى ص ٢٢١ : « ان النفس اذا فارقت البدن بقى لها من البدن امر ضعيف الوجود ، فوقع فى الحديث النبوى التعبير عنه بعجب الذنب » . بفتح العين اى اصل الذنب .

وان دل هذا القول على شىء فانما يدل على ان النفس لا تتألم و لا تنعم الاعلى صعيد البدن او تصوره - على الاقل - .

الآكل والمأكول :

وتسأل : ان للمعاد الجسمانى محاذير ، و اهمها الشبهة الذائعة والمعروفة بشبهة الآكل والمأكول ، وهى كما فى الاسفار : « احتج من انكر البعث بانه ان اكل الانسان انسانا فالاجزاء المأكولة ان اعيدت فى بدن الآكل لم يكن الانسان المأكول معاداً ، و ان اعيدت فى بدن المأكول لم يكن الآكل معاداً ؛ ولزم ان تكون الاجزاء المأكولة بعينها منعمة و معذبة اذا اكل مؤمن كافرا »

واجيب عن ذلك فى الكتب الكلامية بان المعاد هو الاجزاء التى منها ابتداء الخلق ؛ و هى الاعضاء الاصلية عندهم ، والله يحفظها ، ولا

يجعلها جزء البدن آخر» .

ثم قال صاحب الاسفار ما معناه : ان هذا الجواب لا يفي بالغرض ،
والحق ان كل ممكن فى نظر العقل ، ودل عليه الوحي يجب الايمان به ،
والبعث الجسمانى ممكن عقلا ، وثابت وحيا ، فوجب التصديق والايمان ..
اما اقيسة الفلاسفه واهل المنطق فما هى بمعصومة عن الخطأ .. مع العلم
بان صاحب الاسفار اجاب عن هذه الشبهة فى غير مكان من اسفاره بهذه الاقيسة
التى لا تغنى عن الحق شيئا .

جهنم والاسلحة الجهنمية.

وتسأل : لقد ذكر سبحانه فى كتابه صور العذاب اهل النار ، قراءتها
تبعث الرعب فى القلوب والنفوس ؛ و القشعريرة فى الجلود ، و التوتر
فى الاعصاب ، فكيف بمن يذوق ويختبر .. ومن هذه الصور حشر المجرمين
مكبليين بالقيود ، يلبسون ثيابا من مادة شديدة الالتهاب ، وعلى وجوههم
غطاء و غشاء من نار ، اما طعامهم فمن شجر الزقوم ، و شرابهم من ماء
الصديد ، هذا و هم فى جحيم لا يقضى عليهم فيموتوا و لا يخفف عنهم
العذاب .. ألا يتنافى هذا مع حلم الله و رحمته : وجوده و رأفته ؟ ألا يكفى
لجزاء هذا الانسان بلحمه و دمه بعض هذا الجحيم الاليم ؟ .

الجواب :

ان فى الناس مجرمين يستحقون هذا النوع الاليم و اكثر منه
ايضا لو امكن .. و من هؤلاء الذين يستمنون للاجيال السنن السيئة ، و
يحاربون الحق ، او يكتمونونه و هم يعلمون ، و اعظم منهم جرما تجار

الحروب الذين اعدوا السفك الدماء و تدمير الحياة الاسلحة الجهنمية كالقنابل الذرية والهيدرو جينية ، والمواد السامة التى تقتل الالوف و مئات الالوف فى دقائق معدودات .. ان اية عقوبة يعاقب بها السفاحون فهى دون ما يستحقون ... وليست السلاسل والاصفاد وسرايل القطران بشيء فى جانب تدمير البلاد وتشريد العباد ، وسلب اقواتهم ومقدراتهم وتشريدهم وتقتيلهم بمئات الالوف .. وبكلمة ان الجريمة بنوعها واثرها ، لا بصورتها ومظهرها .

هل هذا علم و تحقيق ؟.

وهناك مسائل كثيرة ذكرها صاحب الاسفار وغيره فى مباحث المعاد ، واعرضنا عنها لانها لا تتصل بالبعث من قريب او بعيد ، ونشير هنا الى مسألة واحدة منها كشاهد ومثال ، قال صاحب الاسفار فى الجزء الثانى من السفر الرابع فى مبحث من مباحث المعاد ص ١٤٤ طبعة سنة ١٣٧٩ هـ : قال مانصه بالحرف :

« العنقاء محقق الوجود عند العارفين لا يشكون فى وجوده كما لا يشكون فى البضاء وهو طائر قدسى ، مكانه جبل قاف ، وصغيره يوقظ الراقدين فى مراقد الظلمات ، وصوته ينبه الغافلين عن ذكر الايات ، ونداؤه ينتهى الى اسماع الهابطين فى مهوى الجبال المتتردين كالحيارى فى تيه الظلمات » .. الى آخر هذه المبهمات والمعميات .

وقال المعلق على الاسفار : جبل قاف اى قاف القدرة اذا نظرنا الى

فوق ، وقاف القلب اذا نظرنا الى تحت .

ولادارى : هل هذا كشف علمى حديث يثبت المعاد بالتجربة
والعيان ، ويحمل الجاحدين على التسليم والاذعان ، او هو ثورة دينية
انسانية ضد الجهل والفقر والتخلف ، او هو عبادة وتقديس ، او هو مجرد
حيرة ولبلة ، او ماذا ؟ .

ان الاسلام - كما حدده القرآن والسنة النبوية . سهل يسير لا يحتاج
فهمه الى منطق فلسفى ، وتفكير علمى .. انه واضح وبسيط يمكن شرحه
بمنطق الفطرة فى سطرين فقط ، و يمكن ان يشرحه العلماء فى
مجلدات ..

ومن اجل هذا خاطب به سبحانه الاذكىء والبلداء ؛ و حملهم
المسؤلية .. كل بحسبه .. واى شىء ادل على ان الاسلام هو دين الفطرة
والبساطة - من دعوته تعالى كل عاقل ان يتجه بنفسه الى الكون و ما فيه
ليتعرف على عجائب خلقه ، وبه يستدل على وجود الخالق الحكيم ، وان
الذى بدأ الخلق اول مرة يعيده ، وهو بكل شىء عليم ؟ .

وبعد ، فانى احمد الله الذى هداى الى معرفته ، والتمسك بالنبي
وولاية الصفوة من عترته واشكره على توفيقى الى هذا الكتاب وغيره مما
كتبت واذنت .. وما شعرت بالغبطة والسعادة كشعورى - وانا ختم كتابى
هذا بفلسفة المعاد - فى مشهد الامام الرضا (ع) وجواره مساء (ه) جمادى -
الاولى سنة ١٣٩١ هـ الموافق ٢٦ حزيران سنة ١٩٧١ م . وهو سبحانه المسئول
ان يجعل جزائى عليه ، وجزاء من استفاد منه واهتدى به شفاعة النبى و
آله الابرار يوم تسود وجوه ، وتبيض وجوه . انه خير مسئول ، والصلاة على
محمد واهل بيته ، وعلى كل من استن بسنتهم ، ومات على ولايتهم .

بَيْنَ الشُّبُوحِ وَالرَّاسِمَاتِ

قصة هذا الفصل

لاحظت ان تلاميذى فى دار التبليغ الاسلامى بمعزل فى معرفتهم عن الانجاهات الفكرية والمذاهب السائدة فى هذا العصر، وانهم لا يفرقون بين الاشتراكية والشيوعية؛ وبعضهم لم يسمع من قبل كلمة الرأسمالية فضلا عن معرفته بحقيقتها واهدافها.. ومن الطريف ان احدهم قال لى فى اليوم الثانى من القاء الدرس : مارأيت هذه الكلمة فى كتب اللغة .

فكتبت ملخصا لهذا الموضوع ، والقيته عليهم ليكونوا على بصيرة من اصوله الاساسية - على الاقل- وايضاً جعلته احدمواد الامتحان ، وكانت النتيجة مرضية ، والله الحمد .

وما كان من قصدى ان اجعل هذا الملخص فصلا من كتاب فلسفة التوحيد والولاية؛ ولكن احد تلاميذى المتفوقين فى التحصيل والامتحان حدثنى بما اغتبطت به ، وحمدت الله عليه، قال : ضمنى مجلس مع بعض الشباب فى احدى مدن ايران، فتحدثوا عن الانظمة الاقتصادية، واشتركت فى الحديث وتفوقت كما رأى من حضر وسمع ، والفضل لله ولدرسك هذا، ولولاه ما كان امامى الا الصمت او القول بغير علم، لانى لم اكن من قبل على امام بالموضوع فشكرت الله سبحانه ، وقلت فى نفسى لو لم يكن لوجودى فى قم سوى هذه

لكفى وادرجت التلخيص هنا رغبة فى المزيد من النفع والفائدة ، وعليه سبحانه المعول .

فلسفة الشيوعية ونظامها الاقتصادى :

للسيوعية فلسفتها الخاصة بتفسير الكون والانسان بصرف النظر عن الاقتصاد ونظامه، وايضاً لها نظام يختص بالثروة وتوزيعها؛ واذن ، فموضوع كل من فلسفة الشيوعية ونظامها الاقتصادى مستقل عن موضوع الاخر ، وان كان هذا النظام وثيق الصلة بتلك الفلسفة، ولكن الصلة غير الموضوع كما ان الانسان غير الماء مع قوة الصلة بين الاثنين .

وفلسفة الشيوعية بوجه العموم تتمثل فى ان المادة هى الموجود الا سبق من كل موجود؛ بل هى الموجود الوحيد الذى لاشيىء غيره فى الوجود كله واطلق الشيوعيون على هذه الفلسفة «المادة الجدلية» بالنظر الى ان المادة تتغير وتتحوّل من الشيىء الى نقيضه باستمرار الى ما لانهاية.. وفرعوا على هذه الفلسفة ان الانسان فى جوهره وماهيته مادة صرف وانه من صنع الطبيعة وحدها ، وانه يفنى و يزول كلية بالموت تماماً كنبته الربيع ، وانه لا طبيعة بشرية عاقلة بالذات ، ولا قيم لها مطلقة ، ولا هى بمعنى واحد هام لا فراد الانسان فى كل جيل، لانه لاشيىء فى الواقع سوى كائن طبيعى اسمه الانسان ، يندمج مع غيره من الكائنات الطبيعية « وليس ما يمنع ان يتحوّل فى المستقبل الى كائن آخر يكون مفهومه غير مفهوم الانسان الحالى ، وايضال ان يكون هذا الكائن الاخر هو النهائي و الحاسم ، بل يتحوّل الى ثالث ، والثالث الى رابع .: الى ما لانهاية .. ففى كل حقبة من

التاريخ طبيعة بشرية جديدة تختلف عن غيرها من الحقب .

اما الذى نراه فى الانسان من احساس وادراك وارادة فهو جانبى ثانوى يتفرع عن المادة ويتولد منها .. وبالقلم العريض ان كل ما فى الانسان من خصائص كالعقل والارادة وغيرها من الغرائز ان هو الا من افراز جسمه و اعضائه تماما كالعرق والمخاط وسائر الفضلات .

هذى هى الفلسفة الشيوعية فى جوهرها و واقعها .. اما الفلسفة القرآنية فانها تعترف بانسانية الانسان ، و تفضيله على المادة ، وان الله خلقه له ولمصالحه ، قال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم .. وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا - ٧٠ الاسراء » . وقال : « الله الذى جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء وصوركم فاحسن صوركم ورزقكم من الطيبات - ٦٤ فصلت » .

وبعد هذا العرض الموجز نسأل الشيوعيين : هل قولكم : المادة هى الموجود الوحيد هو من وحى المادة او من غيرها ، فان كان من غيرها فقد ناقضتم انفسكم و اعترفتم بان المادة ليست هى الموجود الوحيد ، وان كان قولكم هذا من وحى المادة نفسها احتاج اثباته الى دليل مغاير للمادة لان الشئ لا يكون دليلا ومدلولا ، ومدعيا وحاكما ؟.. والمفروض انه لا شئ فى الوجود الا المادة ، و بالتالى فلا دليل على ماتزعمون ..

وايضا اذا كان العالم كله مادة وجب ان تكون خصائصه واحدة من غير فرق بين الانسان وغيره من الكائنات ، ولا وجه لظهور الحياة فى مادة دون مادة .. ثم هل تدرك المادة نفسها بنفسها ؟ نوجه هذا السؤال للشيوعيين

لأنهم ردوا على المثاليين بأن الذات المدركة - بالكسر - غير الشيء المدرك - بالفتح - وايضا اذا لم يكن للبشرية من قيم فلما ذا تقديس الشيوعية وعبادتها ؟ .. وبالتالي اذا كان الانسان مادة وكفى فيجوز تسخيرها واستعباده، بل واكله ايضا تماما كما جاز ذلك في غيره من الاشياء المادية.. واذن فعلام الصياح والصراخ للمطالبة بحقوق العمال ماداموا في حقيقتهم كالة التي صنعوها و اداروها بايديهم ؟ اما عقولهم و احساسهم فهي ثانوية لقيمة لها ، لانها تولدت من المادة ذاتها تماما كالعرق والمخاطو الفضلات ؟.

اما النظام الاقتصادي الشيوعي فانه يلقى الملكية الخاصة الغاء تاما ، ويحرمها تحريما مطلقا حتى ملكية الانتاج نفسه ، و السلع الا - ستهلاكية فضلا عن الوسائل المنتجة كالارض والالة والعمل ، بل لا يحق للانسان ان يملك ثمرة عمله بالذات برغم ان الشيوعية تفرض عليه ان يعمل حسب طاقته : ومع هذا لاشيى له من كديمينه ، وعرق جبينه الا ما يملأ بطنه ؛ ويكسو جلده ، وما يأوى اليه عند . بيته تماما كوحش الغاب ، وان كان مخترعا مبدعا .

والغريب ان انصار الشيوعية يعتبرونها قمة القمم ، ونهاية النهايات ؛ وفي الوقت نفسه يؤمنون بان كل شيء يتغير ويتحول الى ضده حتى اذا وصل هذا الضد الى درجة معينة تحول الى ضده .. وهكذا الى ما لانهاية ؛ ومعنى هذا ان التحول والانقلاب ضرورى حتمى ، فكيف تكون الشيوعية اذن ، هي القمة والنهاية ؟

طبيعة الرأسمالية ونظامها

الفرق بين المالك والرأسمالي عموم وخصوص مطلق ، فكل رأس مالي هو مالك ، و لالعكس ... فقد يملك الانسان بيتا يسكنه او بستانا او حانوتا يستثمره في سد حاجاته دون ان يمكنه من السيطرة على غيره ، وهذا يسمى مالكا فقط ، اما المالك الرأسمالي فهو الذي يملك من المال ما يقوى به على غيره ، ويستطيع بواسطته ان يتحكم باسباب الحياة العامة ولو بجهة من الجهات .. وكثيرا ما تطلق كلمة « برجوازي » على - الرأسمالي .. وقد استخلصنا هذه التفرقة من الاستعمال الدارج ،

والرأسمالية بطبيعتها عدوة الاديان والانسانية . لانها توغل في احتقار الضعيف والمحروم وتعتبره آلة يتحرك لينتج الارباح لاصحاب رؤوس الاموال ، فهم وحدهم محور الوجود و غايته ، و غير هم وسيلة لتكديس الثروات في مصارف الاثرياء . . و نتيجة لذلك يرى اصحاب رؤوس الاموال ان أى شعب يحاول الاستقلال الاقتصادي والاكتفاء الذاتي عن سلعهم و مصانعهم فهو العدو الاكبر للدود لاصل وجودهم و حياتهم ، يدبرون ضده المؤامرات والانقلابات ، وعمليات التخريب والتجسس ، ويشنون عليه الغارات سرا وعلانية ، ويقفون ضده في الامم المتحدة ؛ و يضيقون عليه الخناق اقتصاديا حتى يموت جوعا .. بل لواقام أى انسان مصنعا في جزء من الارض ينتج سلعة ما ، ولومن نوع «الملكة» اعتبره الرأسماليون هزيمة لهم ، وطعنة في قلوبهم ؛ لانه يقفل مصنعا مماثلا من مصانعهم .

وبعد فاذا كانت الشيوعية تقف موقفا عدائيا من الاديان و العقائد
التي ترفضها ولا تدين بها فان الرأسمالية حرب على كل شعب يبتغى التقدم
على المستوى الاقتصادى ، و يرفض ان تكون مقدراته و خيراته نهبا
لشركات «العالم الحر» وان يكون سوقا لسلعها و انتاجها .

النظام الاشتراكى :

وللنظام الاشتراكى انواع متعددة ومختلفة ؛ ولكنه - على وجه
العموم - يؤمم مصادر الثروة الكبرى كالبتروول و غيره من المعادن ، و
الصناعة الثقيلة ، ويلغى الاقطاع والاحتكار ، ويقر الملكية الخاصة فيما
عدا ذلك ، ولكنه يضيق عليها الخناق بفرض القيود والشروط التي تقلم
من اظافر أصحاب المال ، و تجردهم من السيطرة و النفوذ ؛ وتقرب بين
الافراد والطبقات من الوجهة المادية؛ و لاتلغى الطبقة من الاساس فى
المجتمع الاشتراكى - كما رأى احد الباحثين - .

واذا امعن النظام الاشتراكى فى كثرة القيود على الملكية الخاصة،
و اضعاف رأس المال - قرب من النظام الشيوعى ، و يسمى بالاشتراكية
اليسارية ، ومثاله ان يؤذن للفرد بحيازة عشرة دنمات من الارض فقط ،
و اذا خفف القيود عن الملكية الخاصة قرب من النظام الراسمالى ، و
يسمى بالاشتراكية اليمينية ، ومثاله ان يحدد ملكية الارض بمئة دنم
اواكثر ، واذا لم يشدد ولم يخفف يسمى بالاشتراكية المعتدلة ، كما لو
جعل ملكية الارض ٥٠ دنما .

واذا نظرنا الى الاشتراكية كنظام اقتصادى و كفى بصرف النظر

عن فلسفة اربابها وعقيدتهم ؛ وبلاهورى وتحيز ، اذا نظرنا اليها كذلك الفينا لها حسنات وسيئات .. فمن حسناتها ان الفئة القليلة المستغلة - كالرأسماليين والاقطاعيين وسماسرتهم - اختفت او كادت من المجتمع الاشتراكي .. وايضا كان الرأسماليون وارباب المصانع يستغلون العامل استغلالا بشعا حيث كان يعمل اربع عشرة ساعة فى اليوم باجرز هيد حتى اذا شاخ او مرض طرحوه كالقمامة ، فاضطرتهم الاشتراكية ان يعترفوا للعامل بحقوقه او بعضها كتحديد ساعات العمل ، وزيادة الاجور مع نفقات التطبيب ، والالتزام بقانون الضمان او العدل الاجتماعى كما اضطرتهم ان يبسطوا كف الهبات لبعض المشاريع والهيئات خوفا من العواقب وحرصا على المكاسب .

ومن سيئات الاشتراكية ان الغرض الاول من تشريعها هو الاصلاح الجذرى وقطع الطريق على المظالم والمفاسد - كما قال الاشتراكيون - فهل تحقق هذا الغرض فى البلاد الاشتراكية ، ونال كل واحد من اهلها وانبائها الفوز العظيم اوسلك الطريق القويم اختيارا او اضطرارا ؟ اجل ان الاشتراكية حررت الكثير من ظلم الرأسماليين والاقطاعيين ما فى ذلك ريب ولكنها اعادتهم من جديد الى دكتاتورية البروليتاريا ليغدوا آلة لا تتحرك الا بإرادة الحاكمين ؟.

ولماذا سلطة العمال فقط لاغير ؟. لأنهم معصومون عن الخطاء و الخطيئة اولانهم وحدهم العدو الابرار ؟. ولنفترض انهم كذلك فهل كانت الكلمة الحاسمة فى دولتهم للعمال اجمعين او للبعض منهم ؟. وقد اجاب

عن هذا السؤال زعماء الاشتراكية وحمايتها أجاب عنه خلفاء ستالين بأنه كان هو وحده الحاكم بأمره ولاشيء لمن خالف الألاموت حتى ولو كان عاملاً بل وعضواً من الحزب الشيوعي . . إذن أين حق الضعفاء وحمايتهم من الأقوياء في ظل الاشتراكية ودولتها العمالية؟

وما قرأت شيئاً ابليغ وأقوى في الرد على الرأسمالية من قول الاشتراكيين ورددهم على الرأسماليين وإيضاماً قرات ابليغ وأقوى من ردهؤلاء على الاشتراكيين . . ونحن نتبنى الردين معاً، ونبطل كلا بمنطق الآخر .

ويتلخص رد الاشتراكيين بأن النظام الرأسمالي يخضع السياسة والحكم لأصحاب المال والاقتصاد، ويجعل من الدولة خادماً أميناً لمصالحهم والاضربوا وثاروا وبذلوا الأموال لحربها والقضاء عليها، وجندوا الصحف والأذاعات لهذه الغاية . . فتغريهم هي بما يزيدهم قوة وثراء حرصاً على مرضاتهم وسكوتهم ، وهم يمنحونها بدورهم الثقة والتسديد ، والشعب الضحية ومن لا حول له ولا قوة . . وكم من رجل كان قبل الحكم طاهر القلب والقصد ، ولما حكم امعن في الفساد حرصاً على سيطرته ومكانته وخوفاً عليها من اعداء الحق والعدل .

و يتلخص رد الرأسماليين بأنه اذا كان النظام الرأسمالي يخضع السياسة والحكم لأرباب المال فإن النظام الاشتراكي يخضع ثروة البلاد كلها لرجال السياسة والحكم ، وتصبح الفئة الحاكمة هي المسيطر الوحيد على الأقوات والثروات ، والنتيجة الحتمية لذلك هي سلب الحرية عن الناس ، وبالتالي لاشعب الألاموت ، ولأمال الألاموت تصرفها .

و اذا بطل هذا و ذاك وجب البحث عن نظام ثالث يحقق العدل
والحرية للجميع

بين النظام الاقتصادي الشيوعي والاشتراكي

اتضح مما قدمنا الفرق بين النظام الاقتصادي الشيوعي والاشتراكي ، و
زيادة في التوضيح نشير في هذه الفقرة الى خصائص كل منهما :

١ - ان النظام الشيوعي يلغى الملكية الخاصة من الاساس بشتى
انواعها ، اما النظام الاشتراكي فيلغى البعض ، ويقيد البعض الاخر ، كما
قدمنا :

٢ - النظام الشيوعي يمحو الطبقات حيث لامالك لشيئى على
الاطلاق، اما النظام الاشتراكي فيقرب بينها ولا يلغىها كلية حيث يكون
في الناس مالك صغير ومقيد ، ولا مالك اطلاقا .

٣ - الحكم والسلطة في النظام الاشتراكي بيد البروليتاريا « أى
العمال » فهم وحدهم يشرفون على ثروة البلاد و يتصرفون فيها ، اما
الشيوعية فان اختصت بجزء من الارض ، ولم نعم وتشمل العالم بكامله
فلا بد لها من دولة تحافظ على ارضها وحدودها من الاعتداء ، وهذه الدولة
بطبيعة الحال تمثل جميع الافراد حيث لاطبقات ولا صراع . . وان عمت
الشيوعية العالم كله ، وانصهر فيها جميع الناس فلا يحتاجون انذاك الى
دولة على الاطلاق حيث لاطبقات وقوميات ؛ ولا جباية ضرائب ولا حدود ، -
ولا ملكية خاصة تحتاج الى حماية .

وخفيت هذه الحقيقة على بعض الباحثين حيث نسب الى الشيوعيين

القول بان المجتمع الشيوعى لا يحتاج الى حكومة ، وان لم نعم الشيوعية العالم كله ؛ وكان هناك حكومات غيرها «وكل حكومة اخرى على وجه الارض تتمسك بمرکزها» على حد تعبيره .

٤ - النظام الاشتراكى يقول : من كل حسب طاقته ، ولكل حسب عمله ، ويقول النظام الشيوعى : من كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته ومعنى هذا ان بعض الافراد فى المجتمع الشيوعى قد يعطى كثير أو يأخذ قليلا كالمخترع ، و البعض الاخر قد يعطى قليلا ، و يأخذ كثيراً . كالعامل البسيط - بالنسبة الى المخترع - واذن اين المساواة ؟ .

٥ - النظام الشيوعى يؤمم الملكية الخاصة من غير تعويض ، والنظام الاشتراكى قديعوض .

٦ - الاشتراكية عند الشيوعيين هي الخطوة الاخيرة التى يتم الانتقال منها مباشرة الى الشيوعية .

الاسلام والاقتصاد

للإسلام تشريع خاص به فى العبادات والمعاملات بشتى انواعها ، وفى الاحوال الشخصية ، والجنايات بحدودها وقصاصها ودياتها ؛ ويطلق على هذا التشريع بمجموعه كلمة الفقه الاسلامى و ايضا يطلق عليه الاحكام العملية فى مقابل الاحكام الاعتقادية ، وايضا يطلق عليه كلمة الشريعة الاسلامية ، و بعضهم يعمم كلمة الشريعة للاحكام الاعتقادية والعملية .. وللفقه الاسلامى اصوله و تاريخه وكتبه ومعاهده .. ولا كلام فى ذلك ؛ اوسؤال .. والشئ الذى تجب دراسته ومعرفته هو :

هل للإسلام مذهب أو نظام اقتصادى كامل ومفصل على غرار الانظمة التى تناولت الحياة الاقتصادية انتاجا وتوزيعا ؟ . مع العلم بان هذا النظام الاقتصادى - على فرض وجوده - وثيق الصلة باحكام الشريعة الاسلامية بوصفهما فرعين عن اصل واحد ، ومعلولين لعلة واحدة ، وهى مبادئ الاسلام و علل الاحكام .

واجاب مسلم غيور بانه لاشك فى ان الاسلام قد وضع نظاما مفصلا ومبرما للشئون الاقتصادية انتاجا حتى « الآلة والعمل » وتوزيعا على ارحب نطاق . . كيف ؟ . وهل يستكمل الاسلام لخصال الخير الا بهذا النظام .
واجاب مسلم آخر ، لا يقل غيره على الاسلام من الاول ، وقال : ان كمال الاسلام وفضله ان يترك المجتمع فى ان يختار من الانظمة للشئون الاقتصادية ما هو اصلاح له وانفع على اساس المراعاة لمبادئ الشريعة الاسلامية . وبكلمة ان الاسلام يراقب ويحاسب جميع الانظمة الاقتصادية ، فيحلملها او يحرمها او يعدلها على اساس مصلحة الفرد والجماعة ، وفى نطاق الحدود التى اشار اليها سبحانه بقوله : « تلك حدود الله فلا تعتدوها . ٢٢٩ البقرة » . وعليه يكون للإسلام انظمة اقتصادية ؛ لانظام واحد . واستدل هذا الغيور بما يلى :

١ - ان البيئات الاجتماعية تختلف وتباين تباينا كبيرا فى ثرواتها ووسائل انتاجها وفى حاجاتها ، و ضرورتها الاقتصادية ، وفى عاداتها و ثقافتها ، بل ان المجتمع الواحد تتبدل اوضاعه ، وتتغير مع الزمن ، و يغدو النظام الذى كان يصلح بالامس من امر يفسده اليوم ، ويضر بمصالحه

فمن العسير اذن ، بل من المستحيل ان يحقق نظام اقتصادى واحد لمجتمع واحد جميع مصالحه فى كل زمان ، وفى سائر الاحوال ، فكيف بالنظام الموحد للعالم كله من اقصى المشرق الى اقصى المغرب ، وفى كل الاجيال والازمان ! .

وأى عاقل يتصور أن النظام الاقتصادى الذى يطبق الآن فى الولايات المتحدة هو اصلح وانجح نظام لليمن واهل اليمن ؟ . وان الاجدروالاليق بالكويت والسعودية ، وبعد أن تدفق النفط فى اراضيها هو نظام الصحراء الجرداء الذى كان متبعاً فيهما قبل النفط ؟ .

ان رسالة محمد (ص) عامة تشمل كل جيل فى كل ارض ، والى آخر يوم . فاذا سنت هذه الرسالة نظاما اقتصاديا لمجتمع دون مجتمع ، وليئة دون بيئة - تنافى ذلك مع عمومها وشمولها ، ومع اهدافها ايضا ومن البدهة بمكان ان تعدد الانظمه بتعدد المجتمعات والاضاع غير ممكن ، لان الاوضاع والاحوال لاحصر لها ولانهاية . . والنظام المثالى العالمى مستحيل - كما اوضحنا - فلم يبق الا السكوت ، واذا سكنت الاسلام عن هذا النظام ، لانه مستحيل من الوجهة العملية والتطبيق - فقد اعلن وقال - اى الاسلام - بلسان الامام جعفر الصادق (ص) : « كل شىء فيه للناس الصلاح فى جهة من الجهات فهو جائز ، وكل ما فيه قوامهم ، وبلغة لجميع حوائجهم فحلال تعلمه وتعليمه والعمل به » . وبهذا المبدأ العظيم تتجلى عظمة الاسلام ، ولولاه لم يكن دين الله يسراً ، ولا للإسلام مرونة ، ولا للعقول ان تنظر وتجتهد ، وبالتالي ان لاتختم الشرائع بشريعة محمد

محمد (ص) ولا النبوات بنبوته .

٢ - ان الاسلام أجاز الاقطاع فى حال دون حال ، وذلك اذا دار الامر بين ان يبقى هذا الجزء من الارض بورا ومعطلا بلا انتاج مع عدم الاقطاع فى حين ان الناس بحاجة ملحة لاصلاحه وانتاجه ، وبين ان يقطعه الحاكم مؤقتا لفرد اولفئة على ان ينتج ما يسد الحاجة ، ويستغنى بانتاجه عن الاستيراد من الخارج ، اذا كان الواقع على هذا فالاقطاع ارجح كوسيلة الى غيره ، لا كغاية فى نفسه تماما كأكل الميتة لمن اشرف على الهلاك .

وايضا اناط الاسلام- فى بعض الحالات - ملكية الارض بدين الانسان وعقيدته ، فلقد اجمع فقهاء المسلمين قولاً واحداً على ان أى بلد مشرك فتحه المسلمون بالقوة - بعد ان رفض اهله الاسلام - انتزعت منهم الارض وتعدو بكاملها مشاعا بين المسلمين لمن كان منهم ويكون ؛ وان اسلم اهل البلد المشرك طوعا ودون قتال تبقى الارض على ملكهم يتصرفون فيها كما يشاؤون .

ولانعرف نظاما اقتصاديا اناط الملكية بالدين والعقيدة . . ولكن الحكمة والمصلحة آنذاك اقتضت هذا القيد والشرط تماما ، اقتضت جواز الاقطاع عند الضرورة ، واذن ، من الخطأ ان نعتبر هذه الملكية مصداقا للنظام الاقتصادى وفرداً من افراده .. وقدفسر بعضهم هذه المصلحة بالترغيب فى الحق والتحذير من اتباع الباطل ، ونعطف على هذا التفسير : ان الاسلام ترك الخيار للمحاربين المشركين فى البقاء على ارضهم ان اسلموا ، او

انتزاعها منهم ان اصرروا على الشرك والقتال ، فاختاروا الشق الثاني ،
وتنازلوا عن الارض ، وهم قادرون على ابقائها والاحتفاظ بها لمصالحهم .
٣ - لو أن الاسلام قيّد المسلمين بنظام اقتصادي خاص لارفعهم
فى العسر والجرح ، واضطرهم الى الخروج من عقيدتهم ، و بهذا يكون
الاسلام هو السبب لاغرائهم بمعصيته والخروج عليه كالحاكم الجائر يخرج
الرعية الى الخروج عن طاعته .

٤ - اتفق فقهاء المسلمين على ان كل شىء جائز وحلال اذا لم
يحرم حلالا ، او يحلل حراما ، وان الاسلام قد أقر الناس على عاداتهم و
اوضاعهم وانظمتهم ومعاملاتهم ، وأباح لهم كل ما يأتى به الزمن على ان
لا يتعدوا حدود الله واحكامه . . وعلى هذا الاساس ، عدل الاسلام بالتقليم
والتطعيم بعض المعاملات والتصرفات ، وهدفه الاصيل اصلاح الكل ،
وتوجيههم نحو العدل والاحسان ، وصيانة الحقوق و الحريات للناس
على السواء ؛ وتوطيد الصلات فيما بينهم ، فلا يطفى انسان على اخيه
بالاستغلال ، او التعدى على حق من حقوقه .

هذا ما اجمع عليه علماء المسلمين ، بل هو من ضرورات الدين ..
ونذكر من اقوالهم عبارة لقطب من كبارهم ، وهو الميرزا النائيني فيما
رواه عنه تلميذه الخراساني فى فوائد الاصول ج ٤ ص ١٤٠ ، وهذا نصه
بالحرف : «ان الامور الا اعتبارية العرفية التى يعتبرها العرف و العقلاء
كالملكية - انتمبه لكلمة الملكية - والزوجية والرقية والحرية ونحو ذلك من
منشآت العقود . والايقاعات كلها ثابتة عند الناس قبل الشرع والشرعية وعليها

يدور نظامهم ومعاشهم ، والشارع امضاها بمثل «احل الله البيع .. واوفوا بالعقود .. والصلح جائز بين المسلمين ، ونحو ذلك من الادلة الواردة فى الكتاب والسنة وليست الملكية المنشأة بالبيع من المخترعات الشرعية بل هى من الامور الاعتبارية العرفية التى امضاها الشارع بزيادة بعض القيود والخصوصيات».

وهذا الكلام واضح الدلالة على ان «الملكية» لا واقع لها فى نفسها، ولاهى من جعل الاسلام واختراعه فى شىء ، وانما هى مجرد تبيان واصطلاح من العرف دعت اليه الحاجة والضرورة تماما كما تبانوا على بيع الطماطم مثلا - بالوزن - و الجوز بالعد، واقرهم الاسلام على ذلك تيسيرا عليهم من جهة ، ولانهم لم يعصوا الله فيه من جهة ثانية ، ومعنى هذا ان الناس لو تبانوا و اتفقوا على الغاء الملكية طوعا وعن طيب النفس - لاقرهم الاسلام على ذلك، ولم يلزمهم بابقاء الملكية جبرا وقهرا .. و ايضا معنى هذا ان الاسلام لانه نظرية له مستقلة فى الملكية ، وانما نظره ورأيه فيها تابع للعرف وجودا واستمرارا ، وبالتالي فلا مذهب اقتصادى للإسلام، لان الملكية هى الدعامة الاولى للانظمة الاقتصادية .

وبعد ، فلا اثر فى الاسلام ، ولا فى غيره لنظام اقتصادى عالمى ومثالى كامل وثابت لا يتغير ولا يتبدل بتبدل الاوضاع والمستحدثات .
أبدا لا وجود لهذا النظام ، لانه يتفرع عن الاوضاع والمستحدثات، ويرتبط بها ارتباط الحكم بموضوعه ، والفرع باصله .. هذا الى ما ثبت بالتجربة والخبرة الحسية ان كل وضع ، بل كل محسوس ملموس اقتصادا

كان ام غير اقتصاد فهو الى التغير والزوال لامحالة ، واذن فالنظام العالمى خيال فى خيال ..ومن اجل هذا وغير هذا فوض الاسلام الى الناس التنظيم للشؤون الاقتصادية والاحتفاظ باصول الشريعة وقواعدها ، وقال فيما قال: كل شىء عيسر. العيش والراحة، ويحقق العدل والخير للجميع فهو جائز وحلال قديما كان ام جديدا . ومعنى هذا فى جوهره ان كل نظام انسانى عادلا يضع فرضا واحدا من فرائض الله ، و لاسنة واحدة من سنن نبيه فهو اسلامى قرانى محمدى ، وعليه يكون للاسلام انظمة اقتصادية لانظام واحد ، وبالتالى فإى القولين افضل وانسب لعظمة الاسلام ، هذا القول ، او القول بان للاسلام نظاما واحدا فقط لا يتغير ولا يتبدل من يومه الى قيام يوم الدين ؟ .

اطار واحد لجميع الاجكام

فى الشريعة الاسلامية احكام مطلقة لا يحدها شىء، وهى التى شرعت لمصلحة الانسان بما هو انسان بصرف النظر عن وضعه الخاص، مثل رفع القلم عن الصبى والمجنون ، وايضا فى الشريعة احكام مقيدة وتابعة للظروف والاوزاع الخاصة ، وهذه تتبدل وتتطور بحسب تبدل الظروف وتتطور الاوزاع كجواز الاقطاع اذا دعت الضرورة .. وللاحكام الشرعية اطار واحد يضمها جميعا مطلقة كانت ام مقيدة ، وهذا الاطار هو الاصول العامة والقواعد الكلية ، ومنها : ضمان الحرية لكل فرد مع العدالة - طبعا - اذ لا حرية بلا عدالة ، ولا عدالة بلا حرية وصيانة الحقوق للجميع ، والتعاون المتبادل ؛ واعتبار المجتمع وحدة متماسكة ، وان حقوقه تسمو

على حقون الافراد ، والاعتراف بكل ما يصلح الناس ، وتحريم الاستغلال وكنز الاموال ، ومسؤولية الانسان عن عمله وتقديره .. الى غير ذلك من القيم الاخلاقية ، والمبادئ الانسانية .

وبهذه المبادئ وحدها تقاس جميع الاقوال والافعال ، وفي ضوءها يجوز للمجتهد ان يختار من القوانين الوضعية المستحدثة ويفتي به ، وان لم يكن له عين ولا اثر في كلمات الفقهاء القدامى منهم و الجدد .. فاي حكم انساني ، او نظام ينبع من حاجات الناس فهو حكم الله ونظامه وقانونه ، وان كان جديدا ومن تشريع الشرق او الغرب .. بل يجب على الفقيه ان يفعل ذلك و بخاصة المرجع المسموع ، كي يثبت للملاء والاجيال ان الاسلام هو دين الحياة والخلود.. بل يجوز للمجتهد ان يراجع الفقه المدون من الفه الى يائه ؛ ، وان يقلم ويطعم على شرط الرسالة المحمدية التي جاءت لصالح الناس واصلاحهم في كل زمان ومكان ، ومن اجل هذا فتحت باب الاجتهاد على مصراعيه ، وجعلته حقا ثابتا للمجتهد ، ووجب عليه ان يمارسه ، ولا يمنع الناس من ثماره .

ولكن اين الذي لا يخشى في الله لومة لائم ؟ . « واذ اخذ الله ميثاق الذين اؤتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشتررون - ١٨٧ آل عمران » .

الاسلام ضد الانظمة الثلاثة

قلنا: ان الشيوعية تلغي الملكية ما لا وآلة وعمالا وارضاء وعقارا، وان الرأسمالية تطلقها للفرد بلا حدود؛ وان الاشتراكية تحدد وتقيّد ببعض القيود،

اما الاسلام فلا يلغى ولا يطلق، ولا يحدد، بل يفوض لكل مجتمع الرأى فى اختيار ما هو اصلح له انتاجا وتوزيعا على شرط كتاب الله وسنة نبيه، و كل من الانظمة الثلاثة يرفض هذا الشرط و يناوئه، قال تعالى : « وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور .. والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا » . وقال الشيوعيون : كلا، لا مرد لاثواب ولا عقاب؟ ولا شىء الا الدنيا ومتاعها وغرورها .. ويأكل الرأسماليون اموال الناس بالباطل، يتلهون بها عن الله والانسانية ، ويستزيدون من الترف وكنز الاموال على حساب البائسين .. وهددهم سبحانه بقوله : « ذرهم ياكلوا و يتمتعوا و يلهمهم الامل فسوف يعلمون - ٣ الحجر » . . وتؤهم الاشتراكية املاك العباد بالقهر والغلبة ، و تحكم العمال بالدماء والاموال، والله سبحانه يقول : « لا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم - ١٠ النساء » . وقال الرسول الاعظم (ص) : « دماؤكم و اموالكم عليكم حرام » .

وبهذا يتبين معنا ان من نسب الاشتراكية الى الاسلام فقد خبط و خلط، وأنخذ من دين الله اداة لدعم الشيوعية والكتلة الشرقية من حيث يريد ؛ او لا يريد . و من نسب الرأسمالية بوضعها الحاضر الى دين سماوى فهو عميل مأجور، اوجاهل غير معذور؛ لان الجهل بالواضحات تقصير واهمال؛ ومن قال : للاسلام نظام اقتصادى مستقل بحدوده وقيوده عن كل نظام من هذه الانظمة فهو، ولا شك، نزيه القصد، وصاحب نظرية ايضا، ولكن خانه التطبيق، وكم من عالم نحري رزلت به القدم حين تصطدم خطوطه بعملية

التطبيق ، ومهما يكن فان الامر هين ويسير مادام كل منا يؤمن ويعتقد بان الاسلام يهدف فى جميع احكامه و مبادئه الى حياة افضل؛ وانها المثل الاعلى الذين يسعى الانسان بما هو انسان الى بلوغه فى كل جيل .

الزكاة :

قرن سبحانه وجوب الزكاة بوجوب الصلاة فى العديد من الايات، واهتم بها الفقهاء اهتماما بالغا ، فعقدوا لها فى كتبهم بابا خاصا، وحددوا نوعها وكميتها وكيفية ادائها ، ومن هم المستحقون لها ، و غير ذلك فى كلام طويل ، وتفصيل دقيق .

وتكلم حول فوائدها كثير من ارباب الافلام ، فرآها بعضهم من باب المساواة ، وآخر من العدل الاجتماعى ؛ وشط ثالث بقوله : ان الهدف منها ازالة الطبقة ، و تحقق الاشتراكية ، وقال رابع : هى عبادة . ولا تغفل العبادات الا بالنص الذى دل عليها ، وامر بها .

والحق ان فى الزكاة جانبين : احدهما عبادة حيث يعتبر فيها قصد التقرب الى الله تعالى ، وثانيهما حق مالى، و بالنظر الى هذا الجانب يصح لنا ان نعدّها من العدل الاجتماعى الالزامى، اما المساواة فيما زاد عن الحق المعلوم الذى ذكره الفقهاء فهى برواحسان، لا وجوب والزام .. و على اية حال فقد حارب الاسلام الترف والفقر معا، وحث كل غنى ان يبذل ما زاد عن حاجته فى سبيل الله؛ وعلى المعوزين . ومن ذلك قول الرسول الاعظم (ص): «من كان معه فضل من ظهر فليعده على من لازادله ، ومن كان له فضل من ظهر فليعده على من لاظهر له » . المراد بالظهر المطية والمركب . وفى

حديث ثان : « ايما اهل عرصة امسوا ، و فيهم جائع فقد برئت منهم ذمة الله » .

وهنا سؤال يطرح نفسه ، وهو مادام الامر كذلك فلماذا لم يحدد الاسلام الملكية الفردية . بمقدار حاجة الفرد فقط ، ويمنعه عن تملك الزائد بدل ان يبيع له ذلك ثم يحثه على الصدقة ، و يستدر عطفه وشفقته على المعوزين ! . و على الاقل ان يوجب على الاغنياء بذل مازاد عن حوائجهم تماما كما اوجب الزكاة .

الجواب :

ان الاسلام يحرص كل الحرص ان يستكمل الانسان حريته ، و يحتفظ بشخصيته ، و ان يستغل طاقة في الابداع و التعمير ، و يبذل في هذه الميدان كل ماله من جهد وكفاءة ، و من اجل هذا افسح له المجال على اساس الحق والعدل . . و في الوقت نفسه يحرص الاسلام ان يحتفظ الانسان بانسانيته وضميره و وجدانه ، فيتعاطف مع ابناء جنسه بالمال وبالنصيحة والارشاد ؛ وغير ذلك من انواع التعاطف والتعاون . . ولوقيد الاسلام الملكية الخاصة بحاجة الفرد لسد في وجهه باب التعاون ، والتقرب الى الله بعمل البر من جهة ، و قضى على ارادته و طموحه من جهة ثانية . . وليس من شك ان الانسان بلا طاقة و طموح اشبه بالجماد او الحيوان .

ونحمد الله شكر اعلى هدايته ، والصلاة على محمد وعترته .

من شرح النهج الجديد

ابتدأت بتأليف كتاب «فلسفة التوحيد والولاية» في شهر المحرم سنة ١٣٩١ هـ . بقم ، وانتهيت منه في جمادى الاولى بمشهد الامام الرضا (ع) في اوتيل سينا ، واعدت النظر فيه في شهر جمادى الثانية بمدينة تبريز ، وانا ضيف على العلامة الشهير حجة الاسلام الميرزا عبدالله مجتهدى ، وانتهت المطبعة منه في اليوم الاول من شهر رمضان المبارك ، وبقي من الملزمة الاخيرة ثلاث صفحات بيض ، فرغب الى القائمون على المطبعة ان املاها بأى شىء ، وفكرت حائراً : ماذا اختار؟ وكنت قد بلغت من «الشرح الكاشف» عن خطب نهج البلاغة الى قول الامام (ع) : «وان بليتكم قعدادت كهيتتها يوم بعث الله نبيه صلى الله عليه وآله» من الخطبة السادسة عشرة ؛ فاخترت للصفحات الباقية شرح هذه الفقرة .

يريد الامام (ع) ان المسلمين اليوم كما كانوا فى الجاهلية الجاهلاء تحسبهم جمعاً وقلوبهم شتى على ما فيهم من سائر العيوب .. وتكلم كثيرون

عن السبب الموجب لتأخير المسلمين ؛ ووضعوا في ذلك المؤلفات؛ وفسروه بالفرقة والشتات ؛ والمخالفة عن امر الاسلام؛ وعدم الالتزام باحكامه وكلامه وكلام الامام يومئى الى ذلك، لانه ربط ولازم بين عدم التقوى والبلىة؛ وآيات القرآن صريحة في هذا المعنى: «فلما زاغوا عن الله قلوبهم» -الصف- «والذين اهتموا زادهم هدى - ١٧ محمد» .

ونوجز بيان التلازم والترابط بان المسلم الحق هو الذى يؤمن ويعتقد اولاً وقبل كل شىء بان وراء هذا الكون ذاتا وقوة يجب ان يحبها ويقدها وايضاً يؤمن ويعتقد بان تلك الذات والقوة هى مصدر الخلق والتدبير ومصدر التحليل والتحريم ، وانها تهاب وترجى ، وتثيب وتعاقب .

ثانياً : ان يترجم المسلم تقديسه وحبه لله . وايمانه بانه تعالى هو وحده الخالق والحاكم والمشرع والمحاسب والمعاقب، ان يترجم ذلك كله بالافعال لا بالاقوال ؛ لان الحب والايمان يقاسان بالاثار والاعمال ؛ اما مجرد النظرية المنطقية ؛ والحالة النفسية فتشبهان الخيال وحديث النفس . هذا هو المسلم الحق والاسلام الصحيح، واذا نظرنا الى المسلمين فى هذا العصر، وارادنا ان نقيم تدينهم على هذا الاساس - وجدنا انهم يترجمون تقديس الله بالمظاهر والشعائر كالصوم والصلاة ، وبناء المساجد والحسينيات؛ اما الايمان بان الله وحده هو المحلل والمحرم ؛ والذى يجب ان يخاف ويهاب ؛ اما هذا الايمان فلا اثر له الا عند القلة القليلة من الافراد ، اما المجتمع الاسلامى على وجه العموم فالاسلام عنده نظرية منطقية تنحصر فى الازهان والاستدلال؛ وعصبية دينية لا تتجاوز الخطرات والاقوال .

ان الذين فى مجتمعنا اليوم مجرد «اتيكيت» و «بروتوكول» تماما
كالتهنئة فى الافراح والتعزية فى الاتراح، ولا نرى له اثرا الا فى العبرات
وضرب القامات، وفى سير المواكب واقامة الحفلات والاذان والصلوات، و
فيماعد ذلك لاثار للدين الا عند الافراد كما اشرنا. وهكذا كلما كثرت المظاهر
الدينية وارتفع طينها ضعف تاثير الدين من الوجهة العملية حتى قال قائل على
صفحات الجرائد: «ان الله لا يوجد بين القوم الذين يؤمنون به». وعسى ان يريد
ان الذين يكثرون من التظاهر فى الايمان هم ابعد الناس عنه تماما كالكسول
البطال يكثرون من الثروات والتفاهات . . . ان المتدين حقا و صدقا يظهر
دينه وايمانه فى جميع افعاله وحر كاته ، ووجوه نشاطه و اخلاقه لافى
مجرد الشعائر والمظاهر .

فهرست

المقدمة - ٣

العودة الى نقاش الجاحدين ٣ - استفت قلبك ٤ - انا والقارىء
٤- نجاحى كمؤلف- ٥ - نفثة مصدور ٦ - الفرار ٦ - الى قم ٧ - اعادة
النظر بروية ١٠ - تنبيه ١١ .

فلسفة التوحيد - ١٥

اثبات الخالق بمنطق الحس والعقل ١٥ - الدين والشباب ١٥ -
وجوب البحث والنظر ١٨ - دلالة الكون على علته ٢٠ - نحن والتجريبيون
٢٤ - نحن والبرجماتيون ٣٠ - العلم يدعو الى الايمان بالله ٣٢ - الفلسفة
والتأمل العقلى ٣٣ - العلم والتجربة ٣٣ - العلماء المفكرون ٣٤ - القمر
٣٤ - الانسان ٣٩ - الانسان والقرد ٤١ .

صفاتة تعالى - ٤٥

التوحيدان لانتوهمه ٤٥ - العلة اكمل من المعلول ٤٦ - نفى الصفات
٤٧ - انما هو اله واحد ٥٠ - حسبى الله ٥١ .

الخير والشر - ٥٤

هذه المسألة ٥٤ - ما قيل حول الخير والشر ٥٤ - معيار الشر والخير
٥٥ - الاسلام وتحديد الخير والشر ٥٨ - شبهة الشر ٥٩ - الخلاصة ٦٢ .

فلسفة الاختيار - ٦٤

مواضيع ثلاثة ٦٤ - معنى القضاء والقدر ٦٤ - موضوع القضاء والقدر
٦٥ - الايمان بالقدر ايمان بالعلم والعمل ٦٧ - هل الانسان مسير او مخير
٧٠ - الارادة والاختيار والرضى ٧٣ - الجبرية ٧٤ - المفوضة ٧٦ -
امر بين امرين ٧٨ - الله ومعصية العبد ٨١ - اشكال وحل ٨٣ - الشقى
والسعيد ٨٤ - ليلوكم ايكم احسن عملا ٨٥ - الهدى والضلال ٨٦ .

فلسفة النبوة - ٩١

النبوة ٩١ - هل العلم يغنى عن الدين ٩٦ .

محمد والقرآن - ٩٩

القرآن ومعجزة الانبياء ٩٩ - هل لمحمد معجزة غير القرآن ١٠٢
ما هو الدليل على صحة الاسلام ؟ ١٠٥ - القرآن والتوراة والانجيل ١١٠
الاسلام والصهيونية والاستعمار ١١٢ - اعجاز القرآن ١١٣ - التحدى
١١٤ - القرآن يتحدى الطغاة ١١٦ - اخبار القرآن بالمغيبات ١١٧ -
البشارة بمحمد ١١٩ - اهل الكتاب يعترفون بتحريف كتابهم ١٢١ - كتاب
اظهار الحق ١٢٧ - الفتح ١٢٨ - ايمان العقل والوعى ١٢٩ - اسلام على
واسلام ابى بكر ١٣٠ - الاسلام والقائلون بالحق ١٣٢ - من الذين آمنوا

١٣٤ - محمد خاتم النبيين ١٣٥ - العصمة نوعان ١٣٦ - ابن هو المعصوم
١٣٨ - الشيعة والعصمة ١٤٠ .

فلسفة الولاية - ١٤٥

اصول الدين ما يجب بلا شرط وما يجب مع الشرط ١٤٥ - بساطة
العقيدة ووضوحها ١٤٥ - اصول الدين على نوعين ١٤٦ - ما يجب للتدين
به من غير شرط ١٤٨ - ما يجب للتدين به على شرط ١٥٠ - ما يحرم
انكاره فقط ١٥٣ - طريق المعرفة الى اصول الدين ١٥٣ - التقليد في اصول الدين
١٥٦ - الشك في اصول الدين ١٥٧ - الغافل واصول الدين ١٥٨ .

من هم اهل البيت ١٦٢

الولاية علم - ١٦٨

معنى الولاية ١٧٠ - اقسام الولاية ١٧٠ - التفويض في تشريع
الاحكام ١٧٠ - الولاية المحمدية لا التكوينية ١٧٢ - الولاية الطبيعية
١٧٤ - اصل او فرع ١٨٣

حول التسنن والتشييع - ١٨٨

ولاية اهل البيت وخلافة ابي بكر ١٨٨ - السنة و مبدأ الاعتراف
بالواقع ١٩٠ - الاسلام و خلافة ابي بكر ١٩٣ - لماذا لم يحتاج الامام
بالنص ١٩٧ - لماذا سكوت القرآن عن اسم علي بالذات ٢٠٢ - علي
والعصمة ٢٠٧ - المهدي المنتظر عند الشيعة والسنة ٢٠٩ - لماذا الامام
الغائب؟ ٢١٠ - حياة المهدي المنتظر ٢١٦ . اشارة - ٢١٨

فلسفه المعاد - ٢١٩

التعجب من المعاد، هو العجب - ٢٢١

اناواليوم الآخر- ٢٢١ لماذا انكر والبعث ٢٢٣- لماذا وجد الانسان-

٢٢٥- هل هذا علم او تحقيق؟ ٢٣٨- لا توحيد ولا نبوة الا مع البعث ٢٢٩-

المعاد الجسماني ٢٣٣- الاكل والماكول ٢٣٦- جهنم والاسلحة الجهنمية ٢٣٧

بين الشيوعية والرأسمالية ٢٤١

قصة هذا الفصل ٢٤٣ - فلسفة الشيوعية و نظامها الاقتصادى

٢٤٤ - طبيعة الرأسمالية ونظامها- ٢٤٧ - النظام الاشتراكى - ٢٤٨-

بين النظام الاقتصادى الشيوعى والاشتراكى - ٢٥١ - الاسلام والاقتصاد

٢٥٢- اطار واحد لجميع الاحكام ٢٥٨- الاسلام ضد الانظمة الثلاثة - ٢٥٩

من شرح النهج الجديد ٣٦٣

للمؤلف :

الوضع الحاضر في جبل عامل .

الفصول الشرعية .

مع الشيعة الامامية .

اهل البيت .

الاسلام مع الحياة .

الله والعقل .

النبوة والعقل .

الاخرة والعقل .

المهدى المنتظر والعقل .

طبعت هذه الكتب الاربعة في مجلد واحد باسم « الاسلام والعقل ».

الفقه على المذاهب الخمسة ،

الحج على المذاهب الخمسة طبع هذان الكتابان في مجلد واحد

باسم « الفقه على المذاهب الخمسة » .

- الزواج والطلاق على المذاهب الخمسة .
- الوصايا والمواثيق على المذاهب الخمسة .
- الوقف والحجر على المذاهب الخمسة . طبعت هذه الكتب الثلاثة
- في مجلد واحد باسم «الاحوال الشخصية على المذاهب الخمسة» .
- مفاهيم انسانية بكلمات الامام الصادق .
- على القرآن .
- فضائل الامام على .
- على والفلسفة .
- امامة على والعقل ؛
- دول الشيعة .
- الشيعة والحاكمون .
- الشيعة والتشيع .
- نظرات في النصوص -
- معالم الفلسفة الاسلامية .
- المجالس الحسينية .
- فلسفة المبدأ والمعاد .
- مع علماء النجف .
- مع بطلة كربلاء .
- هذه هي الوهايه .
- اصول الاثبات .

فقه الامام جعفر الصادق عرضا واستدلالا في ستة اجزاء و ٣ مجلدات.

الاثنا عشرية واهل البيت .

التفسير الكاشف في سبعة مجلدات.

من هنا وهناك

فلسفة التوحيد والولاية .

من ذا ذاك .

تجارب محمد جواد مغنیه بقلمه . و لهذا الكتاب وارجاء طبعه

ونشره اكثر من قصة «وما نؤخره الا لاجل معدود» .